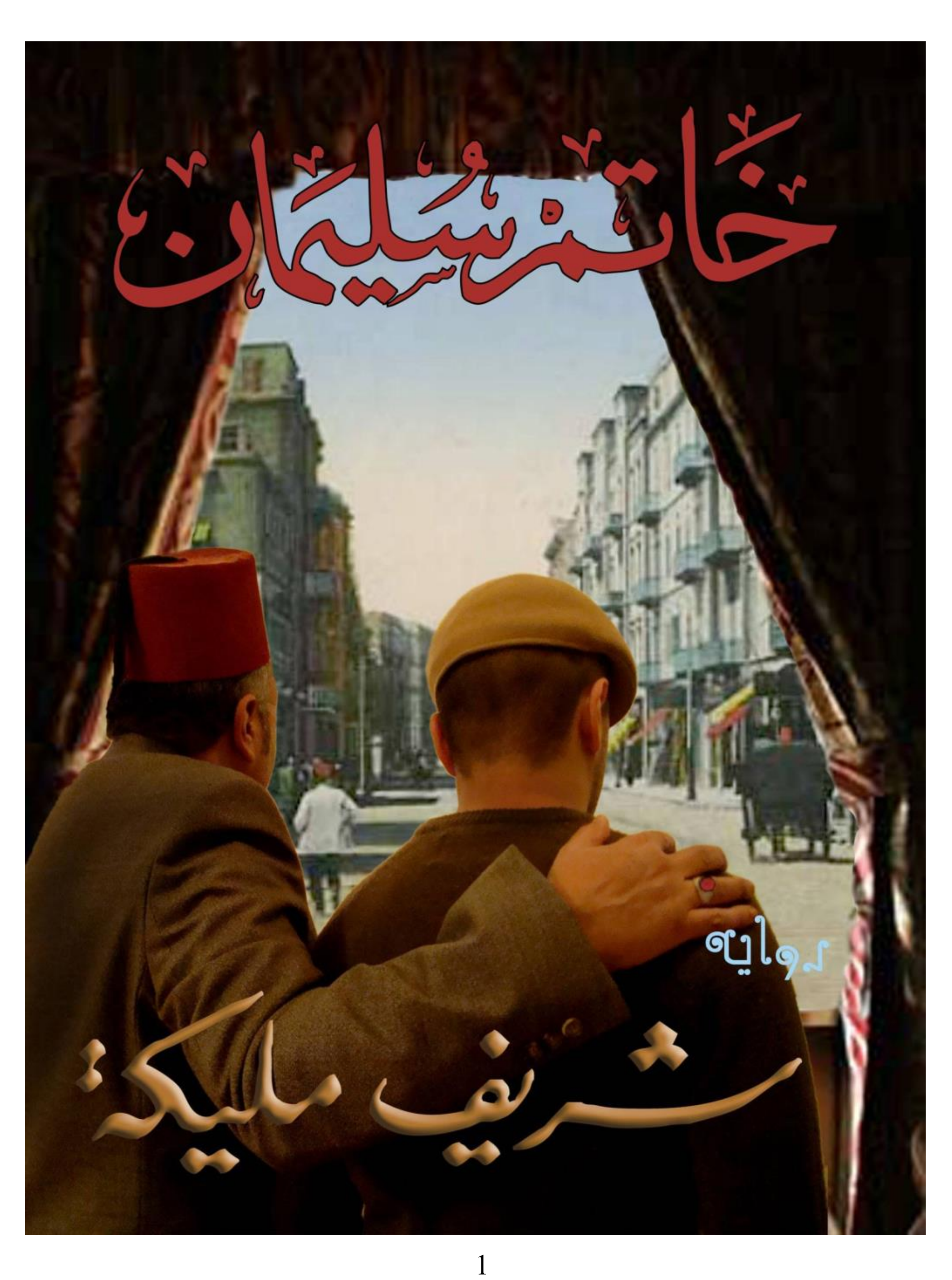

خاتم سليمان
رواية
شريف مليكة

مقدمة

ماذا يحدث بحارتنا؟

ليس اليوم كالأمس. ولا كان الأمس كأول أمس. أمر خطير طرأ. من السماء هبط أم من جحيم الأرض انفجر؟. وهل تجري هذه الشئون بمحض الصدف؟. ومع ذلك فالشمس ما زالت تشرق وتقوم برحلتها ال–يومية. والليل يتبع النهار. والناس يذهبون ويجيئون والحناجر تشدو بالأناشيد الغامضة.

ماذا يحدث بحارتنا؟

نجيب محفوظ (ملحمة الحرافيش) 1977

إذا ما كتبت رواية عن (كارس) ووضعتني داخلها، أحب أن أقول لقرائك ألا يصدقوا شيئًا مما تقول عني، أو عن أي منا. لا يمكن أن يفهمنا أحد من ذلك البعد على أي حال. أورهان باموك (ثلج) 2002

فكرة لاحقة

تحدث أمور في السر والعلانية. الحارة الغارقة في نشاطها الدائب لا تفطن لها. قليلون جدًّا من يلاحظون أشياء دون أن يُرتبوا عليها نتائج ذات بال. والقلوب ثملة بالآمال مؤمنة بالضياء.

نجيب محفوظ (ملحمة الحرافيش) 1977

الفصل الأول

بتلك الأفكار كان يدور ذهن "داود عبد الملك" وهو يتأمل ما حدث له اليوم. لماذا اليوم بالذات؟ شعور طاغ مسيطر عليه لساعات الآن بأنه يوم فريد، مختلف، غير باقي الأيام. تتوالى الأزمنة وتتعاقب الفصول علينا، ويجيء الرجال ثم يذهبون، فلا نعرف من أين جاؤوا أو إلى أين مضوا. وكل بضع سنوات يأتينا رجلٌ متميزٌ عن الباقين، ذو سمة فريدة، يأخذ بألبابنا ويبهرنا لبرهة من الزمن، ولكنه لايلبث أن يتوارى مع من توارى من قبله. فتمضي بنا الأيام من بعده عادية؛ لامبهجة ولاحزينة، لامثيرة ولا رتيبة، لاغنية أو فقيرة، فقط عادية. تشرق شمسها المعتادة، فيهرع القوم كعادتهم إلى أعمالهم، ثم يعودون بعدها إلى بيوتهم، يسكنون إلى زوجاتهم وأزواجهن، إلى أبنائهم وبناتهم، وآبائهم وامهاتهم، فيمزحون قليلا، ويمرحون قليلا، ويأكلون قليلا، ويتكلمون قليلا. ثم يتفرقوا، أو يناموا، أو حتى يرحلوا عنا، فتتوارى البسمات مع الأحزان، وتتوالى تلك الأيام "العادية" إلى أن يأتينا رجل غير عادي من جديد. ويظن أغلب الناس أن كل ما يحدث في هذه الحياة إنما هو من محض الصدفة أو المفارق–ة، بل ويسمون

بعض ما يحدث قضاء وقدرا! ياللسخافة!. يا الله! ما هذا البرد اللعين!.

لم يزل يخطو بخطوات واثقة فوق طريق الكورنيش بعيدًا عن "محطة الرمل" بصخبها، يتسلى بوقع كعب حذائه المتوالي بإضطراد رتيب فوق أرضية الرصيف حيث عم الهدوء النسبي مغل–فا الطريق من حوله بغلالة صامتة غير مألوفة، وقد تأبط بيسراه آلة العود التي لم تكن تفارقه. كان قبل اليوم مجرد عواد، آلاتي يعمل بالقطعة في حفلات (الناس الغلابة) في "محرم بك" أو "المَكس" أو في أحسن الأحوال "الأزاريطة" أو "الإبراهيمية" حيث يسكن الأجانب بنفحاتهم الدسمة. حقيقة يدعونه "الملك"، ولكنه مجرد كلام، فهو أولا وأخيرا ضرورة من ضرورات الفرفشة والمرح، لمن أوتي أجره، ثمن بضاعته، وهو على أي حال زهيد نسبيا؛ فرح، عيد ميلاد، سبوع، طهارة، يأتيه "الشيخ حسنين البصري" – متعهد الأفراح وصديقه المقرئ في المواسم والمآتم – إلى المنزل العتيق بمحرم بك، حيث شقته بالطابق الثالث وينادي من المنوّر بصوته الجهوري الرنان:

– "يا خواجة داود".

فيعرف على الفور أن هناك "شغلانة" بمكان ما، وثلاثون قرشا ينتظرونه.

توقف واستدار ليتأمل قرص الشمس الغائب خلف حي "السلسلة" الممتد أمامه، بمبانيه القصيرة المتكدسة عند الأفق، قبل أن يبدأ الخط السحري الذي يفصل ما بين زرقة البحر الممتدة وبين حمرة السماء من حول وهج القرص الغاطس أمامه، وقد اختفى ثلثه الأسفل، محَدِّثا إياه عن رحيل يوم ملئ بالأحداث، ومبشرا بقرص جديد تمامًا سيولد لأجل خاطر عيونه في فجر الغد. لملم جنبات المعطف الصوفي الذي استحال سواد هيئته اللامع الذي كان عليه يوم ابتاعه من سوق "زنقة الستات" إلي لون فيراني غامق من طول الإستعمال وقلة العناية، وأحكم وضع الكوفية النبيذية المضلعة حول رقبته، واستعدل طربوشه الأحمر القاني المحوف بسواد عند أسفله والقائم فوق رأسه باستحياء حيث لم يشده أوينظفه الكواء أبدا، لضيق ذات اليد ليس إلا. أحكم وضعه درءا لهبة ريح أمشيرية قذفت بموجة البحر الثائرة التي ارتطمت بقوة، فتحطمت ناثرة رذاذها في الهواء فوق صف الصخور المكعبة، المغطي بسجاد أخضر من النباتات والطحالب البحرية تنكشف

تباعا عند إنحدار المياه عنها، والمرصوص بطول كورنيش مدينة الإسكندرية؛ معشوقته، وملاذه، بيته ومسقط رأسه.

ملأ صدره برائحة البحر المنعشة، وسبح في أفكاره متأملا المنظر من حوله وتلك الأحداث المتعاقبة التي ملأت يومه حتى الآن، ولم يلبث أن دس يده الباردة في جيب المعطف الأيمن ملتمسا دفئه ومتحسسا الخاتم الفضي القابع في قاعه وهو يدندن:

القلب من جرحه بكي ظلم الحبيب

ولمين يا قلبي هاتشتكي هجر الحبيب

كان داود عبد الملك حينئذ، أو دعونا ندعوه كما يدعوه الجميع "الخواجة داود" - بالرغم من أنه لم يكن فع-لا "خواجة"- قد جاء إلى الإسكندرية من أي وطن آخر مثلا، ولا تركها ولا حتى حي محرم بك نفسه - حيث الشقة التي ورثها عن المرحوم والده - أبدًا - إلا طبعا في المرات القليلة حين أجبره العمل أو الضرورة القصوى إلى أن يتركها لساعات، أو ليوم أو يومين على أقصى تقدي-ر، ويقصد المدن المجاورة، أو القاهرة - أو "مصر" كما يدعونها الإسكندريون - في مرات

معدودة. وبالرغم من أنه لم يكن يعرف من البلدان غيرها، ولم ينطق لسانه سوى بالعربية لغة أهلها، إلا أنه كان يُدعى "الخواجة داود" لأنه لم يكن "مُسلما" كالباقين على أي حال. أو هو "ملك الطرب" كما يطلقون عليه في ساعة التجلي، لكثرة الأدوار والأغاني التي كان يحفظها، ولبراعته في العزف على آلة العود والغناء، بصوت عذب وقوي شهد له عنه الجميع. إسكندراني أبا عن جد، نشأ وترعرع في شوارعها وحواريها، وتعلم في مدارسها حتى حصل على البكالوريا، ولكنه لم يسع أبدًا وراء الوظيفة الحكومية، فقد كان كالعصفور يعشق حريته، ويتباهى بها ما بين أقرانه. مضت به الأيام حتى صار كهلا، على مشارف الخمسين، متوسط البنية، يميل إلى القصر ولكنه وسيم منمنم القسمات، أسمر البشرة في حمرة نحاسية نفحها به هواء البحر وشمس مدينته الساطعة، والعينان العسليتان الضيقتان في لمعان متوهج دائما، والشارب الملفوف المتناسق مع لمعة شعره الأسود ذو الجزر البيض عند سبليه وفوق قمته، المدهون والمصفف بعناية على الدوام، يمشي بخطوة واسعة وبخيلاء مادا بقامته لأعلى مع كل خطوة، معتنٍ على الدوام بلباسه ومظهره بحسب ما تتيحه ظروفه المادية. كان رجلا حي-يا، يعشق الحياة والطرب والمزاج،

يحب الناس جميعا، ولكنه يعشق النساء!. وقد تزوج ثلاث مرات في غضون السنوات الماضية - بعد أن فقد زوجتيه الأولتين - لمرض السل في حالة "بدور" زوجته الأولى، ولهرب الثانية، "صوفي"، المرأة اليهودية التركية الأصل، وغير المصرية الوحيدة التي اقترن بها، وقد فرَّت من مصر كلها عند احتدام الحرب العالمية الثانية ولمّا انتشرت الأنباء عن اقتراب قوات النازي من مدينة "العلمين"، فوجئ بها تحزم حقي-بتها وتحمل طفلتهما "مارجو" على ذراعها، وتسافر لمارسيليا عل متن باخرة صغيرة حملتهما مع مجموعة من اليهود الأوروبيين (الأشكينازي) من الإسكندرية هربا من بطش النازي المرتقب. ومن ثم فقد أنجب داود ثلاثة عشر إبنا وإبنة، فقد منهم سبعة للموت في سن الطفولة وأوائل الشباب، وبقى ستة، أحبهم إلى قلبه "سليمان"، الإبن البكر من زوجته الحالية "إيلين" التي أنجبت له أيضًا "منى" و"مكاري"، وإن رحل الأخير في شوطة الكوليرا الصيف الماضي، بالإضافة ل-"فؤاد" ابنه الأكبر و"موسى" و"ليلى" أبناء "بدور".

أما عن زوجته إيلين، فقد كانت فتاة قبطية يتيمة تعيش في ملجأ العذراء بكوم الدكة تحت كنف الكنيسة هناك. تميل إلى الجمال بعينيها السوداء الواسعة التي تملأ وجهها

وتسرق الناظر إليها وشعرها الفاحم السواد الذي كانت دائمًا ما تعقصه في دائرة فوق رأسها الشديد الاستدارة كرأس طفل وبشرتها القمحاوية الناعمة، وإن كان مايميزها حقا هو ذلك النشاط والهمة المتقدة التي لا تكل ولا تهدأ. كانت تهب دومًا من نومها قبل كل البنات في العنبر الصغير، فتسرع للكنيسة التي كانت في الحقيقة الحجرة الأخيرة في الممر الذي يمتد كالشريان المنصف لحجرات الدار، أقاموا عند حائطها الشرقي هيكلا للعذراء مريم، هو في الواقع عبارة عن منضدة خشبية بسيطة مفروشة حتى أرضية الغرفة المبلط، بغطاء لامع مطرز بصورة للسيد المسيح الطفل، وتحمله السيدة العذراء والدة الإله (أو الثيؤتوكوس باللغة القبطية، وقد كتبت بالحروف الديموطيقية ثم العربية على يافطة عند مدخل الحجرة الكنيسة) وقبعت أمام الهيكل أو المذبح سجادة بسيطة أو بالأحرى كليم أحمر يقف فوقه القس أثناء صلوات القداسات التي يصليها "أبونا ميخائيل" أيام الأحد والأربعاء والجمعة في الخامسة والنصف صباحا، حيث يفرغ بعدها من الصلاة ثم يتجه إلى كنيسة العذراء بمحرم بك ليشارك القمص مرقص عبد المسيح في صلوات القداس هناك. دأبت إيلين تمارس طقوس حياتها بالتزام ومثابرة، فكانت تصلي "الباكر" وهي جاثية تبلل الدموع

خديها عند فجر كل يوم، قبل أن يستيقظ أحد في الدار، ثم تسرع إلى المطبخ وهي تغني بتسابيح أو بترانيم، أو حتى بأغاني "سي عبد الوهاب" أو "الست ثومة"، اللاتي كانت تتنامى إلى أذنيها المرهفة، عبر الشبابيك، من الراديو القابع بالمقهى على الرصيف المقابل للدار والصادح بأغانيه ليلا ونهارا، فتعد الشاي والفطور للأم "إيريني" مديرة الملجأ والبنات اللواتي كن يتسرسبن تباعا لحجرة الطعام بالدار. ثم يمضي يومها بعد ذلك من عمل إلى عمل وهي تشدو لنفسها حتى غروب الشمس، حين تتجمع الفتيات في صحن الإستقبال ليستمعن إلى درس الكتاب والألحان الذي تلقيه إليهن أمنا إيريني كل يوم، فيما عدا الإثنين والجمعة، حين يأتيهن "أبونا ميخائيل" ليقود الاجتماع بدلا منها.

وفي يوم، وكان الدار يستعد لتقديم حفل خاص بمناسبة زيارة الأسقف لأول مرة، إصطحب أبونا الأستاذ داود العازف المشهور بمحرم بك، ليعزف العود في حين ترنم الفتيات. فحدث أن أعجب داود بصوت الفتاة إيلين قبل أن يجذبه إليها حسن مظهرها، حيث شده غناؤها الشجي الجميل النبرات، كصوت "ليلى مراد" ولا أقل، كما تفكر يومها، وكان قد فقد زوجته "بدور" لتوه وفي كنفه ثلاثة أبناء، ففكر أن

يتزوجها. عرض الأمر على القس الذي سأله أولا عن ديانته ليتأكد من كونه مسيحيّا أرثوذوكسيّا، ولمَّا نفى داود ذلك رفض تزويجهما طبعا إلا لو نال نعمة المعمودية على طقس الكنيسة القبطية، فسأله عما ينبغي له أن يفعل لينال هذه النعمة! فشرح له القس أنه ينبغي له أن يغطس في جرن مملوء بالماء باحدى قاعات الكنيسة حيث تحل عليه روح الله المقدسة، فلم يمانع داود من ناحيته إذ كان في أمَس الحاجة لزوجة في ذلك الوقت، ولم تكن الهوية الدينية الرسمية التي كانت ستكتب فوق خانة الديانة بشهادة الزواج تهمه كثيرا. ولم تمانع إيلين بدورها لمَّا أعلمتها الأم إيريني عن اعتزامهم تزويجها للأستاذ داود عبد الملك، ذلك الرجل الغريب عنها تماما، عملا بمبدأ الطاعة أولا، وحيث أنه كان في نظرها رجلا وسيما ومحترما، بالرغم من كونه أرمل ولديه ثلاثة أبناء، وبالرغم من فارق السن الواضح بينهما، إذ كان الزواج المخرج الوحيد لها من الحياة بالدار.

* * *

وما يزال يعبث في جيب معطفه بالخاتم الفضي الذي قبض به ثم أخرجه ليضعه حول بنصره، فانتابه ذلك الشعور الغامض بالقوة الكامنة بداخله كما كان قد اعتاد دائمًا كلما

وضع الخاتم حول إصبعه، ورفع عينيه للأمام ناحية الصخور، فكأنه أبصر أطيافا تتهادى مع ضربات الأمواج المتلاحقة، تعرَّف من بينها على شبه "دينوقراطيس"، المهندس الإغريقي الذي رأى رسمه في الموسوعة البريطانية التي ورثها عن والده، بردائه الأبيض الهفهاف، الذي كان قد خطط تصميم مدينته الإسكندرية بأمر من الإسكندر الأكبر، منذ أكثر من عشرين قرن من الزمان، فحولها من مجرد شاطئ من الرمال البيضاء حول قرية صغيرة للصيادين، إلى مدينة عملاقة – وقتها – حافلة بالقصور والأبنية، مدينة الفنار العجيب والمكتبة العظيمة، وعاصمة للدولة المصرية لنحو ألف عام. نعم! ألف عام ممتدة منذ نحو ثلاث مائة عامًا قبل الميلاد، وإلى أن أسس "عمرو بن العاص" مدينة "الفسطاط" العاصمة الجديدة لمصر في من–تصف القرن السابع الميلادي!.

ولم تكن رحلة داود عبد الملك وحده هكذا في تلك الأمسية الأمشيرية من شتاء 1951 على رصيف كورنيش الإسكندرية الخالى تمامًا من أي مخلوق كان، حيث لاذ الجميع، من دونه وحده، بدفئ بيوتهم من برد الشتاء السكندري القاسي، إلا محاولة منه، على طريقته الخاصة جدًّا في مناجاة البحر المترامي بأفكاره وتساؤلاته، آملا فيما يضفيه

الهدوء والصفاء الذهني الذي يهبه إياه في المقابل لإستيعاب ما حدث له في ذلك الصباح. كان قد استيقظ في الحادية عشر كعادته بعد السهرة الطويلة ليلة الأمس، وتناول كوب القهوة الممزوج ب–ن–ها المطحون بجوزة الطيب الفواح التي أعدته له زوجته، مع سيجارة لفها لنفسه متعجلا، وكان اعتاد أن يلف بنفسه التبغ في ورق البفره ويفرطه بطوله ثم يبرم الورقة ويلعق طرفها حتى يلتحم ببقية السيجارة، ثم يشعل طرفها ويدخنها وهو يتفل تباعا بقايا التبغ الذي قد يتسلل إلى شفتيه. وبسرعة ارتدى ملابسه التي كان قد ألقى بها ليلة أمس على المقعد المجاور لسريره، والتقط العود وخاتمه الفضي وساعة اليد من على الكومودينو ووضعهما بيده في عجالة، وصاح وهو يدير مقبض باب الشقة:

– "أنا نازل يا إيلين".

فقد كان على موعد للقاء "الشيخ حسنين البصري" الذي كان قد حدثه عن مشروع (شغلانة) شبه مستديمة لثلاثة أو أربعة أيام في الأسبوع، واتفقا على اللقاء بمقهى خليل أغا بمحرم بك. وفعلا وجد الشيخ في انتظاره عند وصوله، وان لم يكن وحده، إذ كان يجالسه ضابط شاب في لباسه العسكري بدت ملامحه مألوفة للوهلة الأولى. إستغرب وجود ذلك الضابط

ولكنه تفكر في أنه ربما يكون له علاقة بالوظيفة التي جاء من أجلها، أمَّا عن الشيخ حسنين هذا فكان رجلا سمينا ضخم البنية قويها، يتباهى دومًا بأصوله التركية التي جلبت إليه معها تلك البشرة البيضاء والشعر الأسود الناعم الذي ملأ رأسه بدون أدنى اشارة للصلع أو الشيب رغم كونه في منتصف العقد الخامس، وهو لايرتدي إلا الجبة والقفطان والعِمَّة الحمراء و(الكاكولا)، تيمنا بالعامين الذين أمضاهما بالأزهر قبل نحو عشرين عاما. كان عملاقا معمما وملتحيا ولكنه قد التبس روح وعقل طفل في العاشرة، بشوش الوجه والقسمات، بسيط السريرة وشديد المرح حتى غابت عنه هي–بة العلماء ورهبتهم إذ كانت الضحكة المجلجلة لا تفارقه، قليل الكلام بصفة عامة وخصوصًا الجاد منه، وقليل الحيلة في أغلب الأوقات، نعم، وإن كان يتمتع بفطنة أولاد البلد الفطرية وخفة ظلهم، وكان الخواجة داود الصديق الوحيد الذي خرج به من دنياه المحدودة جوانبها، يتقابل معه بصفة شبه يومية لسبب العمل أولا ثم كأصدقاء وأرباب جيرة واحدة. جلس قبالتهم وهو يمد يده للسلام لتلقاها في طريقها أولا يد الضابط الذي شد عليها بحرارة كادت أن تؤلمه قائلا:

- "أهلا يا خواجة داود، إنت مش فاكرني ولا إيه؟".
صوته الرفيع لا يتناسب مع ضخامة الرجل وفحولته، وكأن طفلا مشاغبا كان مخبئا تحت شبه الضابط الجالس قبالته، فأجاب داود قائلا وقد رسم ابتسامة مجامِلة فوق وجهه، أو ربما تعبيرا عن سعادته بنجاة أصابعه من عنفوان قبضة الشاب:

- "أنا برضه باشبِّه عليك. زي ما اكون أعرفك من زمان، مش برضه كده ياسعادة اليوزباشي؟" وكان قد ألقى نظرة خاطفة نحو نجومه الذهبية الثلاث فوق كتفه، ثم استدار نحو الشيخ حسنين مادا يده تحية له وانسابت الكلمات بين ضحكاته قائلا:

- "سلام عليكم يا شيخ حسنين، وشك ولا وش القمر، مدوَّر ومنوَّر ولا كإنك سهران لوش الفجر ليلة إمبارح، ده أنا بالعافية لما صحيت النهاردة ولولا كباية القهوة من إيد أم سليمان ماكنتش أقدر أجيلكو ولاساعتين كمان، واديك أهو ماشاء الله قاعد كده منفوخ ومزنهر زى الديك الرومي ولا كإن فيه أي حاجة". وكانت تلك الكلمات اللاذعة بينهما مثارا لضحكاتهما ومداعبتهما بعضهما البعض لأكثر من ثلاثين عامًا هي عمر صداقتهما، ثم مستديرا للضابط:

- "ولامؤاخذة يا سعادة البيه. إحنا كده غاويين نناكف في بعض من زمان". وكانا قد أمضيا معظم ساعات الليل، كشأنهما دائما، يتسامران مع عوده، وأغاني عبد الوهاب، ونص قرش حشيش كان الشيخ حسنين قد حصل عليه على سبيل "البقشيش" بعد إحياء فرح الأمس.

- "إنت هاتقول لي يا خواجة داود. ما أنا شاهد على كده من صغري، شوف بقى ياسيدي أنا هافك-رك بيّ لأنه باين إنك مش فاكرني. أنا ياسيدي إسمي "جمال" ابن الأستاذ "عبد الناصر حسين" موظف البوسته جاركم في محرم بك في العشرينيات. إفتكرتني دلوقت؟ ده كان أبويا صاحبك وياما سهرتوا سوا، وياما سمعت منك أغاني الست ثومة والأستاذ عبد الوهاب في شقتنا في (فليمِنج) وانت بتتسلطن بعودك ده". وأشار إلى العود المستلقي باسترخاء على المقعد المجاور للخواجة داود.

- "آه. عبد الناصر حسين". وألقى داود برأسه للخلف سارح-ا بين دهاليز الذاكرة مع مكنون تلك الكلمات، وخلع عنه الطربوش ومد يده يمسح بها فوق شعر رأسه المصفف للخلف، صديقه الرجل المحترم الذي تحمّس معه للعمل الوطني من بعد ثورة 1919 فتبادلا الزيارات لوهلة بحي "فليمِنج" وقبل

أن ينتقل لشقة محرم بيه بعد وفاة والده، دبرا خلالها – سرا طبعا – عمليات صغيرة هنا وهناك لتعكير الجو على الوجود الإنجليزي بالإسكندرية. وتذكر أيضًا سهراتهما المرحة في البلكونة مع العود والطرب وطبق الكبدة الإسكندراني المطعم بالفلفل الحراق، والمحبش بالكمون والبهارات، والكباب الضأن والكفتة وسلطة الطحينة التي كانا يبتاعاها طازجة من عند "عم سيد" الكبابجي، في ليالي الصيف الساهرة. ثم انتبه ثانية وأضاف:

– "يعني إنت بقى – لامؤاخذة يعني – الواد الصغير إلل–ى كانوا بعتوه لمصر عند عمك. بعد يوم المظاهرة في المنشية؟ أيوه. إفتكرتك يابن عبد الناصر أفندي. ده كان راجل سمِّيع بصحيح. ثم استدار نحو الشيخ حسنين:

– "فاكر ياشيخ حسنين عبد الناصر إفندي إللي كان ساكن في بيت الدكتور قنواتي؟ ولا انت صحيح ماكناش نعرفوك أيام (فليمِنج)" فأومأ الشيخ بعفويه مع احتفاظه ببسمته الرائعة، إذ لم يكن يتذكر الرجل أو إبنه، وإن لم يكن يريد أن يبدو كالغريب عنهما حيث لم يكن المدعو عبد الناصر أفندي هذا صديقه أصلا. فاستدار داود ثانية مخاطبا الضابط:

- "وهو فين أراضيه دلوقت؟ دانا ماشفتوش من ي–يجي عشرين سنة. إنتو نقلتوا لمصر ولا إيه؟ أهلا بيك ياحبيب يابن الحبيب". ثم استدرك معتذرا لتباسطه في الكلام هكذا مع الرجل الذي بالكاد قابله:

- "لامؤاخذة يا سعادة اليوزباشي إذا كنت يعني قلت كلمة مش ولا بد، ده بس من عشمي، ده حضرتك كنت ولامؤاخذه قد كدة آخر مرة شفتك" وأشار بيده أمامه معنيا نصف متر من الأرض.

- "طبعا طبعا يا خواجه داود. أبويا بخير". ثم بنبرة حزن أضاف وقد أشاح بوجهه بعيدا:

- "بس الوالدة تعيش انت. المهم إيه أخباركم إنتم؟ الكلام خدنا وماقلتلكش أنا طلبت أقابلك ليه".

تفكر "داود" في ألاعيب ذلك الزمن الذي فرق ما بين الأصدقاء كل تلك السنوات، فسار كل في طريقه عمرا طويلا، حتى عاد وجمع من جديد ما بينه وبين ابنه الشاب. لقاء لم يكن في الحسبان. وابتسم متأملا الصبي اليافع الخجول الذي صار، وكأنها ما بين يوم وليلة، رجلا ممتلئا حماسة وحياة،

وعاد من جديد للإسكندرية ليتقابل معه فيعيد إحياء تلك الذكريات التي حسبها ولت بعيدًا واندثرت.

الفصل الثاني

كان "اليوزباشي جمال" رجلا أسمرا وسيما، يافعا يميل للطول، في منتصف الثلاثين ذو شخصية آسرة يأبى إلا أن يسيطر على مجريات الأمور من حوله. وكانت الكلمات تتسابق خارجة من فمه كطلقات مدفع رشاش، تنطلق في دفعات متتابعة، وبالرغم من جديته الظاهرة، إلا أنه لم يكن بوسعك إلا أن يستحوذ عليك تمامًا بعد دقائق من اللقاء به. وكانت ملامح وجهه تميل للصرامة بنظراته النافذة، وحاجبيه الكثيفين، وشاربه الرفيع الأسود الذي يحف بأنف عظيم، وكانت تلف بمظهره العام هالة من الأناقة البسيطة التي تشي بطبقته الوسطى بدون أي شبهة تكلف أو ادعاء، كما لبعض ضباط تلك الأيام، حيث كان يصعب الإلتحاق بالكلية الحربية لمن لم يكن ابن فلان، أو على الأقل موصى به من طرف كبير من الكبراء، كما كانت العادة في ذلك الوقت، مما كان يدفع البعض منهم بالمباهاة بأصولهم العريقة أو بدوائرهم الاجتماعية المرموقة بدليل وصولهم للمكانة التي هم عليها كضباط في الجيش المصري. إستوى حضرة الظابط على كرسيه ثم مد يده ليحل طية الجيب العلوى ببزته العسكرية بأزرارها الذهبية اللامعة، وأخرج علبة سجائره ثم أشعل واحدة وهو

ينظر نحو الخواجة داود، الذي كان قد انصرف عنهما بذهنه سارحا في سهراته مع عبد الناصر حسين في أيام الشباب، واشتراكهما معًا في مظاهرات "المعاهدة" وكتابة وتوزيع المنشورات المعادية للملك والإنجليز، بل ورحلاتهما السرية إلى ثكنات الإنجليز بإبي قير، وزرع أصابع الديناميت التي كان داود يحصل عليها من أحد أصدقاه بسلاح الفرسان، وتعجب كيف احتفظا بتلك الذكريات سرا عن عائلتيهما، ملاحظا في الوقت نفسه التشابه العجيب بين شخصية الأب والإبن، فيما كان يعبث بأصابعه بخاتمه الفضي الذي التف حول بنصره الأيسر. وسرعان ما أعادته كلمات الظابط إلى مقهى خليل أغا. وعلى امتداد البصر فوق مكتب المعلم صاحب القهوة بسطحه الرخامي الذي يحمل جهاز التليفون الوحيد في المربع السكني من حوله، ومن فوق كتف الضابط، برزت صورة الملك "فاروق الأول" بإطارها المذهب ونظرته التائهة وشبه ابتسامة تتمخض تحت شاربه المبروم. قطع استرسال أفكاره صوت جمال قائلا:

– "إنتو بقى عاجبكم حال البلد كده؟"

– "أنهو بلد يافندي؟ تقصد يعني إسكندرية؟ مالها يعني؟" أجاب الشيخ متسرعا.

– "إسكندرية إيه بس؟ أنا باتكلم عن مصر كلها ياشيخ حسنين. أنا عارف إنك مهتم بالعمل الوطني، بما إنك عضو في جماعة الإخوان المسلمين هنا في اسكندرية". وهنا بدا ارتباك مفاجئ على الشيخ، وانثنى بجزعه للأمام وقد مد بيده أمام فمه، تروح وتجئ بحركات متتابعة مشيرًا له أن يكف عن الكلام قائلا:

– "طب بس بس. أيوُووه!. الحيطان ليها ودان يا سعادة اليوزباشي". واستدار نحو داود كالمعتذر، إذ كان قد أخفى عنه حقيقة انتمائه للجماعة حتى اليوم، بالرغم من صداقتهما الممتدة. وربما كان ذلك راجعا لعدم قناعته الكاملة بمبادئ جماعة الإخوان، التي لم يكن لينتمي إليها أولا إلا بإلحاح من "الشيخ فودة" من "الرمل" وخوفه من يده الطائلة لو لم يطاوعه وينضم للجماعة. لم يكن يعرف شيئًا عن الإسلام السياسي من قبل، ولكنه تعلم في غضون لقاءات معدودة مع "الشيخ فودة" وأصحابه مبادئ الجماعة في أن الإسلام دين ودولة، كما كان عليه الحال في عصر الخلفاء الراشدين، فلذا وجب أن يكون حاكم البلاد مسلما يتبع شريعة الله وسنة رسوله ويطبقهما في ممارسة ولايته لشئون البلاد.

عندها أضاف جمال عبد الناصر بنبرة جادة ولكنه تعمد أن يخفض من صوته فصار يكلمهما وكأنه يهمس، جاذبا إياهما لحديثه من جديد:

– "شوفوا يا رجالة، أنا دلوقت ومن بعد ما رجعنا من حرب فلسطين، باشتغل مدرس في الكلية الحربية في مصر، لكن إسكندرية حتة مني ولازم آجي واشم ريحة بحرها واشوف ناسها كل شوية. بصراحة يا رجالة أنا وشوية أصدقاء من إخواني الضباط في الجيش عاملين "تنظيم" وطني، يعني مش عاجبنا حال البلد وبنحلم بالتغي–ير". واعتدل قليلا وتلفت مستطلعا تأثير كلامه عليهم، وعلى بقية رواد المقهى متأكدا من أن كلامه لم يبلغ مسامعهم. ثم أضاف:

– "وانتوا بقى أهل ثقة عندي لأني متأكد إن ما فيش فيكي يا اسكندرية حد بيحب البلد دي أكتر منكوا يا رجالة، ولا إيه؟" وكان داود قد امتعض قليلا عند ذكر حرب فلسطين، ولكن لم ينتظر الشاب الأسمر الذي كان قد مال بجزعه للأمام مستندا بمنكبيه على المنضدة الرخامية أن يجيب أحداهما على سؤاله، بل تأملهما متفحصا رد فعل كلماته على وجهيهما، وشرع يشعل السيجارة تلو الأخرى وكأن كلماته من

نار تخرج من بين شفتيه مغلفة بسحابة من الدخان، وأسرهما معًا بحديثه فأسهب:

- "هاحكيلكو حكاية أثرت في جدًّا ويمكن مافيش حد يعرفها. أنا طول عمري بحلم أكون ضابط، وعلشان كده أول ما ظهرت نتيجة البكالوريا، جريت على ابويا أترجاه يشوف لنا واسطة عند حد من الأكابر علشان يقبلوني في المدرسة الحربية، لأن الموضوع زى ما انتوا عارفين محتاج لواسطة كبيرة. والله العظيم كان قلبي بيتقطع وانا باطلب من أبويا الطلب ده، بس أعمل إيه؟. أبويا الغلبان قال لي إنه يعرف السواق بتاع باشا كبير ووعدني يكلمه. يومين وطلبني الباشا أقابله على باب سرايته علشان ياخدنى للباشا المسئول عن قبول الطلبة المستجدين. أنا ما صدقتش نفسي، وقلت أنا أكيد بحلم، وطبعا ما نمتش ليلتها، فضلت سهران طول الليل بالبدلة الوحيدة اللي حيلتي، واقف بيها زنهار، خايف ولو حتى أقعد لا بعدين تتكرمش. ومن الفجر كنت طاير على ڤيلا الباشا وفضلت واقف حِدا البواب أتفرج من بين عواميد السور الحديد على الجنينة الجميلة المنسقة لحد ما خرجت الكاديلاك السودة من البوابة. شافني "الأسطى لمعي" فوقف، الباشا فتح الشباك وشاورلي أركب. لفيت أركب - الناحية التانية طبعا - وفتحت

الباب فإذا بالباشا بيشخط: إيه ياولد التغفيل ده، إنت جاي تقعد جنبي؟ إمشي انجر أقعد قدام جنب السواق. ساعتها كنت نفسي الأرض تنشق وتبلعني. إيه المهانة دي كلها؟ وليه؟ ليه الناس بتعمل كده في بعض؟ وليه لازمني واسطة من سعادة الباشا عشان أدخل المدرسة الحربية واكون ضابط في جيش مصر؟ هي "مصر" دي بلدي ولا بلد تاس تانية؟ مهما هاعيش مش ممكن أنسى الحكاية دي" ثم أضاف موجها كلامه لداود:

- "أبويا كلمني كتير عنك ياخواجة داود، ووصاني عليك تكون دراعنا هنا. إحنا عايزين رجالة لينا هنا في اسكندرية، يعني يساعدونا في طبع وتوزيع منشورات، في تنظيم مظاهرات، في سرية تامة وتكتم على الآخر. لا بد من إستعادة حرية البلد، وكرامة الشعب ده يا رجالة. ولا إيه رأيكم في اللي بيحصل من ناحية المندوب السامي ولا ناحية القصر ده يارجالة؟" إصفر وجهاهما عند لفظه لتلك الكلمات، وإن لم يبدو أن أيهما كان بصدد أن يعقب فاستكمل هو حديثه الذي صمم أن يكمله قائلا:

- "وانت يا شيخ حسنين، بعتني ليك انت بالذات الشيخ فودة، إللي هو يبقى عم واحد من اخواننا، من جماعة الضباط إللي قلتلكو عليها. بس المهم الكتمان يا رجالة، يعني

نتعب ونشتغل في سرية وكتمان حتى عن أهلنا، وكأن شيئًا لم يكن". وهنا ضغط جمال على علبة السجائر الفارغة وألقاها على المنضدة أمامه متلفتا حوله متسائلا:

- "باقول إيه يا رجاله، هو مافيش دخاخني حوالينا هنا؟ السجاير خلصت!".

- "تاني يمين وع القمة هاتلاقي الخواجة "باللو" الدخاخني". قال داود وكان كالمسحور من جراء ذلك الحديث الذي استمع إليه لتوه. قام جمال واعتدل ثم انصرف إلى خارج المقهى ومضى بخطوات ثابتة متتبعا لوصفة داود لمحل الدخان. وهنا رفع الشيخ حسنين، العملاق الأبيض الجالس قبالته، كوب الشاى إلى فمه لأول مرة وكأنه أفاق من غفوة، ثم وضعه ثانية على المنضدة أمامه ثم قال وكأنه يحدث نفسه أو كأنه يهذي قائلا:

- "إيه الكلام الغريب ده؟ أيوُووه!. مظاهرات إيه ومنشورات! وقصر! ومندوب سامي! إيه إللي بيتكلم عنه الواد الضابط ده يا داود يا خويا؟ يكونش ملعوب عامله علينا؟ ولا يكونش من البوليس السياسي، ومتخفي وعايز يوقعنا في الكلام لما عرفوا بحكاية اجتماعات الإخوان دي؟ الله يجازيك ياشيخ فوده. طي-ب لمَّا أشوفك!. أيوووه!. رحت ف داهية يا

شيخ حسنين! دول ما كانوش اجتماعين حضرناهم!. خلاص يعني هانروحو اللومان عشان اجتماعين؟ الله يجازيك ياشيخ فوده. طي-ب لمَّا أشوفك!. أيوووه ياجدعان!". ولملم الشيخ عباءته وانتفض واقفًا وقد انتابته حالة هياج الزربونة التركية بداخله، أمام اندهاش داود الذي كان يكتم الضحك بصعوبة. لكنه تمالك نفسه وقال:

- "أقعد يا شيخ حسنين، أقعد بس واهدا وصلي كده عالنبي. بوليس إيه وبتاع إيه؟ غايته شبان حلوين فاير الحماس بيهم وعايزين يعملوا حاجة عشان مصر. زيهم زي غيرهم ياحسنين ياخويا، هم يعني وحدهم إللي بيشتغلوا؟ ثم إيه حكاية الإخوان دي بقى؟ بعدين. بعدين لينا كلام وياك. أقعد بس لمّا نشوفو سي جمال ده عاوز إيه. ده ابن عبد الناصر أفندي - جارنا وحبيبنا - الراجل الوطني وعلى ضمانتي ".. فعاد وجلس الشيخ متململا مرة أخرى، كما كانت عادته دائمًا في الإنصياع في النهاية لرأى الخواجة داود. ثم ما لبث أن رجع الضابط منفرج الأسارير، وقد تبدلت الصفحة الجادة التي كانت تعتلي وجهه بأخرى بشوشة، إذ كان قد شعر أنه قد قضى مأموريته الرسمية التي جاء من اجلها، وكأنه خلع عنه رداءه العسكري الذي كان قد أملى عليه تلك الجدية

الصارمة، فعاد الشاب السكندري المتوهج شبابا، المتواري خلف ذلك القناع "الرسمي"، فسحب إليه المقعد وأداره نصف دورة بإطلالة بشوشة، وامتطاه كفرس وهو يقول:

– "إيه يا خواجة داود مش هاتسمعنا حاجة النهاردة للست ثومة ولا إيه؟". فانفرجت أسارير الشيخ حسنين، والتفت ناحية داود عبد الملك ممتنا لأخذه بنصيحته وموافقته لرأيه عن ذلك الضابط المجهول لديه، إذ لم يكن من المعقول أن يطلب جاسوس البوليس السياسي أن يسمع أغنية من أغاني "الست"! فرفع ذراعه مناديا:

– "كباية حلبة مغلية وكرسي معسِّل ياوله!"، فيما إلتقط داود عوده العتيق واحتضدنه شارعا في ضبط أوتاره لدقائق بنغمات متتابعة، ثم رفع رأسه مناديا النادل، صائحا بنبرة صاحب مكان:

– "وطيلنا الراديو ده حبتين ياخويا، مش عارفين نِدَوْزن العود".

ثم بدأ العزف يعلو ويهبط في مقام "الكورد"، حتى تأكد من أنه استحوذ على انتباه الجميع، وبالتدريج خفت طرقعات اللاعبين للفيشات فوق أسطح الطاولة، ولسعات أوراق لعب

الكوتشينة على المناضد الرخامية، وصيحات "بصرة!" وضحكات المتسامرين من حولهم، وحتى نداءاتهم لطلب المشروبات، فانطلق عندها يشدو بتحفة "الست ثومة" الأخيرة:

يا ظالمني يا هاجرني وقلبي من رضاك محروم

تلوعني وتكويني

تحيرني وتضنيني

ولمّا اشكي تخاصمني وتغضب لمّا اقول لك يوم

ياظالمني

رأى القبول مرسوما على وجه جمال، حيث أغمض عينيه وكان رأسه يهتز طربا مع كل فقرة. أما عن الشيخ فقد غادره الإحساس بالوجل من الضابط الشاب تماما، فانفرجت أساريره بل وكاد أن يرقص جالسًا على كرسيه، واهتز كرشه أمامه في نشوى على إيقاع الموسيقى، فاسترسل داود:

حرام تهجر وتتجنى   وتنسى كل ما جرالي

واقضي العمر أتمنى   يصادف يوم وتصفالي

مال جمال بجزعه للوراء دافعا بركبتيه للأمام حتى إنهما قد ارتطمتا بالترابيزة دون أن يقصد، فاهتزت المشروبات

وكأنها طربت لغنائه بدورها، فاعتذر جمال متمتما واعتدل في مجلسه، بينما استمر داود يغني منتشيا:

صبُرت سنين على صدك وقاسيت الضنى ف بعدك

عشان تعطف عليّ يوم

وتهجرني وتنساني وتتركني لأشجاني

ولما اشكي تخاصمني وتغضب لما اقول لك يوم

يا ظالمني

وبعد وصلة الطرب المسترسلة، عادت الحياة من جديد للمقهى كما ينبغي لها أن تكون عليه في منتصف الظهيرة فتعالت من جديد نداءات الزبائن المنتشين، وطلب داود كوبا من القرفة ليريح صوته من عناء الغناء، وبعد رشفتين وجد نفسه هائما في حلم أن يرى بلده "مصر" دولة مستقلة، لاوجود لأجنبي يفرض وصايته على أرضها، ولكونه أضحى مشاركا من جديد في العمل الوطني الذي كان قد تركه وراءه مع سنوات الشباب التي انحسرت. وأطل الغد بغموضه يرنو إليه من الغي–ب، وكان داود يتابع صورة وجهاي الشيخ حسنين والضابط جمال المنتشين طربا والجالسين قباله، تباعا وهو يتساءل مع نفسه في فضول عما تخبئه لهم الأيام.

* * *

بكل تلك الأفكار هام داود عبد الملك، بقية اليوم وحتى المساء حين قادته قدماه إلى الإبراهيمية. لم يصدق أنه قطع كل تلك المسافة سيرا في تلك الليلة الباردة فتوقف. ثم تلفت يمنة ويسرة فلمَّا لم يجد أثرا لمخلوق، عبر طريق الكورنيش، بمصابيحه المحاطة بتلك الهالة من الضوء الأصفر الخافت، وجنح عند أول يمين قابله إلى حانة "الخواجة أنطونيللي" ودلف للقاعة شبه المظلمة، مستدفئا بأنفاس السكارى وضحكاتهم المؤنسة، مع خلفية لموسيقى غربية خافتة تنبعث من جرامافون موضوع فوق منضدة متوسطة الإرتفاع بجوار البار. لاقاه الخواجة بشوشا لما عهده منه من إضفائه لجو الطرب اللطيف، الذي يجمع حوله زبائنه، فتمتد السهرة بهم، وبالتالي تستمر معاقرتهم للمشروبات حتى الساعات الأولى من الفجر. وفي المقابل كان الخواجة يرفض أن يأخذ منه مقابلا لطلباته. خلع الكوفية المضلعة والمعطف بعد أن سحب الخاتم من إصبعه وأعاده إلى جيبه، وركنهما على ظهر المقعد المجاور، وركن العود إلى الجدار بجانبه غير متحمسا إلى أن يعاود الغناء من جديد في تلك الليلة، ولا يزال يتفكر متعجبا – مرة أخرى – بشأن مفعول ذلك الخاتم الفضي المسحور.

الفصل الثالث

حينما كان مجرد عوّاد، يحمل عباءة "العادية" التي يلبسها معظم الناس، كان "داود عبد الملك" يشعر بانه "غير مرئـي"، كائن شفاف!. نعم شفاف، لا يكاد الناس من حوله أن ي–بصروه أو يميزوه عن بقية أترابه من أهل الطرب، ولا من بين أهل محرم بك، ولا حتى عن بقية اليهود الذين عاشوا بالإسكندرية منذ مئات السنين، مندمجين بأهلها في كل أمور الحياة، فيما عدا ثلاث: الزواج، وممارسات العبادة، وفي نـهاية المطاف عند المدافن، حين يفترق اليـهودي عن المسلم والنصراني، عن أقرانـهم الذين عاشوا من حولـهم، كل إلى مثواه الأخير، في مقابر جامعة لكل طائفة على حدة، وكأنـه إعلان بأنـه مهما تجمعت بالبشر سبل الحياة، فلابد أن يفترقوا، ولو عند عتبة طريق الموت.

كانت أيامه تمضي متشابهة إلى ذلك اليوم الذي مر به قبل نحو عام من مقابلته لجمال عبد الناصر، وكان متجها للقاء "الشيخ حسنين البصري" وإن كانت لديه نحو ساعة حتى ميعاد المقابلة، فسار متسكعا في شارع السوق الممتد إلى ميدان "محطة مصر" الشاسع، لايلوي على شئ إلا أن يقتل بعض الوقت حتى يحين موعده. وكعادته ألقى بالسلامات هنا

وهناك، وعبارات المجاملة المعهودة على جانبى الطريق لأصحاب الحوانيت الصغيرة المتلاحقة الذين عرف معظمهم وعرفوه وتشاركوا الذكريات منذ أيام الطفولة والدراسة والشباب. ولكن استوقفه "الخواجة زكي فريحة" الصائغ المخضرم، الرابض عند باب دكانه مستدفئا بشمس الصباح الشتوية، بقوامه الرشيق ويداه تطوفان بطول الحمَّالات البنية فوق قميصه البيج المعقودة قمته بربطة عنق حمراء أنيقة، وقد عقص يمناه أمام ساقه اليسرى، وعوج طربوشه إلى جانب في تأنق ملحوظ، يليق بمركزه المالي المتميز بين أهل الحى. بدا وكأنه فرح للقائه وناداه زكي بلكنة فرنسية قائلا:

– " بونچور يا داود. تعال عايزك". فلما كانت فرصة لقتل المزيد من الوقت، إستجاب داود للدعوة بدون تردد، فاستدار الخواجة زكي بهمة إلى داخل المحل وتبعه هو مستمتعا برائحة عود البخور الذي كان ما يزال يحترق وقد انغرس بركن طاولة العرض ذات الجوانب الزجاجية. وأشار زكي إليه بالجلوس، في حين خلع طربوشه ليزيل الكلفة، ودار نحو الجانب الخلفي للطاولة، ودفع مفتاحه بقفلها، ثم جذب ضلفتها، ومد يده ساحبا علبة من القطيفة الزرقاء قائلا له من جديد:

- "بونچور ياحبيبي. أنا عندي لك هدية تجنن يا داود ياخويا، بس عشان إنت راجل مبخوت وحظك في رجليك". واثارت كلمة "هدية" فضوله وحذره في نفس الوقت. فالخواجة زكي تاجر مصوغات ومشغولات ذهبية، ولم يصل إلى ما هو عليه من اليسر والغنى بمهاداة الخلق حلى ومجوهرات، بل على العكس كان قد اشتهر بين أهل الحى بضيق اليد والحذر الشديد. ولكنه - من باب المجاملة لا أكثر - أجاب:

- "طول عمرك صاحب فضل يا مسيو زكي".

- "في الحقيقة يا داود ياخويا أنا من ساعة ما جاتني التحفة دي عامناوِّل وأنا باقول إنها بتاعك. آه ورحمة بابا". قالها وهو يفتح العلبة القطيفة بحركة رقيقة من أصابعه، ويديرها نحوه، لي-بصر داود خاتما فضي يعتليه فص من العقيق الأحمر وقد حفرت في وسطه وعند أركانه الأربعة نقوش مبهمة استعصت عليه حتى بعد أن استخدم العدسة المكبرة التي ناوله إياها زكي. خاتم عادي المظهر، بل وأقل من العادي، إذ بدا مستعملا لدرجة البلى. فتفهم داود عندها سر ذلك الكرم المفاجئ. ولمّا لم تبدُ ملامح الإنبهار على وجه "الزبون"، حمل الخواجة زكي العلبة المفتوحة برقة فوق كفه مادا ساعده أمامه في رشاقة، وهو يعبث باليد الأخرى بطرف

شاربه، ثم دار من جديد حول الطاولة ليأخذ بالمقعد المواجه للخواجة داود، ثم اعتدل وهو ي–بتسم مستعدًّا لأن يلقى بضربته الساحقة التي أيقن – بحس التاجر القدير – أنها ستحسم العملية التجارية لصالحه بدون أدنى شك، وتنحنح مضيفا:

– "ده طبعا خاتم فضة مستعمل يا حبيبي، فضة من بتاعة زمان، بس مش ده المهم، مش هاتصدق يا داود الخاتم ده كان بتاع مين". تريث للحظة ثم أعقبها بالضربة القاضية:

– "وحياتك عندي ده كان بتاع (الشيخ سيد). ثم أضاف بسرعة وهو يتكئ بقوة على كل كلمة من كلماته:

– "أى والله زي ما باقول لك كده؛ (الشيخ سيد درويش) بشحمه ولحمه، أمال أنا كنت عاينهولك إنت بالذات ليه؟. يعني إحنا عندنا كام (فنان) في الحى كله هايق–دَّر حاجة زى دى ياداود ياخويا؟. دانا لو قلت الكلمتين دول لحد غيرك، كان هايقول على طول طب ده الشيخ سيد مات من ي–يجي تلاتين سنة، شوف بقى الخاتم الكهنة ده يبقى عمره قد إيه! أنا باقول لك إنت الكلام ده عشان عارفك هاتوزنه مظبوط". ثم رجع بظهره للوراء فخورا بجودة إلقائه، وحذقه، وإن كان ندم قليلا – بينه وبين نفسه – لإستخدامه لفظ

"كهنة" الذي قد يؤدي إلى بخسه لبضاعته، ولكنه التزم الصمت منتظرا رجع كلماته النافذة. وفعلا ما لبث داود أن قال متسائلا:

- "كويس قوي يا مسيو زكي. والخاتم الكهنة ده، عايز (تهديهوني) بكام على كده؟" قالها داود بنبرة تعمَّد أن يشملها بالسخرية وعدم الإكتراث، إذ أنه كان يأمل في أن يخفض من قيمة الخاتم لو أبدى استغناءه، من جهة، ولضيق ذات اليد من جهة أخرى، فهو بالكاد يتكسب لقمة العيش له ولأولاده، فلا مجال إذن للإنفاق على حلىّ وكماليات. فابتسم التاجر واجاب:

- "مانا برضك عارف الظروف يا داود ياخويا. والله ما يغلى عليك لو بمليون جني. بس أنا برضك عارف عزة نفسك وطبعا مش هايخلصك تاخده بالخسارة. بس على فكرة إللي باع لي الخاتم ده قال إنه مسحور! وفيه قوة عجيبة! أوعى يا داود يا حبيبي تلمعه ولا تنضفه ولا تجليه لايبْط-ل مفعوله!. آخر كلام خمسين صاغ".

وفعلا إشترى داود عبد الملك يومها الخاتم المسحور بعد سلسلة من المساومات بثلاثة وثلاثين قرشا في يناير 1950، وأخفى ثمنه عن إيلين، خوفا من ردة فعلها، أي قبل

أن يلتقي باليوزباشي جمال عبد الناصر بنحو سنة. وحالما وضعه في خنصره الأيسر، إنتابه يومها شعورا قهريا بأن ذلك الخاتم الفضي الذي كان - طبعا - السبب الرئيسي في نجاح وشهرة الشيخ سيد درويش، سيصير له دعما ورفعا لشأنه منذ ذلك اليوم. شعر يومها، ولأول مرة بالتميز وبنزعة للتفوق عن بقية أترابه لا يدري كنهها. لذا فلم يتعجب أو يستنكر زيارة جمال عبد الناصر يوم حضر إليه بالإسكندرية - كما تعج-ب، بل واستنكرها الشيخ حسنين مثلا لا ولا تعجب من بعدها وقد بدأ بالفعل في العمل السري مع تنظيم الضباط، ولا فوجئ بزيارة جمال له في الصيف الذي تلا زيارته الأولى، وقد بدا بشوشا متفائلا، بل وسعيدا بالجهد الذي كان هو والشيخ حسنين ي-بذلان بالإسكندرية.

* * *

وقف داود ينظر بحذر وقد إختبأ خلف العامود الرخامي وهو يتابع خطبة النحاس باشا معلنا عن زعمه إلغاء معاهدة 1936 التي كان قد وقعها هو نفسه مع الإنجليز قبل خمسة عشر عاما، والتي كانت تقضي ببقاء الجيش البريطاني في الإسكندرية وبورسعيد وبحدود قناة السويس، بغرض حماية المصالح الإنجليزية بمصر. ولكن جاءت أحداث الإسماعيلية

المستفزة قبل أيام، والتي أدت إلى مقتل العديد من المصريين إلى إستثارة الشعب، وبزعيم الوفد بأن يطالب بإلغاء المعاهدة. وكان داود قد نظم مع الشيخ حسنين، المختبئ عند الناحية الأخرى من القاعة، القيام بمظاهرة شعبية كبيرة عقب الإنتهاء من الاجتماع وخطاب النحاس باشا. وراقب داود بعيونه أفراد الجيش الإنجليزي وقائدهم وقد أحاطوا بالقاعة في مواقع استراتيجية تحول دون قيامهم بالتظاهرات المرجوة. تبادل مع الشيخ حسنين النظرات عبر القاعة، وتبين له أن عليه أن يأخذ بزمام الموقف وإلا فشلت مهمتهما. ودار داود بعينيه بين الجند الإنجليز المنتشرين في كل مكان بقوامهم الممشوق وعضلاتهم المفتولة، وأدرك أن فرصتهم الوحيدة لنول المراد تكمن في أن يقضي هو على قائدهم مهما كان الثمن.

وتبدى له القائد الإنجليزي كالمارد. بوجهه الأحمر المتباين مع بشرته الشديدة البياض، وشعره الأصفر المائل للبرتقالي تحت قبعة رأسه العسلية، وعيناه الزرقاوين تشعان نذرا من وسط وجهه. خليط من الألوان الصارخة المتباينة أفقدت الرجل بشريته في عيون داود، وأحالته مع جسمه المفتول كمثل جزع شجرة جميز هائلة، تقف بينه وبين نجاحهما في المهمة المرتقبة، إلى عملاق، لا بل إلى عفريت

من فصيلة الجن، التي تملأ حكاياته شوارع الإسكندرية وحواريها الخلفية، والذي لن يتأتى له أن ينتصر عليه إلا بتعويزة ما تزعزع أركانه فينهار أمامه دون أن يحتاج إلى أن يتبادلا قوة بقوة. ونظر داود متأملا خاتمه الفضي بحجره العقيقي الأحمر، فتبدلت رجفته وشكه في إتمامه للمهمة إلى منتهى الإيمان بالنصر الأكيد. إعتلت وجهه ابتسامة ساخرة، وتقدم بخطوات واثقة إلى حيث يقف "المارد" عند جانب القاعة، وكان النحاس باشا على وشك أن ينهي كلمته وقد بدأت همهمة الجماهير المستف–زة تملأ المكان كأنها حلة طعام تغلي تحت سطح غطاء محكم الإغلاق وإن كان يتراقص بفعل البخار المتصاعد من تحته. ولم يوح منظر داود وهيئته البسيطة بالخطر في العيون التي كانت ترقب القاعة، فلم يعترض خطواته أحد حتى وجد نفسه واقفًا بمواجهة القائد، في حين ختم النحاس كلمته ودوت القاعة بالتصفيق. ونظر داود للرجل الإنجليزي مثبتا العين بالعين. وما يزال يبتسم إليه والمارد يخفض بصره نحوه ويبادله الابتسام بعلياء وتكبر تتناسب مع عملقته وصغر شأن ذلك الكهل الذي كان يهم بأن يعبره. والجماهير تصفق. وعندها جمع داود قبضته بكل ما أوتي من قوة مستمدا شجاعة وحزم من تصفيق الحاضرين.

وفي لحظة خاطفة وجَه ساعده وقبضته وفص الخاتم إلى الأنف الإنجليزي الأحمر فسالت دماه.

وما تزال الجماهير تصفق. في حين يترنح المارد ويسقط. وبينما يهرع جنود الجن بوجوههم الحمراء والصفراء والزرقاء، وعضلاتهم المفتولة تهرول نحو قائدهم محاولين إسعافه، يرفع داود يديه للشيخ حسنين منتصرا. ويعلو هتاف بالإستقلال من الناحية المقابلة، فترد الجموع بحماس مدو:

- "تحيا مصر!. تحيا مصر!."

* * *

ويذكر أنهما سهرا معًا بعدها في تلك الزيارة، التي جمعته ب-"جمال عبد الناصر" وصديقه "كامل فياض" الذي قدمه على أنه المسئول عن شئون الحركة في المنطقة الشمالية التي تشمل الدلتا والإسكندرية وضواحيها. يذكر أن إجتمعوا ليلتها بفندق "سان استيفانو" على الكورنيش احتفالا بحصول جمال على رتبة البكباشي. وطلب جمال منه بعد أن انتهوا من العشاء الفاخر أن يعزف ويغني له أغنية لأم كلثوم، ممتدحا صوته لصديقه كامل، ومبالغا بأنه يماهي بل ويعلو على جمال صوت الست، فاستجاب داود منحيا كأس الويسكي

الذي كان يرشف منه، وغنى له مونولوج عمره خمس سنوات أو أكثر ولكن ما يزال قري–با إلى قلبه:

حبيب قلبي   وافاني في ميعاده

ونوِّل. بعد ما   طوِّل بعاده

قابلني وهو متبسم

وطمني على وصله

وقال لي. بعد ماسلم

كلام القلب يرقص له!

ليلتها، وبعد الكأس الثالثة، أفضى إليه بحكاية الخاتم المسحور ضاحكا، ذلك الخاتم الذي كان قد رفِع من قبل بسيد درويش إلى السماء، وشعر داود، ربما بروح الأبوة التي بات يشعر بها تجاهه، بأن جمال أمسى في حاجة إلى خاتمه الفضي، جالِب السعد والتوفيق، أكثر منه حينها لسبب لم يكن يدري كنهه ليلتها. ولكنه عرض أن يعيره إياه، فضحك جمال وضحك صديقه كامل وإن لم يعقبا بكلمات، ولكنه وضع الخاتم في يده وانصرف عائدا للقاهرة بعد أن أخذ الخواجة داود بين

أحضانه، وعلى الرغم من شعوره بالانتشاء وسكرة الخمر تداعب رأسه، تعجَّب داود إذ أن الخاتم الذي كان موافقا لمحيط خنصره الصغير نسبيا، قد أحاط بخنصر جمال الضخم بكل سهولة هكذا. وتساءل داود أياما عما دفعه إلى أن يعطيه الخاتم عندئذ، وكيف يتخلى عنه وقد كان سببًا لأن يبتسم له الحظ، بل ولِما وافق هو وقبل أن يأخذه. ولم تمض سوى بضعة أسابيع حتى عرف داود السبب، ففي صباح يوم ٢٣ يوليه 1952، وبعد احتلال دار الإذاعة من قِبل مجموعة من الضباط، تمت إذاعة البيان التالي:

"إجتازت مصر فترة عصي-بة في تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم، وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش، وتسبب المرتشون والمغرضون في هزيمتنا في حرب فلسطين، وأما فترة ما بعد الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد، وتآمر الخونة على الجيش، وتولى أمره إما جاهل أو فاسد حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها، وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا، وتولى أمرنا في داخل الجيش رجال نثق في قدرتهم وفي خُلقهم وفي وطنيتهم، ولا بد أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحي-ب.."

* * *

وفعلا تلقى داود عبد الملك والشيخ حسنين الخبر بفرحة عارمة، إذ شعرا بمساهمتهما في ذلك العمل ولمدة عام كامل، تعرضا فيه لشكوك رجال البوليس ومتابعة المخبرين لهما وخصوصًا عند عودتهما لبيتيهما في آخر الليل. وكانا قد تعمدا أن يقللا من لقاءاتهما معا، حتى مايقدر الواحد أن يستمر في متابعة العمل إذا ما حدث أن سقط الآخر في أيدي البوليس. وفوق ذلك بالطبع كانا قد استمرَّا في أعمالهما الفنية من إحياء للأفراح والمناسبات، بالإضافة لليالي الذكر والمآتم التي كان يضطلع بها الشيخ حسنين. فكان مجهودا مضاعفا، ذلك الذي قاما به وحتى ذلك الحدث الذي غيَّر وجه مصر على نحو لم يحلما به. وبعدها بثلاثة أيام، توقع داود أن يحضر جمال عبد الناصر للإسكندرية بمصاحبة اللواء محمد نجيب، قائد تنظيم الضباط الأحرار، للإشراف على مغادرة الملك فاروق للبلاد، وبالطبع ذهب داود للميناء للقائه، ولكن منعه الحرس الخاص من الإقتراب منه. وبالرغم من الحاحه، أصر الحارس العملاق على موقفه، ولم يفلح داود في أن يتبين شخص محمد نجيب ولم يتمكن بالطبع من أن يقابل جمال عبد الناصر شخصيًّا أو حتى أن يتحقق من وجوده، وإن

كان ظن أنه قد رآه عن بعد بجوار "فاروق الأول" الملك المتنازل عن العرش، وتراءت له – برغم المسافة البعيدة – نظرة عينيه فهيئ له وجهه وكأنه أسد يوشك أن ينقض على فريسته. وانتظر حتى أبصر الباخرة "المحروسة" وقد صارت في وسط البحر، ولكنه لم تتسنى له مقابلته.

الفصل الرابع

أجبرته حرارة النهار المباغتة التي ملأت الغرفة على أن يستفيق مبكرًا مرة أخرى. ولكنه على أية حال كان مستعدًّا لذلك؛ إذ لم يسهر كالمعتاد ليلة الأمس ولا الليالي السابقة لها ولأكثر من أسبوعين الآن، فلقد لاحظ داود تباعد الشيخ حسنين من بعد الأيام الأولى من ثورة الضباط ولمدة تقترب من عام الآن عنه. وبالرغم من ظروف العمل، وأواصر الصداقة وسهرات الحشيش التي كانت تجمع بينهما دائمًا وعلى مدار السنين، فإن لقاءاتهما كانت تتباعد تباعًا، خاصةً بعد الشتاء بلياليه الباردة الذي تقل خلاله الحفلات والسهرات بطبيعة الحال، ولم تنصلح كثيرًا مع قدوم الربيع حتى انقطعت كلية لأسابيع الآن في ذروة الصيف المشهور في العادة بكثرة العمل، مما أدى بداود لأن يذهب لزيارة الشيخ في منزله صباح يوم الجمعة هذا، قبل أن يحين موعد الصلاة، ليطمئن عليه أولا لأنه لم يعهد منه كل ذلك الغياب، وليعاتبه ثانيًا على قلة العمل، ونفاد نقوده، وملاحقة إيلين والدائنين له.

كان الصيف قد انتصف، والحرارة والرطوبة على أشدهما في محرم بك، فشعر داود بالاختناق وقد بدت جموع القاهريين وقد ملأت الشوارع والحارات، والشواطئ بالطبع،

وكأنها جحافل جيوش من الرعاع غزت المدينة فابتلعتها بخيرها وجمالها ونظافتها وهدوئها المعهود. وتفكر هو في كم يكره هؤلاء المصطافين، ولكنه استبشر بأنه لم تتبقَّ سوى أيام قلائل يعودون بعدها من حيث أتوا، ويتركونه لمحبوبته الإسكندرية. وقف داود يلتقط أنفاسه أمام باب الشقة وقرع بعصاه الباب قرعات هادئة متتالية، رفع من بعدها طربوشه المبلل بالعرق، ومسح جبينه ورأسه بمنديله، وهو يسمع خطوات من داخل الشقة تعدو وتقترب من الباب ثم يد تشد المزلاج وتفتحه بتأن. أعاد الطربوش وأحنى رأسه احترامًا فتلاقت عيناه بعيني طفل أطلتا من رأس منبعج ككوز العسل من فتحة الباب بدون أن ينطق بكلمة، ثم أعقبه مجيء امرأة الشيخ وقد غطت معظم وجهها بمنديل أمسكت بطرفه فوق أنفها وهي تسأل:

- "مين ياوله؟". كان ما يزال يلتقط أنفاسه وقد أحنى برأسه أكثر تحاشيًا لأن تقع عيناه على صاحبة الصوت، فركز بصره نحو أقدام الصبي الحافية، وكان ما يزال واقفًا يتأمل ذلك الضيف الذي جاء لزيارتهم، وكانت أصابع قدميه الدقيقة تتراقص مع إيقاع براءته وفضوله. فأجاب داود دون أن يرفع وجهه:

- "الشيخ حسنين موجود يا ست أم لطفي؟" فأشاحت المرأة بوجهها للداخل، ونادت بصوت جهوري:

- "الخواجة داود يا شيخ حسنين" فتناهى صوته من الداخل متأففًا:

- "طب أدينا هانيجي على طول!".

تعجب داود من ذلك الخجل والتواري المفاجئ للست أم لطفي التي كان قد اعتاد رؤيتها سافرة لسنين طويلة، وان لم يكن - للحقيقة - لليوم قادرًا على أن يميز ملامحها.

وخلال لحظات كان الشيخ حسنين يسير بخطوات سريعة نحو المقهى، بعد أن كان قد ظهر فجأة أمامه عند عتبة الشقة، وتمتم بكلمات مضمغة حسبها داود سلامًا أو تحية، وفي لحظة اجتازه، ثم طار فوق درجات السلم كالهارب من مواجهته، وانطلق نحو الطريق وداود يتبعه بإصرار بالرغم من القيظ المحيط بهما، ويشد خطواته، وبالكاد يلحق به فيبدوان -على الأقل للمارة من حولهما- وكأنهما يسيران معًا، وهو يتساءل لاهثًا عن سر كل تلك العجلة. ولكن الشيخ كان يسير صامتًا وقد اكفهرت ملامحه، واشتعل وجهه الأبيض بحمرة القيظ، حتى لاح المقهى أمامهما في الميدان الكبير أمام

"محطة مصر"، ولكنه بدا مكتظًّا بالرواد، وعلت أصوات المارة والباعة الجائلين والسيارات بأبواقها وحتى صفارات القطارات المغادرة للمحطة، فتزايدت حدة التوتر بينهما ومن حولهما إلى قرب الاستنفار، ثم وبدون أية مقدمات توقف الشيخ فجأة واستدار قائلا:

- "تعال بينا نطلعو ع البحر، في الطراوه أحسن". وما لبث أن انعطف يمينًا بدون أن ينتظر حتى تعقيبًا على اقتراحه، ولم يزل داود يلهث خلفه حتى وصلا إلى طريق الكورنيش، فاختار الشيخ أحد المقاعد الحجرية الخالية المتراصة بطول الطريق، وجلس عليه وقد تصبب رأسه وعِمته من فوقه عرقًا. وبدا الشيخ في حال يُرثى لها وكان كرشه الضخم يعلو ويهبط في تتابع سريع وقد تبللت الجبة والقفطان أيضًا عند صدره وإبطيه، وازداد حنقه عليه لما شهد حالته المزرية، ومع ذلك سأله داود الذي كان قد جلس بجواره ما بين أنفاسه المتقطعة:

- "إيه الحكاية يا شيخ حسنين؟ بقى يا راجل ماشوفكش المدة دي كلها، ولمّا أجيلك لحد بيتك تقوم تاخدني على ملا وشي جري كده لحد هنا، من غير لا سلام ولا كلام؟".

ولم يزل الشيخ يلهث فلم يقدر أن يجيبه. واستدار داود نحوه وأشفق عليه فقد كان يبدو وكأنه يلفظ آخر أنفاسه، فلم يزد من عتابه إياه. وأخرج داود منديله من جيب السترة ورفع الطربوش ومسح جبهته وشعره ثم أعاده إلى موضعه منتظرًا أن يلتقط الشيخ أنفاسه وتهدأ حركة كرشه الصاعدة الهابطة كنافخ النير بدكان الأسطى حمزة الحداد. ومضى الوقت فهدأت أنفاس الشيخ تباعًا، وهبت نسمة رقيقة من ناحية البحر محملة برائحة اليود اللذيذة، فخففت من حدة الحرارة من حولهما، وإن لم تبشر زرقة السماء الصافية وقرصها الذهبي المستعر في وسطها حتى بسحابة ضالة قد تحجب عنهما حرارة الشمس اللافحة تلك ولو قليلا، في حين اقترب بائع مثلجات مجلجلا، يُنادي بصوت رائق:

- "اشرب يا عطشان!".

فخاطر داود قائلا:

- "هات لنا قزازتين (اسباتيس) يا شيخ حسنين وحياة أبوك لحسن أنا ريقي ناشف زي الحَجَر، ومافيش في جيبي ياخويا غير نص فرنك!".

فتبسم الشيخ بطرف فمه، حيث راقت له الفكرة، ولكنه لم يستطع الكلام بعد، إذ كان صدره ملا يزال يعلو ويهبط، وتراءت له ذكرى أول لقاء جمعه بالخواجة داود الذي لا بد أنه كان طفلا صغيرًا حينما كان يخطو في درب الشباب، وبعد عودته من القاهرة معممًا انتقل إلى الحي ذلك الرجل المتزوج ذو الأبناء الثلاثة ليشغل شقة أبيه "الخواجة عيسى عبد الملك" الجار اليهودي زوج المرحومة "الست راشيل" صديقة أمه، والذي كان قد مات لتوه. ثم جمعتهما محطة الترام ذات صباح، فما كان من الرجل الضئيل الواقف بجانبه ينتظر إلا أن بادره بالسؤال عما لو كان يعمل مأذونًا شرعيًّا، إذ كان له صديق قد طلق امرأته، ويريد أن يردها إليه بدون أن يتكلف مصاريف باهظة، ولكن الشيخ حسنين اعتذر يومها نافيًا أن يكون مأذونًا، لكنه بادره بفخر بأنه يعمل مقرئًا مبتدئًا في طريقه للشهرة والنجاح لما أثنى عليه به زبائنه من جمال الصوت وتجويد اللحن، فضحك ضحكة بريئة منسابة أشاعت الراحة في قلبه، ثم علق داود يومها بأنه كان مثله يغني ويعزف العود، فتواعدا للقاءٍ ليلتها امتد بهما نحو الصباح، وولدت مع انقضائه صداقتهما.

مرت تلك الذكريات في مخيلته بسرعة البرق، فابتسم قليلا، ثم رفع يده بصعوبة ناحية بائع المثلجات، مشيرًا للرجل فأسرع إليهما، وفتح زجاجتين ساقعتين سحبهما من أعماق الدلو المملوء بزجاجات المياه الغازية وقطع الثلج المتناثرة الذي كان يحمله فوق كتفه، ثم قفز جالسًا برشاقة فوق السور المقابل لهما وهو ينظر إلى المارة من المصطافين من حولهما بحثًا عن زبون جديد، وفي انتظار أن ينتهيا من الشرب ليأخذ النقود والفوارغ ويرحل. وكان ذلك سببًا آخر، بالإضافة إلى تحرجه الأصيل من أن يثير معه تلك الزوبعة، القادمة لا محالة، منع الشيخ حسنين من أن يبدأ كلامه ريثما يرحل الرجل الغريب. وفي خلال دقائق تنحنح الشيخ ثم تجشأ وأدار وجهه ناحية داود معلنًا نيته في أن يجيبه عن تساؤلاته، وإن أشاح بعدها بوجهه بعيدًا عنه متجنبًا نظراته، وكأن شخصًا آخر يُلقي عنه بكلمات غريبة عن شفتيه رافعًا مسئوليته عن معانيها حين بدأ يتمتم بصوت خفيض أولا لم يلبث أن استحال إلى خطاب ملؤه التقزز، قائلا:

– "عندي سؤال ليك يا خواجة داود" ثم صمت قليلا لينظم كلماته التالية وعيون داود تتابعه في تشوق:

- "بذمتك إنت إيه اللي مقعدك في البلد دي لحد النهاردة ياخويا؟ مش كفاية اللي عملتوه من تمانية وأربعين لحد دلوقت؟ إيه؟ مستنيين إيه تاني؟ ماتفارقونا بقى!".

وكانت تلك المعاني قد تراكمت تنخزه في قلبه حتى كاد أن ينفجر من كثرة ما كان قد سمع من لوم وانتقاد -بالذات من الشيخ فودة- بسبب علاقة العمل، بل والصداقة تلك التي كانت تربطه بذلك اليهودي المسمى داود، متناسيًا كلام القرآن الكريم عن اليهود ومتعاميًا عن خيانتهم للرسول عليه الصلاة والسلام، ومتغافلا عن اغتصابهم أرض الإسلام والمسلمين، وإقامتهم دولة يهودية فوقها منذ بضع سنوات معدودات، حتى هاجر إليها بعض اليهود المصريين بكل تبجح معلنين حقيقة انتمائهم!. لبست تلك التلميحات ثياب العتاب تارة "هو ده يصح برضه!"، واللوم -بل والاتهام الصريح للشيخ حسنين بالسكوت عن الحق- تارةً أخرى "إيه يعني إللي حايشك عنه؟ يكونش ماسك عليك ذلة!". وإن كان الشيخ بدوره مُصرًّا على أن يحتفظ بها لنفسه، حتى اليوم، إذ لم يكن ليرغب في مواجهة داود بها، لأنه كان أولا وأخيرًا صديقه الوحيد، فآثر أن يبتعد! ظن أن بُعد المسافة فيما بينهما قد يؤدي إلى أن تُكتم الأفواه العاتبة ويستحي المنتقدون. ولكن استمرت سيول

الأفكار والكلمات الغاضبة تلك تتدفق عليه، فلما فاض به الكيل بمجيء داود إلى بيته الذي شهد على استمرار علاقته به تحت مرأى ومسمع من الجميع، كما سيشهد المتطفلون عنه بكل تأكيد! فباغت الشيخ حسنين صديقه، في فورة من الغضب، بتلك الكلمات كاللكمات التي انهال بها تباعًا، فلم يجد الأخير فرصة ليحمي نفسه من تبعاتها. وأدرك داود أن اجتماعات الشيخ مع أعضاء جماعة الإخوان قد بدأت تُؤتي ثمارها، ولكنه أجاب كالمذعور من أن تأتي هذه الكلمات على لسان صديقه الوحيد:

- "كلام إيه ده إللي بتقوله ده ياشيخ حسنين، وبعدين عايزني أسيب بلدي وأروح على فين؟ وهو أنا ليّ بيت غير هنا؟ ثم تعال هنا بقى، همّا مين دول إللي (عملتوه) و(مستنيين) وبتاع اللي بتتكلم عنهم دول هم؟ تقصد مين؟ وضح كلامك".

ونظر الشيخ بعيدًا ناحية البحر فلم يكن يستطيع أن يقول ذلك الكلام وهو يواجه الخواجة داود والعين في العين، فهو مهما كان صديق العمر. ولكنه استجمع قواه وأضاف:

- "يعني بنقول زيك زي غيرك اللي مشيو من تمانية وأربعين لدلوقت. مش بقالكو (بلد) ياسي داود في أرض المسلمين وبين أهله وناسه، ولا آني غلطان يعني؟".

لم يستطع داود أن يجيبه في الحال لشدة انفعاله، بل قبض بيده على مسند المقعد وعزم على القيام ليتركه وشأنه، إلا أنه تماسك وتراجع وأدار وجهه نحو صديقه ودموعه تنساب، وقال بصوت متهدج:

- "ماعندكش فكرة يا شيخ حسنين الكلام ده جرحني قد إيه، وخصوصًا إنه جاي منك إنت. إنت برضك تقول الكلام ده؟ ولمين؟ ليّ أنا يا شيخ حسنين؟ بقى أنا منهم؟ إللي مشوا دول يمكن كانوا (خواجات) بصحيح، جايين من أوروبا ولا من الشام ولا تركيا من خمسين ولا ستين سنة، قعدوا شويتين وعملوا القرشين، وبعدين مشوا لما الحال مابقاش على كيفهم، إنما أنا تقول لي إيه إللي مقعدك في البلد؟ ماكانش العشم!. ماكانش العشم".

وأخرج المنديل المبلل بالعرق ثانية ليمسح دموعه التي بدأت تتسلل فوق خديه هذه المرة، ثم تمالك نفسه وأضاف وقد تهدج صوته:

- "هانسيبو اسكندرية ونروحو على فين بس يا شيخ حسنين؟ ده أنا لما بنروح "دمنهور" علشان شغل ولا مصلحة بنحسو بغربة. ماكانش العشم. ماكانش العشم. دي بلدي ياشيخ حسنين! بلدي اللي مانعرفوش غيرها بلد. بلد أبويا وجدي، وجد جدي، وجده كمان، وبلد إبني ومَرَتي واصحابي وحبايبي. تمام زي ما هي بلدك ياشيخ حسنين. هانسيبها ونروحو على فين بس؟ طب وإذا سبتها أنا. هي. هي هاتسيبني؟ لا يمكن أبدا! ماكانش العشم. والله العظيم ماكانش العشم".

وقام هذه المرة واستدار تاركًا الشيخ خلفه. وانطلق سائرًا لا يلوي على شيء لا يعبأ بحرارة الجو اللاسعة، مشى ومشى حتى مر بفتحة في سور الكورنيش، فمسح دمعه بظهر ساعده ونزل درجتين أفضيتا به إلى رمال الشاطئ، فخاض خلالها بصعوبة حيث دأب حذاؤه أن ينغرس مع كل خطوة وهو يقتلعه بإصرار، وما زال يسير ببطء متجهًا نحو السطح الأملس المدكوك للشاطئ عند لقائه بأمواج البحر التي تروح وتجيء، فلا تعلم معها إن كانت آتية لتبقى أم أنها قطعت كل هذه الرحلة لمجرد أن تتلامس مع رمال الشاطئ السكندري فتعانقه لبرهة ترحل بعدها باحثة لنفسها عن رمال شاطئ

جديد. ولا تزال دموعه تتكوم عند جفنيه ثم تنساب وهو يمشي على طرف الشاطئ عند لقائه بالبحر في مسار متعوج، تدفعه الموجات المتلاحقة تباعًا ليميل أكثر نحو اليابسة، وتعوق خطواته غزارة الرمال التي يغوص فيها بحذائه فتحثه على أن يقترب أكثر من جانب المياه حيث الرمل المدكوك، ثم تدفعه المياه بعيدًا ثانية. وهكذا إلى أن اقترب من طفل متقوِّس الظهر محني يلعب أمام كوم من الرمال على شكل دلو مقلوب، لفت نظره إليه أولا حذاؤه الذي كان يمشي به على الرمال، فرفع رأسه ليتطلع إلى ذلك الرجل العجوز بكامل ملابسه، من الحذاء وإلى الطربوش على شاطئ البحر، وحين عبره عاقدًا ذراعيه خلفه هاله أن يلحظ أن العجوز كان يبكي، فهب الطفل بتلقائية من عقصته، وجرى نحوه وناداه:

– "ياعم.. ياعم" فتوقف داود واستدار ملتفتًا إليه فأضاف الطفل الغريب متحذلقًا:

– "بابا قال لي مافيش رجالة تعيَّط. صح؟" انتزعه من وسط حزنه فجأة، فابتسم داود وهو يستطلع وجه الطفل البريء وعينيه الواسعة الباسمة، ومسح دموعه وخطا نحوه ومال وربت على رأس الطفل بشعره الأسود المبتل بحنان ثم مضى.

تساءل داود وهو ما يزال يتمشى بصعوبة فوق رمال الشاطئ الغزيرة عن أصله كسكندري يهودي أبًا عن جد، وقد امتلأ قلبه بالحزن حتى فاض به. فأشار إليه طيف "دينوقراطيس" الذي عاد وتبدى له بإيماءة فاردًا ذراعه ناحية البحر الممتد شرقًا باتجاه "الأزاريطة"، بمعنى أن هناك، ولقرون عديدة، كان يقبع حي اليهود عند البوابة الشرقية للمدينة المعروفة آنذاك ببوابة "الشمس"، والتى كانت تقابلها عند الناحية الغربية لسور المدينة بوابة "القمر"، وتفكر.

- "لأ. مش ماشي!"

راجع داود ما قرأه من قبل عن معشوقته في الموسوعة المرصوصة بعناية فوق أرفف المكتبة بحجرة الصالون في شقته، مع أطياف تبدت له تتراقص فوق رغوة الأمواج البيضاء، تتمايل من حوله وكأنها تتحاجج معه، وهو ماضٍ فوق رمال الشاطئ مستسلمًا لذلك الشعور المتناقض بالغضب والحزن والغربة في بيته ووطنه، الممزوج بالتيه كحامل في قلبه وفكره لذلك التاريخ الممتد، والفخر الذي كان يجتاح مشاعره الآن. فهو سكندري أبًا عن جد، ولم تكن الإسكندرية في ذلك العصر القديم، عصر "دينوقراطيس"، عاصمة العلم والمعرفة في العالم فحسب، بل كانت أيضًا أكبر مدينة لتجمع

اليهود في العالم؛ حيث كانت شهرة وجاذبية المدينة لطالبي العلم والثقافة سببًا في زيادة هجرة اليهود إليها من أوروبا ومن البلدان المجاورة. وتتابعت الأطياف تجول أمامه وهو يتابع خطواته، تاركًا العنان لخيالاته معها. تراقصت الكلمات أمامه وكأنها هبت من فوق صفحات الكتب، فتعانقت وتلاحمت وصارت أصواتًا مسموعة تتنامى إلى أذنيه وكأنها قادمة من قاع هوة عميقة. كان جيش "بطليموس الأول" أحد قادة جيوش "الإسكندر الأكبر" الذي صار فيما بعد أول حاكم للإسكندرية، يضم جنودًا مرتزقة من كل مكان، وكان منهم بالطبع بعض اليهود الذين استوطنوا الإسكندرية في أول عهدها. كذلك فلقد اقتنى "بطليموس الثاني" من بعده الكثير من العبيد اليهود، ثم أطلق سراحهم وأذن لهم بالبقاء في الإسكندرية. اندهش داود من ذاك الكم من المعلومات التي خطرت بباله بالرغم من كراهيته الشديدة التي كان يكنها لمادة التاريخ وللأستاذ "أحمد المعداوي" مدرس التاريخ بالمدرسة لعنفه وملاحقته لتلاميذه بالعصا التي لم تكن تفارقه، والذي ما يزال اسمه عالقًا بذهنه يتذكره دون أسماء باقي المدرسين، باستثناء الأستاذ منير مرسي -طبعًا- مدرس الموسيقى الذي كان السبب في ولعه بالفن منذ طفولته. والحقيقة أن يهود الإسكندرية على مدار

التاريخ قد شاركوا في ثراء المدينة ثقافيًّا، فظهر منهم الكثير من الفلاسفة والعلماء كأرتبانوس، وفيللو، وسليمان أبو أيوب، وغيرهم. وتذكر أيضًا أن بطليموس الثاني هذا كان شغوفًا بالعلم والمعرفة، فكان قد أمر ببناء مكتبة الإسكندرية الشهيرة التي صارت مع الوقت مركزًا عالميًّا للفنون والآداب تجذب إليها المفكرين والحكماء من كل أنحاء العالم. وبناءً على طلبه أيضًا تم الإتيان باثنين وسبعين من كبار الحاخامات اليهود من القدس إلى الإسكندرية ليقوموا بشرح التوراة للمترجمين من اليهود السكندريين، فترجموا الكتب الخمسة المنسوبة إلى موسى النبى إلى اليونانية، وأصبحت هذه الترجمة للتوراة (كتاب العهد القديم عند النصارى فيما بعد) معروفة بـ "الترجمة السبعينية". وأحس داود بالفخر لهذا التاريخ الممتد الذي أخذه عن أبيه وجدوده، وحفظه في قلبه، وتعهد أن يسلمه لأولاده من بعده، وخاصة لابنه سليمان الذي كان يتوسم فيه ذلك الصوت الذي سيحمل هذا التراث لأبنائه من بعده. وتملكه العناد فقال من جديد:

- "لأ.. مش ماشي!".

دخل داود البيت والوجوم مرتسم على ملامحه، فآثرت إيلين أن تدعه وشأنه. استبدل ملابسه، واتخذ كرسيه المفضل

في البلكونة الصغيرة، وجلس بالفانلة الداخلية وبنطلون البيچاما رافعًا رأسه إلى العمارات المواجهة المكتظة بسكانها، وقد علت الضوضاء المسائية المعتادة الآتية من الشارع مزيجًا متباينًا من باعة التين والعنب وصياح الصبية يركلون كرة صغيرة مطاطية على ضوء عمود النور ومصابيح الغاز للباعة الجائلين المتوهجة، ثم رنين عجلات الترام بدقاتها المعدنية المميزة الآتية من ناحية شارع السوق، بالإضافة لمستوى منخفض لضوضاء أخرى غير واضحة الملامح هي مزيج من أحاديث المارة ومسامراتهم وأصوات الراديو ومرور السيارات والعجلات والعربات الكارو والحنطور من كل جهة من حوله. وتساءل داود في حيرة لو كان صوته أيضًا يُعد جزءًا من ذلك الضجيج. وهاجت أفكاره بذكريات طفولية لأقرانه في المدرسة الإلزامية يتهامسون فيما بينهم "داود ده يهودي يا جماعة، أنا شفته داخل معبد اليهود مع أبوه يوم السبت اللي فات" بينما تظاهر هو بأنه لم يسمعهم. دخلت إيلين بصينية الشاي، ووضعتها أمامه على سور البلكونة المفلطح، واتخذت مجلسها بالفوتيي القديم الموضوع في ركن البلكونة تحت عناقيد الثوم وشبكة البصل المعلقة على حائطها الأيمن. وبادرها داود متسائلا:

- "أنا مين يا إيلين؟". فأجابته مرتاعة:

- "مالك يا داود فيه إيه؟"

- "الشيخ حسنين بيقول إني لازم نمشي من إسكندرية ومن مصر كلها زي باقي اليهود إللي مشوا".

- "جه مشا ف رُكبُه الشيخ حسنين بتاعك ده! تمشي تروح فين؟ ثم إنت دلوقت مسيحي أرثوذكسي من ساعة ما اتجوزتني".

- "يعني خلاص؟ دلوقتي أنا مصري إسكندراني علشان بقيت مسيحي لمّا إتجوزتك يا إيلين، وقبل كده كنت خواجة؟ من السياح يعني؟".

- "أنا عارفه بقى يا خويا؟ أهو إللي تشوفه إنت بقى. بس مشيان بره البلد دي مافيش!".

* * *

تذكر داود بحسرة ابنه الأكبر "فؤاد" الذي كان قد شب وترعرع في حضن أم غير أمه، مرتين، وفي غياب تأثير أبيه النسبي لانشغاله بفنه وعمله من ناحية، وبزوجتيه من بعد أن ماتت أمه من ناحية أخرى، نشأ "فؤاد" على سجيته يفعل دومًا

ما يتبدى له، ترك المدرسة الثانوية وهو دون الخامسة عشرة، وبدأ يعمل في مصنع للبسطرمة أولا، ثم في مصنع المياه الغازية الكبير "سباتيس" وترقى حتى أصبح رئيسا لوردية عمال وهو بعد في التاسعة عشرة من عمره. ولا ينسى حين (أعلمه) يومًا بأنه قد انضم للحزب الشيوعي، وبدأ فعلا يواظب على حضور الاجتماعات الأسبوعية، بل وفي صيف عام 1948 وبعد الإعلان عن قيام دولة إسرائيل، فوجئ داود بابنه يخبره بأنه سيرحل عن مصر، ومعه أخوه الأصغر "موسى"، وسيذهبان إلى إسرائيل. وأسقط في يد داود حين باغتاه، ولكنهما رحلا فعلا في اليوم التالي. لم يشعر داود بالخسارة والوحدة بعد رحيل زوجتيه الأوليين مثلما أحس حين رحل عنه ولداه.

ألم تجرِ نفس الدماء الحارة في عروقهما؟ أم كيف تأتى لهما أن ينتزعا نفسيهما انتزاعًا هكذا من وطنهما وبيتهما، ويذهبان ليصنعا لأنفسهما وطنًا جديدًا؟ كيف تمكنا من ترك أهلهما وناسهما من وراه ظهريهما، ورحلا باحثين عن أهل وناس جديدين ينتسبان إليهما من جديد؟ لم يستطع أبدًا أن يفهم.

الفصل الخامس

قيظ النـهار ولـهيبه في فصل الصيف لا يلبث أن يذوب ويتلاشى حالما يغوص قرص الشمس في مياه البحر ليحل مكان السابحين الذين ملئوه طوال اليوم. ثم تملأ الجو رائحة شواء الأسماك تفوح من كل تلك المطاعم المتناثرة بطول طريق الكورنيش، وتتسرسب عائـلات المصطافين منسابة بطولـه بعد العشاء يتمتعون بقضم الذرة المشوي فوق جمرات الفحم، بينما يلتف الأطفال حول عربات بائعي (الجرانيتة) السكندرية المصنوعة من المانجو والفراولة أو الآيس كريم الفستقي، ويطوف باعة الجندوفلي وقنفذ البحر بصينيَّاتهم المفروشة بأطايب البحر المحلاة بفصوص الليمون يمرقون بين رواد المقاهي الذين يمضون أمسياتهم يتسامرون ويحتسون البيرة المثلجة ويبتاعون المزّة الطازجة تتراقص بينـهم نسمات بحرية منعشة، بينما تدور بين مناضد الزبائن أرجل لا تكل للجارسونات اليونانيين يقدمون لـهم المشروبات والمأكولات الخفيفة الممزوجة بضحكاتهم وقفشاتـهم الشـهيرة بألسنتـهم العربية المعوجة اللكنة التي تميزت بها ليالي المصيف بالإسكندرية. وبينما هذا هو حال المصيفين وأهل الإسكندرية المتريحين من استضافتهم، يختبئ باقي السكندريون تحت

جلودهم وخلف جدران بيوتهم طوال موسم الصيف، منشغلين بأعمالهم اليومية العادية في أثناء النهار، بينما يقضون أمسياتهم في أماكنهم المعتادة بعيدًا عن أعين المصطافين وجلبتهم – على مرحها – في قلب المدينة غالبًا وبعيدًا عن طريق الكورنيش.

وهكذا ليالٍ كثيرة أمضاها داود في بار الخواجة أنطونيللي بالإبراهيمية وحتى حلول الساعات الأولى من الفجر حين يتمشى إلى طريق الكورنيش الخالي، تدغدغه نسمة البحر الطرية ويتناجى مع أمواجه زافرًا إليها بتساؤلات تبدو له كالألغاز التي تعصي عليه، عن أمور حياته وعن الشيخ حسنين وعن فؤاد وموسى وعن سليمان وما تخبئه الأيام له ولهم من بعد، وقبل أن يخلد إلى منزله متقوقعًا حتى يحين المساء التالي، فيترفق به وينقذه من براثن سجنه الصباحي. وكان أحيانًا ما يقف ملتصقًا بسور الكورنيش متأملا آخر خيوط الليل الواهية وهي تنسحب رويدًا تحت زحف ألسنة النهار الوليدة، فتنسكب بجملتها فوق سطح المياه لتكسوها برقاقة فضية براقة تأخذ بلبه، فيخرج العود من جرابه ويتخذ له مجلسًا متميزا فوق السور الحجرى أو بداخل إحدى الكبائن الصامتة المصطفة بطول الشاطئ، وقد أعطى ظهره للمدينة

ويبدأ في العزف والغناء الرقيق يناجى به الرمل الأصفر المنساب أمامه والموجات الفضية المكللة بتيجان الألماس التي تبعثها إليها المياه الكاحلة الزرقة الممتدة إلى ما لا نهاية، يعزف ويعزف ويغنى حتى يتسلل قرص الشمس الوليد ويتصاعد متباطئا إلى وجه السماء، ويتوالى وقع الأقدام من حوله تشاركه عالمه الخاص الذي كان قد استأثر به لساعات، فيأبى هو شراكتهم إياه فيضع العود في الجراب وينصرف.

إلا عند تلك الليلة، أو بالأحرى ذلك الفجر حين كان قابعا بإحدى الكبائن الحجرية أمام الشاطئ يفصلها عن مياه البحر أمتار محدودة من الرمال، ثم ممر مبلط يمتد حزاءها، وكالعادة خلا الشاطئ من أي أثر لحياة عند تلك الإرهاصات الأولى من الفجر، حتى أن كان الظلام ما يزال مخيما، فيما عدا بصيص من الضياء استطاعت خيوطه المذهبة أن تفلت من قبضة الليل فأتاحت لداود في مجلسه أن يميز معالم المكان أمامه ولو قليلا. تسلطن هو ولم يزل يغازل أوتار العود ويتغنى بكلمات دافئة تموج في فراغ الشاطئ الخال من أي مخلوق فيما عداه. وبين سترات الظلام الغالبة الملتفة بإحكام من حول المكان، تسلل جسم إنسان مغلف بالغموض جاء من ناحية الممر ثم تخطاه إلى رمال الشاطئ. ثم انسلت

بضعة خيوط فجرية مضيئة إلى حيث كان واستقرت فأظهرت لداود معالمه، فتبدى له جسم امرأة يخطو مترفقا فوق الرمال، وهيئ له أنها نظرت إليه لبرهة ثم استدارت نحو البحر. وفي لحظة كانت قد خلعت عنها ثوبها وكوَّمته بجانبها ثم خطت في غلالة رقيقة نحو مياه البحر. توقف داود عن العزف متأملا المشهد أمامه مأسورا بجسد المرأة الذي عصفت به موجة البحر فاحتضنته تارة ثم اندحرت عنه فالتصق ثوبها بجسدها مبرزا منحنياته وهضابه ووديانه في لمعة وردية مسحورة بضياء الفجر الوليدة، في حين كانت المرأة تتقلب مداعبة للأمواج المنكسرة عند الطرف الضحل من البحر الممتد. ثم انحسرت الغلالة عن ساقيها وأعلى فخذيها، في حين ازدادت تدريجيًّا سطوة الضوء فتبدى جسدها يلمع وكأنها كائنا نورانيا قد خرج لتوه من الماء! وقبع داود في مكانه وقد تسارعت دقات قلبه الذي كاد أن يقفز عنه واشتعلت شهوته غير مصدقا ما يراه، إنها حتما حوريّة من حوريات البحر التي طالما سمع بهن! وطفقت المرأة تداعب مياه البحر وأمواجه وهي تتراقص معها تعلو وتهبط مع ايقاعاتها المتتالية، وتغوص برأسها في لجة المياه ثم تخرج منها وقد التصقت غلالتها بجسدها أكثر فأكثر حتى صارت وكأنها قد صارت

كمثل ورقة السيلوفان الذي يغلفون بها الحلوى فتبدو كأشهى ما يمكن أن تكون عليه! وفي لحظة كانت المرأة – أو الحلوى – قد خرجت من المياه، وبهزة خفيفة نفضت المياه عن شعرها واهتز معه ثدياها الناضجان، وانحنت متمهلة ثم لفت جسمها بمنشفة كانت قد أتت بها وصارت تجفف جسدها بصبر وتأن، وخيل لداود من جديد أنها رفعت رأسها والتفتت ناحيته ثانية، ولكنها مع ذلك لم تبدو متململة من وجوده، فلم تضطرب أو تبدل ايقاعها ولو قليلا، ولكنها مضت فيما كانت عليه حتى انتهت من تجفيف جسدها، ثم نفضت بقايا من الرمال عن ثوبها ووضعته عليها ثانية ثم خطت فوق الرمال في ثقة مبتعدة وقد عل–قت الشبشب بأطراف أصابع يُمناها تطوحهما على إيقاع خطواتها، ومضت تتثنى فوق الرمال حتى عبرت الممر المبلط، ثم عند مكان تعرفه مسبقا ما بين الكبائن دلفت ماضية نحو الكورنيش، بينما بقى داود متسمرا في مكانه، يحاول أن يتبين ما إن كانت تلك المرأة التي جاءته ثم رحلت على غير ميعاد، حقيقة كمثل العديد من النساء اللاتى يأتين إلى الشاطئ متسللات تحت خمار الظلام ليتحممن في مياه البحر بعيدًا عن العيون المتطفلة، أو مجرد خيالات لحوريّة

من الحوريات داعبته بها – ساخرة منه – خمر الخواجة أنطونيللي!

*** * ***

ولم ير داود جمال عبد الناصر ثانية حتى ذلك اليوم العجيب؛ 26 أكتوبر 1954. ولكنه تابع أخباره من الجرائد وهو يشعر بفخر أن هذا الرجل كان في يوم ما صديقه الذي أعطاه "الخاتم" ذات أمسية، نجح بعدها في القيام بثورته التي غيرت مسار بلده. في الأيام التالية أعيد انتخاب جمال عبد الناصر رئيسا للهيئة التأسيسية للضباط الأحرار، في حين صار محمد نجيب رئيسا للوزراء، وفي ١٨ يونية ١٩٥٣ تصدر الجرائد خبر قرار مجلس قيادة الثورة بإلغاء الملكية وإعلان الجمهورية، وبإسناد رئاسة الجمهورية إلى محمد نجيب إلى جانب رئاسته لمجلس الوزراء، أما جمال عبد الناصر فقد تولى أول منصبا عامًا كنائب لرئيس الوزراء ووزير للداخلية في تلك الوزارة التي تشكلت بعد إعلان الجمهورية. وفي الشهر التالي ترك جمال عبد الناصر منصب وزير الداخلية، ولكنه احتفظ بمنصب نائب رئيس الوزراء. وفي فبراير 1954 أقيل محمد نجيب وأصبح جمال رئيسا لمجلس الوزراء ولمجلس قيادة الثورة ثم رئيسا للجمهورية. رقص قلبه

في صدره ولم يصدق داود أن ذلك الضابط الشاب الذي لاقاه بالمقهى مع الشيخ حسنين ذات يوم منذ نحو خمسة أعوام قد صار رئيسا للجمهورية!

* * *

ومضت الأيام رتيبة بداود، بعد ذلك الخضم من الأحداث الجليلة التي ملأت بوقعها أيامه. وكما يس–بق الهدوء العاصفة، فهو حتما يعقبها أيضًا. ولكن داود ابتلع حزن جفاء الشيخ حسنين له وافتقد بالطبع ابتعاده عن صديقه الأقرب، وحاصرته ذكريات تلك الحورية التي تبدت له ذات فجر عند شاطئ البحر تملأ خيالاته نهارا وليلا، فتبدى لمن يراه ساهما أكثر من اللازم وصامتا معظم الأوقات. قرر أن يستفيد من هذه الأيام "الهادئة" ليقضى أكبر قدر من الوقت مع إيلين والأبناء. ولم يكن أنسب في ذلك الوقت من السنة من أن يصطحبهم جميعًا إلى شاطئ البحر. ولأنه لم يكن ينتظر أن يتلاقى هناك بحوريَّ–ته على أي حال، فلم يكن يفكر في نفسه أو يبَدي رغباته هو، حين قرر الذهاب بهم إلى الشاطئ، ولكنه لم يكن يتوقع مقدار السعادة التي حملتها تلك النزهات البسيطة إلى قلوبهم جميعا، وذلك الأثر العميق الذي تركته في

نفوس الصغار بالذات، والذي سيبقى محفورا في ذاكرتهم على مدى الأيام.

كان في الواقع يعانى من ضيق الحال لإنقطاع الدخل الذي كان يأتى به العمل مع الشيخ حسنين، ولكنه استطاع بفضل مساعدة أصدقائه من اليهود بمحرم بك، وعلى رأسهم "زكى فريحة" الصائغ الذي كان قد ابتاع منه خاتمه المسحور، والذي كان قد أبَى - مثله - أن يغادر الإسكندرية مع بعض اليهود الذين كانوا قد هاجروا في أعقاب حرب فلسطين في خريف 1948، فتعهد زكى أن يساعده ليجد عملا على الفور، فكوَّن بمساعدته فرقة موسيقية صغيرة تخصصت في إحياء موسيقى الفنان المصري اليهودي الراحل "داود حسنى". قوبلت الفرقة باستحسان الجالية اليهودية بالإسكندرية الذين بدأوا يدعونه وفرقته لإحياء حفلاتهم الخاصة بمنازلهم، شاديا ب-"على خده يا ناس ميت ورده" وأدوار"كل ما يزداد رضى قلبك علىَّ" و"جنة نعيمي ف هواك" لأم كلثوم، وطقطوقة "قمر له ليالى يطلع لم ي-بالى"، فطلع القمر من جديد، ولم ي-بال داود بالظلام الذي كان يحيط به. بل وانصلحت الحالة المادية خلال فترة وجيزة، وعاد يلقب بالملك من جديد.

ولكن كعادة الأفراح التي طالما ما تبقى منقوصة لسبب أو لآخر، لم يكتمل فرح داود بالنجاح، لأنه كان قد انحسر بداخل دائرة الطائفة اليهودية، فذكرته عزلته هذه بشعور قميء كان دائمًا ما يعتريه منذ أيام الطفولة، حينما كان كان أقرانه في الحي يجتمعون في دائرة عند مدخل أحد البيوت، بعد ما تنقطع أنفاسهم من طول الركض الذي كان يستغرق أمسياتهم الصيفية، فيبدأوا في الغناء على إيقاع تصفيقاتهم المرحة:

"وصلي صلي. ع النبي صلي. واقروا الفتحة لابو العباس. يا اسكندرية يا أجدع ناس. واللي ما يصلي. أبوه أرمنلي وامه يهودية."

* * *

وفي ذات صباح في خريف 1954، وكان قد اجتمع بأسرته عائدين للبيت من زيارة حدائق أنطونيادس، بداخل سيارة تاكسى من ذلك النوع المزود بمقعدين مقلوبين بظهر مقعد السائق، وكان سليمان ومنى (أبناء إيلين، وليلى) الابنة الصغيرة للراحلة بدور، يعشقون تلك المقاعد المقلوبة، وكانت الفرحة تكاد تثب من عيونهم الصغيرة، وضحكاتهم البريئة تقهقه هنا وهناك، وداود يتابع المشهد بنشوة وارتياح، وإذ بإيلين تصرخ فجأة:

– "يالهوي!" وهي تقرع بيدها فوق صدرها بينما عينيها شاخصتين نحو شارع "فؤاد" الذي كان التاكسى يقطعه بصعوبة، فتلفت داود أيضًا وإذا بجموع غفيرة تتدافع متلاحمة وكأنها أمواج البحر، الذي لم يكن ي–بعد عنهم فعلا إلا خطوات قليلة، وكانت تلك الكتل البشرية تزحف في دائرة أو دوائر متماوجة، تحدها عند الجانبين صفان من العمارات، وقد امتلأت نوافذها وشرفاتها عن آخرها بوجوه باسمة وأياد مصفقة وملوَّحة مما أصاب إيلين بالخوف بالرغم من مظاهر البهجة الواضحة إلا أن تكدسهم بالشارع أمامها هكذا أوجسها. وأما هو، ففى خضم تلك اللوحة الرائعة الماثلة أمامه لمح داود، على بعد نحو مائتى متر من موقعه خلف نافذة التاكسى، وسط تلك المظاهرة الحاشدة وعند محورها، سيارة "كاديلاك" سوداء، تبرق لمعانا، مكشوفة السقف، يقف فيها جمال عبد الناصر – نعم هو شخصيًّا – وبرفقته ضابطين عن يمينه ويساره، يحيون الجماهير الهائمة حول موكب سيارتهم، فما كان من داود إلا ودفع برأسه، بل بجزعه كله من نافذة التاكسى وقد مد بذراعه أمامه يلوّح بشدة، وصرخ بكل ما أوتى من قوة:

- "يا جمال أنا هنا!. أنا الخواجة داود.. أنا هنا ياجمال يابن عبد الناصر أفندي. أخويا!". ولكن ذابت صرخته في خضم ضوضاء الزحام المحيط.

الفصل السادس

وفي مساء ذلك اليوم سمع داود في الراديو خطاب الصاغ "صلاح نصر"، وأعقبه خطاب "الشيخ الباقوري" وزير الأوقاف، ثم جاءت خطبة الرئيس جمال احتفالا بعيد الجلاء من وسط ميدان المنشية الذي كان ما يزال يموج بالآلاف من أهل الإسكندرية الذين احتشدوا بتلقائية وعفوية حول قائدهم، وتمنى داود أن يكون وسطهم، بل ويتقدمهم بما أنه كان من جنود الحركة، حين خطب جمال في الجموع الغفيرة قائلا:

- "أيها المواطنون نحتفل اليوم معًا (ويشير بيده إلى داود الواقف أمامه في الصف الأول بين الجماهير المحتشدة) فينظر الكل إلى حيث يُشير، فيفهم الجميع "من" يقصد بقوله "معًا" (أي أنا وداود وباقي الشعب طبعًا) نحتفل معًا بعيد الجلاء، عيد الحرية، وعيد الكرامة".

ويسمع داود صوت طرقعات كالألعاب النارية، كصواريخ "أولاد علي بَمبة". تراك تراك. تاك تاك تك تك تاك. نعم، نعم إنها كذلك، فيبتسم مداريًا انقباضةً تغشاه. ثم يحل صمت للحظات حتى يجيء صوته من جديد من خلال الراديو، وإن يكتنفه نوع من الهلع:

– "أيها الرجال فليبق الكل في مكانه! أيها الرجال فليبق الكل في مكانه! أيها الرجال فليبق الكل في مكانه!" عشرات وعشرات من المرات يكرر النداء، ويكرر، لإخوانه من الضباط من حوله وللجماهير المحتشدة أمامه، ولمصر كلها المجتمعة حول أجهزة الراديو تستمع إليه، بأنه بخير وبأن محاولة اغتياله تلك قد باءت بالفشل. ويتنهد ثم تنساب دمعة جديدة على خد داود.

*** * ***

مر يومان وداود يأبى أن يغادر منزله، بل بالكاد يترك غرفته لشعور انقباض وحزن يجتاحه لا يفهم هو مكنونه، وإن كان قد استسلم له خانعًا. كان الوقت يتسرسب ببطء من حوله وقد تثاقل بلزوجة عجيبة جعلته يلتصق بإصرار بكل ثانية تمر به فلا تستطيع الفكاك منه إلا بأعجوبة. وكان يمضي الساعات الأولى من يومه ممددًا فوق السرير متطلعًا إلى سقف الحجرة أو دافنًا رأسه تحت الوسادات في محاولة لعزل أصوات الشارع المألوفة من نداءات الباعة على الخضروات، أو اللبن الزبادي، أو رنين أجراس الدراجات المارقة، أو نداءات السكان بعضهم بعضًا عبر النوافذ أو البلكونات، أو حتى ذلك الصوت النادر الزاعق عند مداخل البيوت، فلان

الفلاني.. بوسطة! وكان صوت الراديو القادم من الشارع يُذيع برامج وأغنيات وطنية تشيد بالثورة وبعبد الناصر، ويشعر معها داود بالفخر لأنه كان شريكًا في ذلك العمل الوطني، ولكنه يتذكر كلمات الشيخ حسنين الجارحة فينقبض قلبه في صدره ويتلوى كمدًا من جديد، فيستسلم لموجة أخرى من اليأس الممزوج بالدمع حتى يباغته وجه الطفل على شاطئ البحر ليقول له إن الرجال لا يبكون!. نعم لا يبكون، حتى عندما يشكك أصدقاؤهم في حقيقة انتمائهم لوطنهم، لا يبكون. حينما ينقطع رزقهم ورزق أولادهم بسبب ديانتهم ولا أكثر، لا يبكون. وعندما ينعتهم أهل بلدهم (الإسكندرية) بالخواجات طيلة حياتهم لأنهم لا يتبعون دين الأغلبية، في حين يدعون المهاجر الوافد إلى البلد -التركي أو الشامي المُسلم- بالحاج فلان أو الأخ علان، ولكن ما عليه؟ فالرجال لا يبكون!. ولماذا لا يبكي رجال مثل داود؟ لأنهم أقوياء -طبعًا- ولأنهم المثل والقدوة -بلا شك- بل ولأن الطين الذي جُبلوا منه يبدو أنه كان مختلفًا عن باقي الطين الذي خلق منه باقي البشر، لذلك فهم -تلك الفئة من الرجال- لا يبكون!.

انتفض داود فزعًا على دقات متتالية قادمة من عند باب الشقة، وإن بدت لارتفاع وتيرتها وكأنها قد ملأت البيت،

فاتسع صداها في لحظات ليملأ فراغ الشقة كله بصوت يشبه دقات الطبول ترتجّ معه حيطان الغرفة، فهب الجميع -الأولاد وداود- يهرولون من جميع الغرف إلى الصالة التي تتوسط الشقة، وحتى إيلين أطلت بوجهها من باب المطبخ، وقد ارتسمت علامات الجزع فوق وجهها الجميل، ولكنها أبت أن تترك مكانها حتى لا يحترق الطعام الذي كانت تُعده، وإن أعلنت مشاركتها بصياحها:

- "يا عدرة!. حد يفتح الباب يا ولاد، شوفوا مين، يا مار جرجس يا شهيد! خير إن شاالله!".

وهبَّ داود ليفتح الباب فإذا بالست أم لطفي وقد تلفعت بالملاءة السوداء كعهده بها، وفي يدها طفلها الصغير يتطلع إليه بفضول وقد غمس إبهامه الصغير بفمه وأخذ يمصه، وما تزال أمه تطرق الباب بقبضة يدها الأخرى بهيستيريا حتى بعد أن انفتح الباب، ولما رأته أخيرًا بعد أن وعت أنه واقف أمامها، صرخت بين دموعها:

- "إلحقني يا خواجة داود، إلحقوني يا ناس، أخدوا الشيخ حسنين" فجحظت عينا داود؛ إذ فهم في لحظةٍ سرَّ عزلته واكتئابه اللذين أديا به إلى أن ينطرح أسير غرفته يومين. وبدون أن ينبس بكلمة، أشار إليها بأن تدخل وطفله

معلق في يدها ما يزال يتطلع إليه بعينيه الواسعتين المطلتين من كوز العسل المتخفي في هيئة رأس طفل، في حين هرولت إيلين من ناحية المطبخ، وهي تقرع صدرها مؤازرة للمرأة في جزعها على مصير زوجها. انتهز داود فرصة الانشغال بقدوم إيلين، فدارى ابتسامته الساخرة التي بدأت تُزيح ملامح وجهه الجادة من رأس الطفل المنبعج، مؤمِّنا بينه وبين نفسه بأنه لم يأخذ من شبه أمه شيئًا. ودلف إلى غرفة النوم مبدلا ثيابه بسرعة وعاد في خلال دقائق معدودة، كانت الست أم لطفي قد قصت خلالها كل تفاصيل الأحداث على إيلين. وعند عودته إلى الصالة، ألقت المرأتين بروايتهما في تتابع على مسمعه وهو يكمل لفة رباط العنق، ويرشف آخر فنجان القهوة، فعلم منهما أن بضعة رجال في ثياب مدنية -يبدون كالمخبرين- قد زاروا الشيخ حسنين في منزله ليلة الأمس، أو بالأحرى في الساعات الأولى من فجر اليوم، ثم أخذوه معهم في جلبة، بعد أن قلبوا محتويات الشقة رأسًا على عقب. وبالرغم من صراخ الست أم لطفي ومن تجمع الجيران حول عتبة الشقة، وبطول السلم، وحتى باب العمارة، إلا أنهم دفعوا به إلى داخل سيارة من نوع "البوكس" الحكومية التابعة للشرطة دون أن يجاوبوا أحدًا عن تساؤلاته، إلى أين يأخذونه أو لماذا، وفي دقائق

كانوا قد اختفوا بزوجها إلى الشارع الرئيسي تاركين خلفهم الحيرة والخوف والجيران المذهولين أمام مدخل البيت، والأسرة وقد انقلب حالها في خلال دقائق، وكأن إعصارًا أو نوَّة من نوات أمشير قد اجتاحتها فدمرتها تدميرًا.

دار داود، والمرأة تتبعه، في شوارع الإسكندرية كلها بدون جدوى. بدأ بشاويش شاب بقسم البوليس بمحرم بك، ثم ضابط التحريات، فمأمور القسم، ثم مديرية الأمن بكامل طوابقها وممراتها ودهاليزها. وكانت الإجابة واحدة في كل الأحوال: "ليست لدينا أية معلومات عن الشيخ حسنين البصري هذا، لا بد أن في الأمر خطأ ما". وتحير داود ماذا يفعل وقد مال النهار ولم ينجز شيئًا، ولم تكفَّ المرأة المسكينة عن بكائها. بدأت الغيوم والسحب تتلاحم منذرة، واغتم الطريق بلون داكن حين اختفت الشمس وغابت خلف وطأة الغيوم القريبة، وملأت الجو رائحة الرطوبة الباردة الممزوجة بالملح واليود المنبعث من النباتات البحرية الملقاة بإهمال فوق رمال الشاطئ الخالي من كل شيء، فيما عدا أذرع الضياء الهابطة أحيانًا من السماء ما بين السحب الغاضبة. وهرع الجميع إلى منازلهم الموصدة الشبابيك، وقد بدأت لافتات الطريق واشارات المرور تتراقص بفعل هبوب الريح اللافحة المنذرة بالعاصفة

القادمة، خلا الرجل والمرأة اللذين بقيا هائمين تتلقفهما الشوارع والأرصفة بلا طائل.

وفجأةً بدأ سيل من المطر ينهمر وكأن السماء قد انشطرت ففاضت في لحظة بكل المياه التي كانت تحملها في جعبتها. مياه في كل مكان! فوقهما وأمامهما وخلفهما بل وتحت أرجلهما ترتطم المياه بأرضية الشارع ثم تقفز إليهما من تحتهما، فوثب هو بخفة وبخبرة واستدار لاصقًا ظهره بباب خشبي تحت عتبة أحد البيوت أمامه. وتأخرت عنه قمر نحو خطوة أو اثنتين، كانت كافية لأن يراها قادمة نحوه لتحتمي مثله بعتبة المدخل المسقوفة درءًا للشلال المنهمر. وكأن دورقًا محفوفًا بالماء قد انقلب فوق رأسها، أو موجة بحر قد صعدت فوق رصيف الكورنيش وغمرتها، فالتصقت ثيابها بجسمها فتبدت معالمه بل وتفصيلاته أمام عينيه لأول مرة، فأُخذ هو بما تبدى له. نظر داود إليها ربما لأول مرة منذ قابلها، بل منذ عرفها، نظر إليها هي، إلى المرأة الشابة الباكية أمامه، وليس إلى زوجة الشيخ حسنين، وتبدت له صورة لم تعد تفارق مخيلته منذ وقعت عليها عيناه لأول مرة، عند ذلك الفجر يوم أن تبدت له تلك الحوريّة المسحورة تستحم أمامه عند شاطئ البحر. نفس المعالم ونفس الروح تهل إليه

الآن وكأنها أبدًا ما فارقته! وإنما تغلبت تلك النظرة المنكسرة عليها فترقرق قلبه بل وكادت أن تفيض بالدمع عيناه لما رأى هذا الكم من الحزن يعتريها، ولكن مشهد الحوريّة لم يزل يداعبه ويوقظ مشاعره. قبعت "قمر" متسمِّرة بجانبه تحت العتبة المسقوفة، وقد دنت منه لضيق المكان، حتى إن أنفاسها المترددة كانت تحف بظهر يده التي كانت تعبث برباط عنقه. حاول التخفيف عنها، فشرع يخاطبها بكلمات تهدئ من نفسها، وهمَّ فجأةً بأن يأخذها ليعتصرها بين أحضانه ولكنه امتنع، وشرع في أن يدعوها باسمها، ولكنه أدرك لحظتها أنه لم يكن يعرف حتى اسمها الحقيقي، فهي كانت دائمًا "أم لطفي" بالنسبة له. ولكن ذلك الحزن في عينيها الذي أضفى عليها ضعفًا وانكسارًا شداه إليها كامرأة تبكي أمام رجل يبتغي حمايتها ويسعى بكل ما أوتي من رجولة لأن يكفكف من دمعها، ورماها البكاء وتلك الحيرة المغلوبة على أمرها بجمال منكسر جذاب، ووثبت أنوثتها المستضعفة فجأة أمامه، تصارعه في ثوب امرأة واهنة منكسرة تحتاج إلى حمايته وتوجيهه إياها، فصرعته!. فجأة تبدلت حالتها من ربة المنزل "أم لطفي" التي كان يراها دومًا عليها إلى تلك المرأة الفاتنة التي يراها أمامه وقد التصقت ملابسها بجسد الحوريّة

المسحور، فأصيب بدهشة أسكتته. وفجأة أيضًا عادت به السنون للوراء فطفقت رجولته المتدفقة تتماهى في الذود عنها. رآها لأول مرة امرأة شابة، نضرة كالفاكهة الشهية، ملفوفة القوام، نقية البشرة كضوء الفجر، وخصلة شعرها الذهبى بلون الشمس تلوح من تحت المنديل في تحدٍ تنساب على جبينها وتطال الجانب الأيسر من وجهها فتتراقص أمام عينيها الخضراويتين وهي تنشج، وخيل له أنها تنظر له من بين دموعها وخلف خصلات شعرها المبلل بفعل المطر المنساب بنفس الوله والإعجاب. هبت راح تجاههما وندت معها من جسدها رائحة كالورود، ومن جديد هم بأن يربت على كتفها، بل ويأخذها بين ذراعيه، ولكن تمالك داود نفسه مرة أخرى، بصعوبة، ثم سألها بنبرة تعمد أن تكون أقرب للرزانة والصدق بعد أن كان قد ذاب في تلك الأفكار التي اجتاحته فجأة كالإعصار، دافعا إياها عنه خج-لا من نفسه، مغيّرا لإتجاه مشاعره وداعيا ألا تكون المرأة قد لاحظت ما قد يفضح مشاعره تجاهها:

- "هو انتِ اسمك إيه يا أم لطفي؟" فرفعت المرأة عينيها نحوه فانسحب إلى عمق خضارهما وغاب في غضون عالم جديد لم يعهد مثله قبلا، ثم كفكفت دمعها بطرف

قميصها، متعجبة من كلماته ونظراته إليها، ثم أشاحت بخصلة شعرها من فوق وجهها، وكأنها ترفع حاجزا كان يحجب وجهها عنه وأجابت كالمأخوذة:

- "إسمى "قمر" ياسى داود، إنت بتسأل ليه؟" فابتسم الرجل مرتبكا:

- "أبدا أصلى لقيت نفسى مش عارف إسمك، يا قمر، تعرفى إن مراتى التانية - الله يرحمها - كان اسمها بدور؟ يعنى كذا قمر." وضحك داود، وأما هي فلم تفهم مقصده فسكتت. تطلع داود إلى وجه قمر وقد كفت عن بكائها ونشيجها، فتبدت له بشرتها البيضاء الرائقة وكريات من بقايا الدمع والمطر تنزلق فوق وجنتها لتتجمع فوق شفتها العليا المكتنزة بحيوية الشباب فتلعقها هي بعفوية بطرف لسانها، وعيناها الخضراوين تتطلعان إليه متسائلة، فؤخذ من فرط جمالها وجاذبيتها الفطرية والبلل الذي يغطيها يضفى إليها لمعانا ويضاهى آدميتها العادية بسحر الجني-ات. شعر بأنها امرأة جديدة فريدة، وكأنها حواء التي خلق-ت لتوها من أجله، وخرجت من وسط أمواج البحر، لتؤنسه في حياته، وإن قال لها ليغطى ارتباكه لوقع حسنها وأنوث-تها عليه، وليعود بذهنه إلى ما كانوا فيه من حديث:

- "أنا هانكلمو الخواجة زكى في التليفون، يشوف لنا حد من الناس الأكابر من معارفنا يساعدنا".

وتوقف المطر فجأة كما بدأ، وانقشعت الغيوم فسطعت الشمس من جديد وملأت بأشعتها السماء وإن بقت برودة معلقة بنسمات الهواء الهابة هنا وهناك. وتطلع داود إلى قمر وابتسم لها بحنان مشفقا عليها من ابتلال ملابسها، فاقترح أن يرجعا إلى بيتيهما لتبدل هي ثيابها في حين يقوم هو ببعض المكالمات التليفونية، فوافقت. وسارا صامتين متجاورين في حين كان فكره يدور في كيف يتسنى له أن يسألها عن تلك الحوريّة التي تبدت له يومًا عند شاطئ البحر وقلبت كيانه تمامًا! ولكنه آثر أن يلتزم الصمت لعلها تخجل من أن تبوح بسرها، أو ربما لم تكن هي تلك الحورية الحسناء فتستنكر سؤاله بل وقد تعده مهينا، وإن استبعد هو بينه وبين نفسه ذلك الاحتمال إذ أكد له قلبه أنها هي حوريته!.

وتلاقيا من جديد بعد الظهر، فمضى داود معها إلى قصر "بنيوتي باشا" ودخل بالمرأة التي كانت الآن ترف بفستان أسود يلتف برقة حول جسمها محتضنا بشرتها الناصعة البياض، تعتلى سواده ورود حمراء كبيرة بينما قمطت شعرها بمنديل أحمر تدلت من أطرافه المذهبة كريات من الخيوط

الحمراء والسوداء تهتز مع كل خطوة تخطوها، منسجمة مع ارتعاش القرط الذهبى المتعدد الأدوار المتدلى من أذنيها. وانبهرت قمر بإمارات العز التي ملأت جنبات القصر المطل على البحر، إنبعث صوت عزف رقيق لسوناتا (ضوء القمر) لبيتهوفن من آلة البيانو يبدو آتيا من الناحية المقابلة لغرفة الصالون التي قادهما إليها الخادم، وقابلهم الباشا بعد دقائق في ذلك الصالون المهول المرصع بالتحف واللوحات المتناثرة هنا وهناك، ونفث دخان السيجار السميك أمامه وقد بدت عليه علامات الإستنكار لإصطحاب داود لتلك المرأة (الشعبية) إلى بيته، وإن كان لجدية داود الظاهرة في طلبه المعونة أكبر الأثر ليشحذ الباشا همته، ولسبب المَع–زة الخاصة التي كان يكنها له، في أن يجد الشيخ حسنين. وبالفعل طلب الباشا من خادمه أن يأتى بعصير الليمون للضيوف، وأن يحضر إليه التليفون ودفتر الأرقام من حجرة المكتب، وتحدث الباشا هامسا وفي خلال دقائق كان يعيد سماعة التليفون إلى مكانها، في حين كان داود يرشف الليمون، ونقرات البيانو ما تزال تتطرق إلى أذنيه. ثم سحب الباشا نفسا جديدا من السيجار ثم نفث به وقال مستنكرا، والدخان يتصاعد من فمه كالقاطرة مع كل كلمة ينطق بها:

- "إيه يا داود أفندي؟ مش كان الواجب تقول لى إن صاحبك ده إخوانجى؟ ليه بس الإحراج ده، وإيه يا أخى إللي يلمَّك على الأشكال دى؟" أعقب ذلك شهقة، لا بل ولولة مبتورة من جانب السيدة أم لطفي، وإن سارع داود بوضع كفه فوق فمها قبل أن تتفوه بكلمة قد تسئ إلى معالي الباشا، وشعر برعشة تسرى من شفتيها إلى يده فتلعثم. وعدته بعينيها أنها ستصمت، فرفع راحته عن فمها، ولكنه قال متلهفا إلى مزيد من المعلومات:

- "معلهش يا سعادة الباشا، الشيخ حسنين ده صاحبى وعشرة عُمر. أستسمحك بس ياباشا تعرَّفنى هو فين دلوقت." فقام الباشا من على كرسيه معلنا عن انتهاء الزيارة، وهو يقول:

- "صاحبك اترحل على القاهرة من ساعتين. الموضوع ده جاي من فوق. فوق قوى. فاهم يا داود أفندي؟"

* * *

شعر داود بفراغ ما من حوله، وانتابه احساس بأنه قد ترك خلفه شيئًا مهما، أو نسيه وهو جالس بالقطار المتجه للقاهرة، فأخذ يعبث بجيوبه متفحصا محتوياتها، كما خلع

الطربوش وووضعه ثانية على رأسه، وتفحص منديله في جيب سترته ثم أحكم وضعه، وهكذا لعدة دقائق حتى تذكر أنه ترك "العود" – متعمدا – في البيت، وإن لم يكن اعتاد فراقه. ومد نظره عبر النافذة محاولا أن يقاوم ذاك الشعور القهرى بالفقدان الذي اجتاحه، ورنا إليه طيف "قمر" بوجهها الأبيض الرائق الجمال وشفتيها المكتنزتين المرتعشتين تحت وطأة كفه فوقهما، فهز رأسه على الفور مشيحا بتلك الخواطر مستنكرا مجرد تفكيره فيها، في زوجة صديقه الذي عزم ألا يعود للإسكندرية بدونه. وتشاغل متأملا تلك الخضرة المترامية على جانبى شريط القطار، تلك الخضرة الصامتة المسطحة الساكنة الأزلية، وتسلى عن تفكيره في "قمر" بمتابعة أشجار النخيل البعيدة المصطفة على مرمى البصر وهي تسابق القطار الذي كان يطير به إلى القاهرة.

وتذكر يوم اصطحبه أبوه "عيسى أفندي عبد الملك" للقاهرة لأول مرة لحضور حفلة عرس إبنة ابن عمته "يوسف قطاني" باشا المليونير الشهير، والتى أحياها ليلتها النجم الشاب "محمد عبد الوهاب"! الذي أصبح من بعدها نجما عاليا متربعا في سماء الفن. كان عمره وقتها لا يتعدى التاسعة عشر وكانت تلك هي أول سفرة له من الإسكندرية، ويذكر

جيدا كيف استيقظ يومها في الرابعة صباحا، وكيف تركا البيت والظلام ما يزال يخيم على شوارع مدينته، وكيف زرفت أمه دموعا ساخنة وهي تودعه على عتبة الشقة وكأنه خارجا بلا عودة!.

ومع رتابة صوت عجلات القطار زفر داود متفكرا "كم مرت الأيام، وكم تغيرت يازمن! رحل أبى ورحلت أمى ومصيرك يا داود إلى أن تصبح جدًّا! الأهم الآن أن نجد طريقة لنعود بالشيخ حسنين للإسكندرية".

الفصل السابع

فور وصوله، لميدان المحطة المزدحم بالبشر الرائحين والجائين في كل مكان من حوله، إنتابه ذلك الشعور بالاغتراب الذي عادة ما يحل بالسكندريين عند زياراتهم للقاهرة، العاصمة المكتظة بالناس، وبالمبانى، وبالسيارات بأشكالها، والتاكسى الأبيض في أسود بدلا من البرتقالي الذي تتميز به مدينته، وعربات الحنطور، وعربات الكارو، والنازحين من القرى المجاورة، والناس الملتفين حول عربات الكشرى، يزدرون طعامهم في صمت واستسلام وسط زخم المدينة الهائلة. استقل داود سيارة أجرة وقال للسائق:

- "إطلع بينا يا أسطى على منشية البكرى، على بيت جمال عبد الناصر". فالتفت السائق إليه عبر المرآة الخلفية، وأومأ برأسه، متفكرا فيمن يكون ذلك الكهل الأنيق الذي ما يزال يلبس طربوشا في ذلك العصر الجديد، الذي صدر به أمر من الرئيس نفسه بإلغاء الطرابيش والألقاب، والذي نزل من القطار لتوه واستقل عربته وانكمش في مقعدها الخلفى الوثير متجها مباشرة لمقابلة "الريِّس" ذاته!. وإن لم يدفعه فضوله هذا إلى أن ينطق بكلمة واحدة طوال الطريق. تغلبت الرهبة على مشاعره وبصعوبة وافق حتى أن يأخذ ثمن المشوار،

وسط استغراب "داود" بل وأصر أن يدور حول العربة ويفتح للكهل الأنيق باب التاكسى عند وصولهم، ثم انطلق مسرعًا وكأنه يهرب من جرم ما قد يكون قد ارتكبه وهو لايدري!.

عند المدخل كان ضابط جالسًا خلف مكتب خشبى صغير بداخل غرفة حجرية مشيدة خصيصا لدواعى الأمن، بل ومزينة – من باب التأكيد – بيافطة مكتوب عليها "مكتب الأمن"، زيادة في الحرص لئلا يشك أحد في شأنها الهام. كانت غرفة صغيرة ذات نافذة واحدة تطل على الطريق، وعند جانبها حجرة أخرى أو على وجه الدِقة، صومعة إسطوانية بالكاد تكفى لوقوف شخص واحد، وكان بالفعل يقف بداخلها عسكرى حراسة يحمل بندقية تنتهى فوهتها بسلاح أبيض فوق كتفه. تقدم داود عابرا العسكرى في اسطوانته الحجرية بعد أن أومأ إليه محييا ولم يرد، واقترب من النافذة فرأى ضابطا جالسًا خلف مكتب، ثم طرق زجاج النافذة برفق، فأشار إليه الضابط أن يدور حيث باب الحجرة عند جانبها البعيد المختفى عن الطريق، فتبع داود التعليمات ودخل قائلا:

– " صباح الخير يا حضرة الضابط، أنا عايز أقابل الريس جمال لو تسمح" قالها بعفوية وقد أخرج منديله لينفض الغبار وهو يهم بالجلوس على المقعد الخشبى المواجه

للمكتب، فقابله الضابط بابتسامة متعجبة من مظهره المتأنق أخفى وراءها مسحة سخرية خشى هو من أن تظهر لعل ذلك الزائر الغريب أن يكون من أصحاب الشأن، وما أكثر أصحاب الشأن في هذه الأيام!. كان يجلس وحده في تلك الحجرة الصغيرة المجردة الحوائط اللهم إلا من صورة للرئيس جمال عبد الناصر، وابتسامة كبيرة تعلو وجهه، تطل من الحائط خلفه، وفيما عدى بعض الأوراق المتناثرة على المكتب، لم يكن هناك شيء آخر يذكر باستثناء جهاز تليفون أسود بدون قرص للأرقام، أي مخصص فقط لإستقبال المكالمات أو للتخاطب مع جهاز آخر بداخل المبنى، موضوعا على منضدة متعامدة مع المكتب، وبجانبه كوب شاى فارغ إلا من بعض بقايا أوراق الشاى الجافة العالقة بقاعه وذبابة أو إث–ن–تين تحومان فوقه. وكانت الحوائط والمكتب والمنضدة والتليفون وحتى كوب الشاى مغطاة بطبقة من التراب الرمادى، ربما لمقربة الغرفة من الشارع العمومى، الذي تنامت أبواق سياراته وأصوات المارة والدواب الجارة لعربات الكارو والقطط والكلاب الضالة الغاصين به إليه كواقع حاضر يلف به بطول المقابلة.

– " وسيادتك عايز تقابل الريس ليه؟" وكان الضابط قد بدأ يدون بيانات داود من بطاقته الشخصية التي طلب أن

يراها، فمده إياها داود، وهو يشكر في فكره الشيخ حسنين الذي كان قد أشار إليه أن يذهب ويستخرج شهادة الجنسية المصرية منذ أكثر من عشرين سنة، وحيث أن كان معظم اليهود المصريين وقتها لا يحملون شهادات الجنسية المصرية، فقد كان من حسن حظه أنه كان يحمل بطاقة شخصية في ذلك اليوم بالذات وهو يطلب مقابلة رئيس الجمهورية. أجابه داود:

- "أبدا يافندم، بس ده موضوع شخصى، لو سمحت حضرتك تبلغ الريس إن داود عبد الملك جه من اسكندرية وطالب يقابلك، أقصد يعنى يقابل سيادتك". فكتب الضابط في دفتر الزوار نص ما أملاه عليه داود، ثم مال بجزعه ورفع سماعة التليفون وبدأ يضغط فوقه ضغطات متتالية، وهو ينظر نحو السقف منتظرا إجابة، ثم إعتدل فوق كرسيه فجأة وإعلم المتحدث على الجانب الآخر بوجود زائر يريد أن يقابل الريس مكررا ما قاله داود. ثم وضع السماعة مكانها مبتسمًا مرة أخرى، وهو يتفحص داود عبد الملك الجالس أمامه في تأنق ملحوظ منتظرا أن يقابل رئيس الجمهورية. ولم تمر سوى بضعة دقائق حتى اخترق رنين التليفون مساحة الضوضاء المسترسلة القادمة من الشارع، فانتفض داود في مكانه فزعا،

وأما الضابط المعتاد مثل ذلك الرنين، فما كان منه إلا واستدار بهدوء والتقط سماعة التليفون ثانية، ثم ارتسمت على وجهه فجأة إمارات الجدة، وهب واقفًا وهو يقول:

- " أيوه يا فندم حالا. شكرا. مع السلامة سيادتك." ثم أشار لداود بمنتهى الأدب أن يتبعه إلى داخل المبنى، حيث استلمه ضابط ثان إرتقى معه بعض الدرجات بينما عاد الأول إلى موقعه بمكتب الأمن.

* * *

تلقاه الرئيس جمال واقفا، بشوشا بابتسامة عريضة تملأ وجهه، وقد مد ذراعيه أمامه معلنا استعداده أن يأخذه في حضنه، فاستجاب داود لدعوته متحفظ-ا، بسبب الرهبة التي تحيط في العادة بشخص الرئيس، فتقدم الخطوات اللازمة ولكنه لم يلق بنفسه في أحضانه بالقوة المطلوبة لحضن الأصدقاء الحميمىّ، وإن اكتفى بالإقتراب حتى أوشك صدراهما على التلامس، ولكن على أي حال لم يستغرق كل ذلك سوى برهة، ملأت أنف داود تلك الرائحة التي شك في أنها كانت تخص اليوزباشى جمال، رائحته يوم قابله في مقهى خليل أغا، ذلك المزيج من الليمون مع السكر المحروق، والتى كان حسبها يومها صادرة من مكان ما بالمقهى ذاته، ولم يفكر في

أن تكون رائحته هو، إذ لم تكن - حينذاك - مألوفة لديه. ربت بعدها جمال على أعلى كتفه، وقد تبدى لداود أنه ربما يكون قد ازداد طولا وعرضا منذ آخر لقاء بينهما.

" أهلا أهلا "

ثم أخذه جمال وهو يسير بجانبه متمهلا واضعا زراعه فوق كتفه كالأصدقاء القدامى وهما يعبران الغرفة الشاسعة متجهين إلى طاقم من المقاعد الجلدية الخضراء المتناثرة عند الطرف البعيد لسجادة عجمية، لم ير لحجمها ولفخامتها مثالا من قبل، بالرغم من تردده على قصور أغنياء كثيرين على مدار أيامه. جلس قبالته وقد اعتلت صفحة وجهه ابتسامة مريحة، بل وأحيانًا ضحكة صامتة أظهرت أسنانه المبيضة. وكان يراه لأول مرة بدون الملابس العسكرية، فقد كان يرتدى قميصا أبيضا وقد ث-نى أكمامه إلى منتصف ساعديه، وبنطلون رمادى فوق صندل جلدى بدون جوارب، كشفوا عن مدى سمرة جلد ساعديه وأسفل ساقيه التي كانت قد غطتها البدلة العسكرية من قبل. جلس وقد مد بجزعه للأمام وسند ساعديه فوق فخذيه وعقد يديه قبالته في تباسط بدون أن يُشعر داود بأى توتر أو استغراب للمكان، وقال جمال مبادرا

والابتسامة العريضة لا تزال تملأ وجهه الأسمر وقد بدأ يحرك يديه مع تتابع كلماته:

– " إنت فينك ياخواجة داود؟ ده انت واحشنا جدًّا والله العظيم. أنا عارف إنى مقصَّر في حقك، بس والله المشاغل زى ما انت خابر بقى" وقهقه لبرهة ثم أضاف بصوته الحاد الذي لا يتناسب مع عملقته:

– " في الحقيقة طلعت مقلب الشغلانة دىّ، أصل دى أول مرة في حياتى أبقى رئيس جمهورية! هاها. المهم تشرب إيه بقى يا داود؟".

وقهقه جمال ثانية، فأضفى مزاحه معه مرحا وبساطة على المكان، وشعر داود سريعا بموجة من الإسترخاء تجتاحه، فمد يده وخلع الطربوش ووضعه على المنضدة أمامه وتمتم متلعثما:

– "مافيش داعي لأي حاجة سيادتك، بس لو كان ممكن يعني، ولو مافيهاش تعب، يبقى فنجان قهوة مضبوط" فقهقه جمال ثانية معلقا:

– "ياراجل يعنى (جيت في جَمَل؟)، ده أنا كنت فاكرك هاتقول لى (كابوتشينو) ولاّ حاجة صعبة قوي يعني وانت

بتتلجلج كده." وما زال يضحك حين ضغط على زرار كهربى بجانبه، فدخل سفرجى نوبى معمم بعمة بيضاء، يرتدى الزى الأزرق اللامع المزركش على صدريته بخيوط ذهبية، والمؤزر حول بطنه بقماش ذهبى أنيق، كالسفرجية في بهو فندق "سيسيل" بمحطة الرمل، فطلب منه جمال بأدب جم:

– " لو سمحت تعمل لنا اتنين قهوة مضبوط يا "عم بشير"، من البن المخصوص، مش من بتاع "محمود الجيار"، لحسن الراجل ده حبيبنا، وشري–ب قهوة ها يفضحنا لو البن مش هو". فابتسم عم بشير وانحنى بدون أن يتكلم ثم انصرف. إزدادت شجاعة داود بفعل ذلك الجو المرح الذي أضفاه جمال على مجلسهما، فتنحنح ثم قال:

– " والله يا ريس أنا جاي من اسكندرية عشمان أطلب تلات حاجات من سيادتك" فقاطعه جمال:

– " تلاتة مرَّة واحدة! أولا قبل ما تقول أي حاجة، ده يا سيدى بتاعك إنت. أخدناه لفة، وكان وش السعد علينا بصحيح، بس لازم دلوقت كل حاجة ترجع لأصحابها" قالها وهو يخلع الخاتم الفضى عن إصبعه، ومد يده وأعطاه لداود، الذي تلقاه بفرحة وشوق اللقاء بعد الفرقة.

- "فى الحقيقة، أنا مش عارف أقول لك إيه ياريس، في الواقع، أنا. أنا." فقاطعه جمال ثانية:

- "إيه مالك يا داود؟ حقيقة إيه وواقع إيه؟ ماتتكلم يا راجل"

- " مانا جاي في الكلام أهو يا ريس. أنا في الوقع كنت جاي بخصوص الشيخ حسنين البصرى ياريس"، فاكفهر وجه جمال وانتفض واقفا، فبدا كالعملاق أمامه، ثم مد يده في جيب قميصه وأخرج علبة سجائره وأشعل واحدة، ونفث بالدخان في حين زم شفتيه متأففا من ذكر ذلك الإسم الذي كان قد توقع من داود أن يأتى به إن آجلا أو عاجلا، وإن كان يمني نفسه بألا يذكره داود أبدا. ثم أردف وما زال يرقب حلقات الدخان تتصاعد نحو السقف، وكأنه يخاطب نفسه:

- " دول كلاب!."

- " معلهش يا ريس، ماهو مش كلهم برضه. والشيخ حسنين." فقاطعه جمال للمرة الثالثة:

- " كلب برضه. كلهم كلاب. ولا بيراعوا لا شرف ولا دين. أنا يعملوا فىَّ.". وصمت قليلا ثم عاد يقول: "أنا يا داود؟

بعد كل إللي عملناه علشان مصر!" واستدار ناحيته ليستشف رده عن تساؤله.

- "أنا وياك يا ريس. واسكندرية كلها وياك والله العظيم، والشيخ حسنين برضه أكيد وياك. ما هو مش ممكن يعني أنه كانت هاتوصل بيه." فقاطعه جمال لامحا ذلة لسانه على الفور:

- "بتقول إيه؟ يعنى انت لسه مش عارف لو توصل بيه ولا ماتوصلش؟ إذا كان مشترك في الموضوع ده ولا لأ؟. وكمان جايلى من غير ما تكون مالى إيدك منه؟ إنت آخر مرة كلمت الشيخ حسنين من إمتى يا داود؟"

- " والله يا ريِّس من مدة. أصل الشيخ حسنين راجل طيّ-ب. زى ما سيادتك عارف طبعا، وإنت برضه سيد العارفين، وبعدين كل ما حد بيقول له كلمتين بيقوم على طول مصدقه زى العيال الصغيرين، بس هو غلبان ياريس، غلبان والله العظيم، مخه على قده ووراه كوم لحم. وبعدين ياريس ده راجل مناضل قديم وعلى يدك. يعنى شوية البهدلة والحبس إللي شافهم دول كفاية قوى عليه، هايبقوا درس له مش راح ينساه طول عمره، وعلى ضمانتى أنا يا ريس."

ولم يشأ داود أن يقترب من جرحه الغائر الذي سببته له كلمات الشيخ حسنين، منذ عام تقريبًا، حين ردد تلك الأقوال إلى مسمعه بدون أن يفكر في مدى حقيقتها أو في وقع تأثيرها على نفس صديق عمره. بل وضحك في نفسه وقهقه، حين تفكر في أن ذلك الموقف الذي هو فيه الآن هو أكبر دليل على مصريته الصميمة! إذ أنه لا يمكن أن يوجد مواطن في أي بلد، ذو أي إنتماء آخر في الدنيا، بمقدوره أن يفعل ما يفعله هو الآن، إلا لو كان مصريا ابن مصريٍ! فها هو يتقابل مع رئيس الدولة ليرجوه أن يفرج عن شخص متهم بمحاولة قتله، نعم قتل ذلك الرئيس شخصيا، ويفرج عنه على مسئوليته هو، وكل ذلك بعد أن إتهمه هذا الشخص نفسه من قبل بالخيانة، والعِمالة، ونفى عنه إنتماءه لبلده، وقطع عنه لقمة العيش، ناهيك عن تلك العاطفة الوليدة التي نشأت في قلبه تجاه "قمر"، زوجته!. لا والله لم يكن ليفعل كل ذلك إلا مصرى أصيل!. معتوه!. مثله تمامًا!. وانتبه على صوت الرئيس يقول في حزم:

- "خلاص يا خواجة داود، بس خلليني أفكر في المسألة دي" قال جمال وهو ينوى أن يغلق الباب وراء ذلك الموضوع المثير لغضبه، ولكن داود أجابه مستدركا:

- "على راحتك ياريس، بس أنا قاعد في القاهرة لغاية ما يصدر الأمر بالإفراج عن الشيخ حسنين، ومانيش راجع إسكندرية إلا وإيدى ف إيده. مانت عارف يا ريس مش هاقدر أحط عينى ف عين مراته إللي وعدتها مارجع إلا لو رجعت معاه."

- "إنت بتلوى دراعي ياداود؟".

- " أعوذ بالله ياريس، أنا أقدر؟ والله العظيم ما قدامي أعمل غير كده". وساد صمت لبرهة ثم قال جمال:

- "خلاص يا سيدي يبقى هايطلع النهاردة. مبسوط؟".

- "كتر خيرك ياريس! كتر خيرك!". وندت عن داود نظرة امتنان دفعت بجمال أن يخطو نحوه ثم يربت على كتفه محي-يا إياه على موقفه من صديقه. موقفه من صديقه! كان الألم قد بدأ يعصر ضمير داود إزاء تلك المشاعر المتأججة التي بدأ يكنها لقمر زوجة صديقه، فتعهد لنفسه أن ي-بتر تلك الأحاسيس ويطرحها عنه وألا يعود أبدًا فيتفكر بمثل تلك الأفكار.

وهنا ندت عن جمال رغبة في أن ينهى اللقاء مما دفع بداود أن ي-بادره للمرة الأخيرة وهو يستعد للانصراف:

- "كان فيه موضوع أخير ياريس". وصمت برهة وجمال يتطلع إليه متسائلا وقد سارا متجاورين ناحية باب الغرفة.

- " خير يا خواجة داود، فيه إيه تانى؟"

- "أنا نفسى نشوفو عبد الناصر أفندي ونقعدو وياه" فضحك جمال ضحكته المتوترة، وقد زايله الخوف من أن يمتد طلب داود لأبعد من ذلك وقال:

- "طب وماله يا داود، دي بسيطة جدا، ماهو الوالد عندكو في اسكندرية، إبقى روح زوره، ده أكيد هايكون مبسوط جدًّا لما هايشوفك. أنا بس إللي مضي–ق عليه دنيته، علشان أريَّح أنا دماغي، مش عاوز كلام كده ولا كده من أي مخلوق، وانت عارف العيون علينا اليومين دول. آدى العنوان أهه".

توقف عند المكتب المزدحم بالأوراق، ثم طوى أقصوصة صغيرة دون فوقها عنوان عبد الناصر أفندي وأعطاها إياه، وخرج داود من عنده، وفي غضون ساعات قليلة كان جالسًا يعبث بالخاتم الفضى الذي أحكم وضعه حول إصبعه. ولم يجد ما يقوله للشيخ، الجالس بجانبه لايبادله كلمة ولا حتى نظرة، فانسابت به الخواطر وأحلام اليقظة تطوف

به بشتى الأماكن، إلا مكان واحد أصر ألا يتطرق إليه، وخطوة أبَى بإصرار ألا يخطو نحوها أو حتى يقترب منها ولو قليلا. وبجواره قبع الشيخ حسنين يترجرج صامتا بمجلسه في القطار العائد بهما إلى الإسكندرية.

الفصل الثامن

أخرج الشيخ حسنين بصعوبة مفتاح الشقة من جيب عباءته وبهدوء أداره وفتح الباب ودخل متعمدا ألا يصدر أصواتا قد توقظ من بالبيت. من شدة البرد والخوف الذي اجتاحه، كانت أطرافه ترتعش، ومؤخرة رأسه ورقبته تؤلمانه من كثرة ما تلفت خلفه بطول الطريق المظلم وحتى وصل إلى مدخل البيت. عاود اللقاء بالإخوان فور رجوعه من المعتقل، وكانوا قد استقبلوه كما يحق للأبطال، مما زاده حماسه إلى أن يكمل الطريق الذي كان قد بدأه. ولم يؤثر سعى الخواجة داود بل ونجاحه في الإفراج عنه على إعادة الحياة لصداقتهما التي كانت قد احتضرت فعلا وماتت منذ لقائهما عند البحر منذ أكثر من عام. كان قد انتهى لتوه من لقاء امتد لساعتين مع الشيخ فودة – الذي نجا من مهانة الإعتقال وعواقبه، لسبب قرابته من أحد الضباط الأحرار – ومع مجموعة من الرجال النشطين في الجماعة، يتباحثون سرا في مصير بقية الزملاء المحبوسين بعد المحاولة الفاشلة لإغتيال جمال عبد الناصر، العقبة التي كانت وما تزال تقف بينهم وبين كرسى الحُكم. كان الخوف لا يزال يتربص بهم، والرغبة في الإستئثار بالسلطة لا تزال تدفعهم، فتلاقوا في أحد مخازن الحاج "سيد الدمنهوري"

تاجر المانيفاتورة. تجمعوا بعد صلاة العشاء بمسجد الشبراويشي، ثم تفرقوا بعد أن اتفقوا على اللقاء هناك، فتسللوا الواحد بعد الآخر من الباب الجانبى إلى القاعة المظلمة، وعلى ضوء عيدان الكبريت شق كل منهم طريقه إلى غرفة بداخل المخزن لانافذة لها، إفترشوا أرضيتها فوق كليم سميك غطى بلاطاتها الرطبة تحت ضياء مصباح غازي علق إلى أحد الحوائط. دار الكلام بينهم واحتدت المناقشة أحيانًا ولكن إتفق الرجال بعد طول التشاور على ألا يتلاقوا من بعد الليلة ولمدة ستة أشهر وحتى تهدأ الأمور تمامًا ثم يعاودوا نشاطهم. ولكن الشيخ حسنين كان من المعارضين للفكرة إذ كان قد راق له العمل السياسى السرى، منذ أن اضطلع به مع داود من قبل قيام الثورة. إلا أنه أرغم على الموافقة في النهاية، حيث لم يشاركه المعارضة سوى الأستاذ "محمد البورى" مدرس اللغة العربية وخريج مدرسة دار العلوم، والذي كان محبذ ا مثله لفكرة استكمال الجهاد، من منطلق ديني بحت إذ آمن بأحقية الولاية الدينية في الوصول لكرسي الحكم، وحتى يسقط حكم الضباط المدني، وتستقيم أمور الحكم في أيدى جماعة الإخوان، والذي كان يعلم يقينا بأنه لم يزل يؤيد منهجها السياسي بعض الضباط من داخل السلطة الحاكمة، وحتى بعد

سقوط قائدهم اللواء محمد نجيب، الذي كان قد نما إليه أنه كان من أشد المتحمسين للحركة الإسلامية السياسية.

وهكذا كان الشيخ حسنين على مدى الأيام حين يتحمس لفكرة ما، كانت تستهويه تمامًا بل وتسيطر كلية على كل أفكاره وأفعاله، مثل ما كان قد دفعه اعجابه بالشيخ "محمد عبده" الذي سمع عن سيرته من قبل وهو في عز الشباب للإلتحاق بجامعة الأزهر، وإن لم يستطع - كعادته أيضًا - أن يتمم دراسته بها لانشغاله وقتها بتدبير أمور حياته مع زوجته الأولى "زينب شرْبات"، فتاة الليل التي كان قد تعرف عليها في أعطاف شارع كلوت بك أث-ناء إقامته بالقاهرة وصمم أن يقترن بها لينتشلها في غمار حماسته - وقتها - من أحضان الرذيلة. ثم طلقها في غضون عام - بالطبع - من بعد أن أنجبت له بكريه "محمد" الذي لا يعرف عنه اليوم شيئًا.

وبهدوء أيضًا دلف إلى حجرة النوم وكانت "قمر" نائمة وقد استدارت عند طرف السرير البعيد بمواجهة الحائط وراحت تغط في نوم عميق. بدل الشيخ حسنين ثيابه متعجلا إذ انسابت الرطوبة بداخل المنزل الحجرى القديم إلى كل شبر في جسده، مع كل قطعة ملابس كان ينضوها عنه، وبسرعة وضع

الجلباب الصوف فوقه، وفرك كفيه نافخا فيهما هامسا واسنانه تصطك ببعضها:

- "أعوذ بالله! إيه البرد ده ياخويا؟ أمشير جاي السنة دي جامد ليه كده؟ رحمتك يارب!"، ثم رفع الأغطية عند حافة السرير وانزلق تحتها متلمسا دفئ امرأته التي برزت مؤخرتها ناحيته. وفي خلال دقائق معدودات كانت أطرافه قد تسخنت فتسللت يده من تحت جلابية قمر وجذبها إليه دافعا برجولته داخلها، وأما هي فشهقت من وقع فعلته تلك التي أفاق-تها من نومها لبرهة، وفي لحظات كان قد قد أفرغ شحنة انفعاله المجتاحة، فاستدار على ظهره ونظر نحو السقف برهة علا بعدها شخيره، ومسحت قمر نفسها بملابسها الداخلية، ثم غابت ثانية في نومها العميق.

أفاقت على صوت بكاء "لطفي" إبنها، الذي كان قد بال بفراشه كعادته وقبع في سخونة فرشته اللاهبة ينتحب. رفعت الغطاء من عليها، وجلست دقيقة وهي موزعة الفكر ما بين شخير زوجها النائم بجانبها، وصراخ طفلها وما يستدعيه منها من انتزاعه من فراشه ومن ملابسه ثم غسلها لجسمه المبلل فوق حوض الحمام، مع ازدياد وتيرة نحي-به التي تتوقعها. ثم إشعال وابور الجاز وإعداد الفطور، ثم بقية أعمال البيت

من غليّ صفيحة المياه فوق الوابور حتى يتسنى لها بعد ذلك أن تقبع فوق الطشت في الحمام لتغسل ملاءات الأسِرَّة المتسخة، والغيارات الداخلية، ثم تنشرهم أمام الشرفة قبل أن تنكسر شمس الصباح خلف المنزل فلا يجف الغسيل.

تلك الأفكار العادية التي كانت تبدأ بها يومها، وكل أيامها إلى اليوم الذي خرجت فيه لتستحم في مياه البحر قبل أن تستيقظ عيون الفجر كما كانت تفعل دائما، ولكنها عند ذلك الفجر بالذات سمعت صوت العود والغناء الشجى قادما من ناحية الكبائن، وبنظرة خاطفة أبصرت ظلا لشخص قابع في الظلام، فتنبهت لتوها أولا لإمكانية أن يكون لأحد السكارى أو المجرمين وقد اختبأ هنا بعيدًا عن عيون دوريات الشرطة الليلية، ثم استمر الصوت يشدو بدفئ آسر أزال كل وجل من قلبها ربما لإحساس انتابها بنوع من الألفة أو سابق المعرفة بصاحبه. ويا للغرابة! فقد استمرت فيما كانت تعتزم أن تفعله دائمًا وحتى من قبل أن تتزوج من الشيخ حسنين، بدون أن يثير وجود طيف الرجل الغريب خوفها، أو يثنيها عن أن تستمتع بمياه البحر تغسل جسدها من عنائات الحياة، بل وبسبب وجوده قابعا هناك - وربما لإحساس خفى بأن يكون هذا الرجل هو داود عبد الملك الذي كانت قد استمعت لشدوه

بشرفة منزلهم من قبل – إستمدت شعورا بالاطمئنان إلى أنه جلس هناك ليحميها من شر المتطفلين، وملأها هذا الإحساس بمراقبته لها بنشوة لم تعهدها من قبل، فاستمتعت بحمامها في ذلك الفجر أكثر مما استمتعت أبدًا عند أي وقت مضى! نفس الشعور الذي اجتاحها ودغدغ قلبها من جراء نظراته، لما خرجت مع الخواجة داود لتبحث عن زوجها المعتقل. لاتدرى حتى الآن ما حدث لها في ذلك اليوم، وإن باتت موقنة بأن حياتها لم تعد هي نفسها من بعد ذلك اليوم، من بعد طاقة الوله والحنان التي انفتحت فرأتها في عينيه وهو يسألها عن إسمها، وتلك الحرارة المشعة من جسده وأنفاسه الحارقة وهو واقف بجانبها تحت العتبة المسقوفة والبرد وسقيع الرياح يتلاشان تحت نير وجوده بجوارها، ومافعلته بها لمسة كفه فوق شفتيها ليمنعها من الصراخ في مواجهة الباشا في ذلك اليوم. لم تشعر بموجة الأنوثة تجتاحها هكذا فتشملها من قمة رأسها وإلى طرفي قدميها، إلا مرة واحدة من قبل، منذ اليوم التالى لليلة دخلتها على الشيخ حسنين، وكان قد أفاق من غي–بة الحشيش التي اعتمرت برأسه في الليلة السابقة، فلم يميز جمالها وأنوث–تها على حقيقته إلا في ذلك الصباح، حين نظر إليها وقد لمعت عيناه كالبرق ولسان حاله أن

يلتهمها التهاما ثم مارس معها "الحب" لأول مرة وهو مفتون بها، ذلك الذي لم يتكرر معها أبدًا وحتى رأت تلك النظرة مجددًا في عيون الخواجة داود، عند ذلك اليوم!.

* * *

كان داود فرحا وهو يرتقى سلالم الدرج المؤدى إلى شقة "عبد الناصر أفندي" بالطابق الثاني وقد احتضن عوده في يدٍ، بالإضافة إلى لفة الكفتة المشوية المعلقة بين أصابعه بالشريط المربوطة ب–ه، وفي اليد الأخرى حمل زجاجتي البيرة ال– "ستلا" المثلجة القابعة في الكيس الورقى، التي اشتاق فعلا لأن يتجرعهما بصحبة صديقه القديم، وبصعوبة ضغط جرس الباب، ممنيا نفسه بأمسية ربيعية بهيجة يستعيدا خلالها ذكرياتهما معا. واستقبله عبد الناصر أفندي ببهجة ولهفة وحمل عنه بعض اللفافات ووضعها على منضدة الطعام التي توسطت بهو الإستقبال، وبحضن رائق إلتقطته ذراعاه، وبقبلتين على كل خد تلاقى الصديقان القديمان. فوجئ داود بمظاهر الشيخوخة التي كانت قد اعتلت ملامحه فأدرك كم السنين التي كانت لا بد قد مرت منذ أن رآه عند آخر لقاء بينهما، وأيقن في ذات الوقت حتمية التغيير الذي لا بد أنه كان قد أل–م به أيضًا، وإن كان قد تصبر بكون عبد الناصر

أفندي يكبره بأكثر من عشرة أعوام. وبين قضمات الكفتة ورشفات البيرة، وإن تمنع عنها بكل أدب عبد الناصر أفندي حرصا منه على ألا يجرح مشاعره، وكلمات الأحبة تستحضر الأيام والليالى والذكريات التي كانت قد جمعت فيما بينهما، غنى داود للست:

جددت حبك ليه بعد الفؤاد مارتاح

حرام عليك خليه غافل عن إللي راح

ده الهجر وانت قريب مني كان ليه أمل في وصالك يوم

لكن بعادك ده عن–ي خللا الفؤاد منك محروم

قال له عبد الناصر أفندي ليلتها أن ابنه جمال كان قد اتصل به تليفونيا قبل أيام وحكى عن زيارة داود له، وعلق يومها قائلا أنه كان يكن له الكثير من الود والاحترام، وتأثر داود جدًّا عند سماعه هذه الكلمات عن شعور رئيس الجمهورية تجاهه وشعر بالفخر.

* * *

عند منتصف اليوم، وبينما كانت مشغولة كعادتها بمباشرة شئون البيت، فوجئت "قمر" بشخص يطرق بابهم،

فهرعت لتوقظ زوجها الذي كان ما يزال يغط في نومه، بينما جرى الطفل لطفي كعادته ليفتح الباب، ثم يقف أمامه ينظر إلى الطارق بدون أن ينبس بكلمة، إذ كان متأخرا في الكلام عن باقى أقرانه. هب الشيخ وهو يفرك عينيه متثائبا وينادى للطفي من غرفة النوم:

– "مين ياوله يالطفي؟" وهو يعلم جيدا بأن لطفي لايتكلم، ولكنها وسيلة كان يمارسها الشيح حسنين ليبتاع بواسطتها دقائقا تتيح له أن يغيِّر ملابس النوم، بالجلابية والعمة التي لا يواجه أي غريب إلا بهما، بينما توارت قمر بغرفة النوم حسب التعليمات الجديدة وحتى يتفحص زوجها شخص الطارق، فيتبين من كونه "محللا " له أن ينظر– نعم مجرد أن ينظر– إلى زوجته أم لا. وكانت قمر قد بدأت تضيق من تلك القيود الجديدة التي أضافت لصعوبة الحياة صعوبة، ولجفاف أيامها جفاف. لضيق ذات اليد من ناحية، ولذلك الحبس الإنفرادى الذي حُكم به عليها بدون أن ترتكب من ناحيتها أي ذنب لتستحقه، فلم يسمح لها بمغادرة المنزل إلا للضرورة القصوى. ولمعاشرتها لرجل يكبرها بنحو ثلاثين عامًا من ناح–ية أخرى، فضلا عن كون هؤلاء المحرمين عليها رؤيتهم، من أهل حيِّها أو من جيرانها أو عم سعيد البواب، من

الرجال الذين كانت قد اعتادت رؤيتهم لها بطول سنين زواجها، وحتى قبل ذلك بحكم الج–يرة، وبدون أن يبدر منهم – أو منها – ما يثير ظنون الشيخ نحوهم أو نحوها.

ومن وراء الباب سمعت قمر صوت الشيخ يدعو الغريب للدخول إلى غرفة الجلوس وقد بدت من نبرات صوته التلعثم وكأنه فوجئ أو جزع لم–جيئه، أو كأنه شخص غير مرغوب في قدومه للبيت. أثار ذلك فضولها فواربت الباب قليلا لتحاول أن تتعرف على شخصية ذلك الضيف من قبل أن يتوارى مع زوجها خلف باب الغرفة الموصد خلفهما. كان رجلا غريبا لم تشاهده من قبل، في منتصف الأربعين، طويل القامة بشكل ملحوظ عريض الكتفين وإن كان يميل للنحافة، أسمر البشرة تلوح على وجهه إمارات الجدة بل والكآبة، إزدادت بفعل النظارة الطبية السميكة بإطارها الأسود واللحية الداكنة التي كانت تزيد بشرته اسمرارا. وكان يرتدى بدلة رمادية متهالكة وحذاء جلدى متسخ بتراب الطريق، ترك وراءه ومع كل خطوة يخطوها علامة قذرة على البلاط اللامع الذي كانت تعتنى بنظافته وتتباهى أمام جاراتها ببريقه، فكان لذلك ولحبستها الجبرية خلف باب غرفتها سببًا لإشمئزازها منه ومن زيارته للشيخ حسنين – زوجها – في وسط النهار هكذا. ووجدت

قمر نفسها تقارن بين ذلك الغريب وكآبته، وبين الخواجة داود وإناقته ومشيته المعتدة التي تعودتها حين كان يزورهم، وتلك الرائحة العطرة التي تفوح منه عند مروره بالردهة الموصلة ما بين باب الشقة وحجرة الجلوس والتى تبقى بالمنزل ولا تبرحه حتى بعد أن يغادره مع الشيخ كما كانت عادتهما، فسرحت هي مع أفكارها وقد غلبها الفضول عن سبب غياب داود عن منزلهم كل تلك الفترة ومنذ أن رجع الشيخ حسنين من المعتقل، وإن لم تجرؤ على مبادرة زوجها بتساؤلاتها تلك تجنبا لاستثارته تجاهها، أو تجاهه.

أغلقت الباب واستدارت نحو السرير وسحبت الغطاء ونفض-ته، ثم أعادته مفروشا ممدودا فوق الملاءة وهي تتغنى:

هاقابله بكره

وبعد بكره

وبعد بعده

هاقابله هاقابله هاقابله بكره

* * *

وخلف الباب الموصد بكل إحكام، كانت الكلمات تروح وتجئ هامسة بين الرجلين، الأستاذ محمد البورى والشيخ حسنين، همس ولكنه كالصراخ، نار تتأجج بها أحاديثما. أن ينبغى أن تعود وترفرف راية الإسلام عالية، وحكم الله أولى من حكم الناس أيا كانوا هؤلاء الناس، فالإخوان هم من أنجَح الثورة أولا وآخرا، وهم لن يقفوا مكتوفى الأيدى، ولن يكفوا عن السعى لإسترداد حقهم المغتصب من حفنة الضباط تلك، الذين خانوا العهد بمجرد أن تحسست مؤخراتهم كراسى السُلطة!. كلمات حادة ومقتضبة وكأنها حفنة من مسامير يقبضان بها ويتبادلاها من كف إلى كف، ويتلذذان بآلام قبضاتهما إياها، ويهون الألم في سبيل الهدف الأسمى.

* * *

تبدو الإسكندرية هذه الأيام كأجمل ما تكون في عينيه، وقد تزينت بشعرها الذهبى الممتد من حبات الرمال المتناثرة على الشاطئ وإلى عنان السماء تتجمع خصلاته وتتعانق حتى تصير قرصا ذهبيا يملأ الدنيا بنوره. آه! ما أجمل الحياة!.

وتوطدت علاقة داود بدولة "بنيوتي باشا" من بعد عودته من زيارة القاهرة، حيث كان قد ذهب خصيصا إلى قصره ليشكره على مساعدته إياه في مهمته في البحث عن الشيخ

حسنين في أحد الأيام التالية لرجوعه، فما كان من الباشا إلا أن استقبله إستقبال الفاتحين، لما تنامى إليه خبر زيارته لجمال عبد الناصر بكل تفاصيلها، من أول فنجان القهوة ذو البن المخصوص وحتى عودته مظفرا عند آخر النهار بصديقه "الإخوانجى"، سمعها بنفسه من صديق مقرب لمجلس قيادة الثورة.

وقد استغرب داود طريقة تعامل الباشا معه إلى أن سأله عن مدى صلابة علاقته بجمال عبد الناصر، بل وإفصاحه – مباشرة وبدون التواء – عن رغبته في شراكته في أعماله التجارية والصناعية المهولة! ليكون واجهة قوية له ودرءا يحمى ثروته الطائلة من بطش رجالات الثورة، الذين كانوا قد بدأوا في مصادرة أموال الأغنياء وخصوصًا اليهود منهم، مما أدى إلى هرب البعض منهم إلى خارج البلاد. وفعلا في غضون شهور قلائل، ذات صباح وبينما هو جالسًا في البلكونة محتضنا لآلة العود يدندن لحنا للشيخ "ذكريا أحمد" ويحتسى كوب شاى الصباح، فوجئ داود ببنيوتي باشا يبعث إليه بسكرتيره الشخصى وبسيارته البلاكار السوداء التي سدت الطريق أسفل العمارة المتواضعة بمحرم بك، وقد أطل هو من فوق السور ليتطلع باحثًا في فضول عن مصدر الجلبة التي

ملأت الشارع. وفي خلال لحظات كان السائق يطرق باب شقتهم ليطلب منه أن يصطحبه لمقابلة الباشا في مكتبه الخاص بمحطة الرمل.

* * *

تتشابه الأيام المارقة بسرعة الجنون بحياتها.

تجلس إيلين أمام صينية الكوسة تقشر ثمارها في وسط الصالة التي تتوسطها مائدة السفرة المستديرة وقد التفت من حولها الكراسى الخاوية من كل ناحية. لقد اندفع داود خارجا في عجلة من أمره بصحبة ذلك الرجل الغريب الذي ارتدى زيا هو مزيج ما بين ضابط البوليس وعامل المصعد بمحلات شيكوريل، بينما لم تفهم هي لماذا، وفي الحقيقة لم تعد تكترث على الإطلاق، ومنذ فترة لا تدرى حتى طولها، لم تعد تأبه لدخوله أو خروجه، لا هو ولا غيره، بل ولا "ليلى" بنت المرحومة بدور، ولا حتى "سليمان" و"منى" - أبنائها هي - فتركتهم يروحون ويجيئون كما يحلو لهم، بل وصارت تطلب منهم أن يدَعوا باب الشقة مفتوحا، حتى لا تتكلف مشقة أن تترك ما هي كانت مشغولة به، لتفتحه لهم عند رجوعهم مما كانوا منصرفين في شأنه، أيّا كان هذا الشأن. لم تكن تشك في براءة تصرفاتهم - لاسمح الله - فقد كانوا أطفالا على أي

حال، لا يمكن أن تتخيل أن تشوب أفعالهم ما يمكن أن يصل إلى حد غير مقبول عندها أو عند جيرانهم من أهل الحى. ولكنها مع ذلك كانت مصابة بداء اللامبالاة التي ارتطمت بسطوته العاتية منذ أن رحل عنهم صغيرها "مكارى". تبلدت مشاعرها من بعدها تجاه الجميع - بل وحتى حيال نفسها - فلم تعد تجد حولها ما يسعدها، أو حتى يقترب ولو قليلا من ذلك الجدار الرمادى الذي أحاطت به حياتها، فاستسلمت لواقع تمضى أيامها بداخله متشابهة، تتأرجح خلاله مش-اعرها بين الحزن واللاحزن، ولكن على أي حال لم تجرؤ بشائر الفرح من أن تقترب منها ولو قليلا. إنطفأت جذوة الفرح في أعماق روحها، وجعلت الطعام الاستثناء الوحيد، ففيه وجدت لذتها وإن لم تطل محاولاتها الدؤوبة في الاستزادة منه على أي حال شبع نفسها. ولكنها عكفت على معاقرته بتصميم متفننة في صنوفه وأشكاله بكل مقدرتها - المهارية والمادية على السواء - لعلها تشبع أو تتلذ دون جدوى، وكأن ثمة فراغ بداخلها تحاول أن تملؤه بحشر كل صنوف الأطعمة به دون طائل. وكما هو متوقع طبعا، فقد انعكس ذلك النهم المستعر على قوامها فكانت طبقات الدهن تتكالب فوق جسدها تباعا، فصارت سيدة سمينة لأول مرة في حياتها في غضون عام أو

أكثر قليلا، وإن لم تبلغ بالطبع شبعها المنشود، ولا استعادت ولو جزء ضئيل من روحها المرحة التي كانت دومًا ما تشع بها. ومع ذلك فقد كانت الطبيعة قد حبتها بملاحة عوضت سمنتها هذه، بل وأضفت إليها جمالا جديدا بمقاييس عصرها، فصارت إيلين هانم!.

* * *

الفصل التاسع

انتابت داود حالة التأمل التي كانت تشمله في مثل تلك اللحظات المصيرية، وهو جالس بالمقعد الخلفى للسيارة الفخيمة خلف السائق الذي كان قاد سارع ليفتح له بابها الخلفى، ببدلته السموكن السوداء بأزرارها الذهبية وقبعته ذات الحافة الجلدية اللامعة، مع أول إطلالة له عند بوابة المسكن، وسط ذهول الجيران وأصحاب المحال المحيطة. كانت تلك أول بلاكار– لا بل أول سيارة ملاكي – تطأ عجلاتها شارعهم، فالتفت النسوة العائدات من التسوق من حولها بل وكادت إحداهن أن تطلق زغرودة كتمها الخجل عند طرف لسانها، وتوقفت حركة البيع والشراء، وكف الفتية عن ركل الكرة فيما بينهم، وتسمرت الفتيات فوق مربعات (الحَجلة) المرسومة بالطباشير على وجه الأسفلت، وتبادل هو وإياهم نظرات خجلة، وشاركهم الحيرة فيما يحدث له ولهم، بل وكاد يصيح معتذرا لهم عن ذلك الحدث الجلى الذي ألم بحيِّهم وأعطب دوران عجلة يومهم. جلس وكعادته أخذ يعبث بالخاتم الفضى حول أصبعه، وهو ينظر جحافل البشر من حوله عبر زجاج النافذة المصقول بينما اخترقت السيارة شارع فؤاد إلى طريق الكورنيش. لم يتغير شيء من حوله، قبل الثورة أو بعدها، لم

تزل الجموع الغفيرة تهرع إلى الإسكندرية لتمضى أشهر الصيف هاربة من قيظ القاهرة ورطوبة جوها، بنفس الفرحة المنطلقة، ونفس التطلع للحياة الذي عهده دومًا في وجوه المصطافين، ونفس الأقدام الحافية تتبختر فوق الرصيف المطل على شاطئ البحر، ونفس النظرات اللاهية نحو الأفق الممتد في حين ينفلت طفل من قبضة أمه ثم يعدو بجنون غير مبال نحو طابور السيارات المتدافع فوق طريق الكورنيش، ولا يقطع استرسال تلك الأحداث الرتيبة المتوالية إلا صفير مطاط عجلات السيارة فوق الأسفلت لتقف فجأة وفي آخر لحظة من قبل ما أن ترتطم برأس ذلك الطفل المارق، وتهلل أصوات جميع ذوي الأقدام العارية "الحمدلله. الحمد لله."

ثم تأمل داود إنعكاس صورة وجهه هو على زجاج نافذة السيارة، بينما تحولت صور الناس من وراء صورته إلى خيالات تمرق سريعة، فأعادته اللحظة ليتساءل إلى أين تقوده تلك الرحلة. ووجد نفسه يسرح في "قمر"، بوجهها المليح النضر وعينيها الخضراوين وشعرها الذهبى، ويخالها تشاركه ذلك المقعد الوثير بتلك السيارة الفارهة، وقد احتضن يدها المنمنة بين كفيه، وهو يطوف بها شوارع الإسكندرية المزدحمة بالمارة، بينما تجلس هي بجانبه، راضية مبتسمة فخورة بتميزها

عن باقى الجموع المترجلة، المتناثرين على الجانب الآخر من زجاج السيارة. وتحرّج داود لمّا فوجئ بأنه كان مستمتعا بتلك الأفكار، حتى أنه لم يلق بها عنه كما كان قد اعتاد كلما راودته في السابق، إلا أنه أعزى ذلك إلى جفاء الشيخ حسنين المستمر له حتى بعد أن سعى إلى خروجه من المعتقل، فعد ذلك – عن استحياء – أقل ما كان يمكن أن يفعله انتقاما لما فعله به الشيخ حسنين!.

دخل داود إلى حجرة "بنيوتي باشا" في الدور الرابع بالعمارة المواجهة لبحر الإسكندرية الغامق الزرقة، وكان الباشا جالسًا بمقعده الجلدى النبيذى الوثير بجسده الضخم وشعره اللامع، خلف مكتبه الأبانوسى الفاره الطول والعرض، وقد إزداد احمرار وجهه المكتنز من تأثير الخمر، وإتخذ رجل تبدو عليه مظاهر الرقى والأناقة المقعد المواجه للمكتب، وموسيقى غربية راقصة خافتة تهمس، وكان الرجلان يدخنان سيجارا كوبيا تعرف هو على رائحته الفواحة، بينما يتبادلان الضحكات – في وقار – حين دخل داود إلى الحجرة، فتلاعبت الرياح القادمة من الفراندة الملحقة بالغرفة بدخان السيجار، لمّا أدار مقبض الباب النحاسى اللامع البريق، فأضفت تراقصات أمواج الدخان أمام عينيه نوعا من السيريالية، وكأنه يتقدم تباعا، مقتربا من

شاشة العرض بسينما "الهمبرا" بشارع صفية زغلول أثناء عرض فيلم "كازابلانكا" - الذي كان قد رآه بها لأكثر من عشرة مرات، بثلاثة قروش للتذكرة كان يحضر الفيلم لثلاث أو أربع مرات متتالية - وما يزال يقترب ويقترب منهما، إلى أن تعثر بطرف السجادة المطروحة على أرضية الغرفة الباركيه، فانثنى جزعه للأمام قليلا وأوشك على السقوط، فوجد نفسه فجأة وقد أصبح فعلا داخل المشهد، ولكنه لحق بنفسه معتدلا قبل أن يقع على وجهه!. دلف داود أولا متلعثما منكمشا على غير العادة، ولم يفهم سبب الغصة التي اعترته بالرغم من الروح المرحة التي كانت تلف بالمكان، ثم تبعه السكرتير الشخصي حاملا حقيبة جلدية أنيقة مليئة بالأوراق، فتحها ووضعها في مواجهة الرجل الغريب، ثم أشار لداود بإنحنائة صغيرة وبأدب جم وبدون أن ينبس، بأن يأخذ المقعد المجاور في مواجهة كرسى الباشا.

- " تشرب إيه يا داود؟ ولا تحب تاخد كونياك معانا؟"

بدأ الباشا الجلسة بتلك المقدمة المتوقعة، فأومأ داود وهمّ بأن ينهض نصف نهضة وقد ث-نى بجزعه للأمام نصف ث-نية، وهو يربت بكفه الأيمن فوق صدره ممتنا، ليعلن للحاضرَين فورًا وفي صمت عن ضعة حاله وضآلته، طبعا في مواجهة كرم

الباشا الغامر الذي بدا وكأنه قد عقد لسانه. ولكن لم يعجب الباشا تصرف داود المنكسر هكذا أمام صديقه، وخاصة لما كان قد عرفه عنه من عزة نفس وقوة وبأس تليق بما كان مزمعا أن يتحدث به إليه لاحق–ا، مما دفعه لأن يقول:

– "إيه يا داود مالك؟ إنت بعافية ولا إيه؟"

– "أبدا يا دولة الباشا. مافيش!" أجاب داود مقتضبا وقد طاف بنظراته متفحصا أرجاء الغرفة الفخيمة بحوائطها العالية ولوحاتها الفنية المذهبة الأطر تطل من عليتها إليه، ووجد نفسه يتساءل عما جاء به إلى هذا المكان. إعتدل الباشا في مجلسه مقررا أن يبدأحديث العمل على الفور مدركا الطريق الذي قرر داود أن يطرقه فقال:

– "طيب مادام كده بقى، أنا أحب أقدمك للأستاذ (سينوت قرياقوس) المحامى المشهور ومدير أعمالى هنا في مصر" ثم التفت الباشا ناحية الرجل الآخر وأسهب قائلا:

– "الأستاذ داود يا سينوت، الراجل إللي شايفه سعادتك بيدّعى التواضع ده، وهو بقى ياسيدى نفس الراجل المهول إللي خلص موضوع الولد الإخوانجى إللي كنت حكيت لك عنه، في رحلة صغيرة للراجل الكبير، أنهى خلالها سعادته كل

المسائل ورجع وفي إيده صاحبه وكأن شيئًا لم يكن، آه والله زى ما باقول لك كده" قال قوله هذا وكان الأستاذ سينوت يوزع نظراته ما بين الباشا محدثه، وبين داود، في لفتات متتابعة وهو يهز رأسه إعجابا بقدرة داود.

- " أهلا وسهلا بحضرة الأستاذ" قالها على استحياء ثم مد "سينوت قرياقوس" يده لتحية داود، في حين انتفض ذلك المحامى المرموق واقفًا إكبارا له بعد ما أدرك مقدار نفوذه الممتد لرأس البلد، ثم قال بنبرة توحي بالعظمة:

- "أهلا بيك يا أستاذ داود، تشرفنا"

ورنت كلمات "أستاذ" و"سعادته" و"الرجل المهول" في رأس داود تتخبط من ناحية إلى الناحية الأخرى، ومن أعلى لأسفل، رنات متتابعة، متلاحقة ومتضخمة بفعل الصدى الذي خلفه ترددها بداخله، فانتفخ رأسه وكبر حتى كاد أن يملأ الغرفة. فلمّا لم يستطع بدوره أن يحمله منتصبا في مجلسه، غاص في كرسيه نائيا عنه بحمله الثقيل، ثم عقد ذراعيه فوق صدره، وتشابكت أصابع يديه أمامه، في انتظار أن تعبره تلك العاصفة من الكِ-بَر التي اجتاحت كيانه، وحتى يستطيع بعدها أن يتفوه بكلام مفهوم أمام الرجلين المرموقين الجالسين قباله. وما أن جاءه الفرّاش بكأس الكونياك، حتى تجرعه بسرعة،

فسرى مفعوله بأطرافه منسابا كالماء يخترق جفاف الأرض العطشى، فانتعش!.

- "شوف يا داود، أنا هادخل في الموضوع على طول، لأنى أولا راجل أعمال بتاع شغل وعارف قيمة الوقت إزاى، ولأنى يا داود أولا وأخيرا راجل (يهودي). أيوَه، يهودي وفاهم وعارف كمان معنى الكلمة دى كويس قوى، وأقدر أعتمد على أخويا (اليهودي) وأنا متأكد من وقفته جنبي." وكان قد ضغط بقوة على كلمة (يهودي) هذه مرتين ثم رفع كأسه إلى شفتيه يرشف منها وهو يدير عينيه ما بين داود وسينوت، ثم أومأ للفرّاش بأصبعه أن يملأ كأس داود من جديد، ثم أضاف:

- "أنا قررت أستدعى الأستاذ سينوت النهاردة، علشان عاوز أنقل ملكية مصنع الحديد في الدخيلة لإسمك يا داود". ثم صمت وهو يتابع ردة فعل كلماته على وجهي الرجلين. إعتدل الأستاذ سينوت في كرسيه وهو يضم طرف سترته إليه ثم مسح يده فوق رباط عنقه الحريرى منتظرا تعقيب داود.

- "طيب ممكن أعرف ليه يا دولة الباشا؟" سأل داود وقد عاوده الارتباك والتلعثم من جديد.

– "إنت مش عايش في البلد ولا إيه ياداود؟ ماهو أنا لو ماكتبتش المصنع ده بإسمك النهاردة، هايلهفوه أصحابك في مصر بكره ولا بعده، وإنت برضه مننا وعلينا، وحتى لو سرقتني. حتى لو عملتها يا داود ياخويا، فالفلوس والشغل برضه لسه بتاعنا إحنا، وهيفضل بيننا وبين إيدين ولادنا من بعدنا. ولا إيه يا سينوت؟"

لم يرد الأستاذ سينوت طبعا، فهو مدرك تمامًا أن معالي الباشا لم يطلب مجيئه ليأخذ رأيه أو يستشيره في الأمر، فحضوره كان لتنفيذ القرار الذي كان الباشا مزمعا اتخاذه، أيا كان ذلك القرار. أملت عليه خبرته الطويلة في التعامل مع بنيوتي باشا أن يصمت تمامًا حتى لو طلب منه الكلام، بل وأحيانًا – وبالذات – عندما يطلب منه الإدلاء برأيه. ولكن ذلك لم يمنعه من التساؤل – بينه وبين نفسه – لو كان ذلك التصرف هو الأفضل من جهة الباشا حيال مصنع يساوى أكثر من مائة ألف جنيها مصريا، أي حوالى ربع مليون دولار أمريكي وأكثر!. رسم ابتسامة عملية فوق وجهه وتشاغل سينوت عن الإجابة بإخراج الأوراق والمستندات المطلوبة من داخل الحقيبة الجلدية الموضوعة على المنضدة أمامه، أما داود فلم يطق أن ينتظر أكثر فقال:

- "لكن يا سعادة الباشا أنا ما بافهمش أي حاجة في المصانع ولا في الحديد، أنا راجل فنان أعزف موسيقى واغنى، وصوتى جميل مافيش كده، بس الحديد، والصناعة، أكذب عليك؟ ماعرفش!."

- "إسمع يا داود لكلامى ده كويس، أنا عايز أنقل ملكية المصنع ده ليك في أقرب وقت، علشان أنقذه من الضياع، مش علشان أضيعه!. في إيدين الأوباش دول هايروح! فاهم؟. المصنع شغال عال العال وفيه إللي بيديره ويمشيه زى الساعة مئات ومئات، كل الحكايه إنه لو فضل بإسمى أو بإسم حد من ولادي هايروح، لكن معاك ممكن يبقى. فاهم؟"

سرى مفعول الكأس الثانية بجسم وعقل داود فاسترخى في مقعده، واعتلت وجهه ابتسامة لا تحمل في طياتها فرحة أو بهجة، فقط استسلام وقناعة بأن الأمر لم يعد بيده، فالقرار كان قد سبق واتخذه الباشا حتى من قبل مجيئه، فأذعن هو للأمر الواقع وابتسم ممتنا للقدر وهو يعطيه المال والجاه والشهرة، بدون حساب، وبدون أن يسعى هو لذلك الجاه أو المال يوما. وأخذ يعبث بالخاتم الفضى المحيط بخنصره، بين لحظات إنحناءاته على المنضدة أمامه يوقع بإمضائه حيث

يشير إليه الأستاذ سينوت، وتلك الابتسامة لم تزل قابعة فوق شفتيه تأبى أن تفارقه.

* * *

كان داود جالسًا في البلكونة يحتسى كوب الشاى مع السيجارة بعد أن أفاق من قيلولته منذ قليل حين طرق باب الشقة. لم يكن قد أفاق بعد من صدمة ما حدث له في غضون الأسابيع الأخيرة، بل وكان يتساءل عن معنى كل ذلك، دون أن يجد إجابة شافية. لقد تحول فجأة وبدون أي أسباب منطقية من مجرد عوّاد ومطرب، حتى وإن كان ملك ملوك الطرب، إلى ملك حقيقي يمتلك المال والسطوة معا. وبين أفكاره تكررت الطرقات المُلِحَّة على الباب فعاد إلى الواقع على وقعها. من ياترى؟ وإيلين والأولاد ليسوا هنا.

* * *

لم يكن قد مضى أسبوع على انتقال ملكية المصنع إليه حتى فوجئ داود بسكرتير "بنيوتي باشا" يأتيه مسرعًا ليخبره بأن معالى الباشا كان يطلبه على وجه السرعة إذ كان قد اعتزم السفر إلى خارج البلاد. وفي القصر قابله الباشا متعجلا وكان الخدم وأهل البيت يهرولون جميعًا صاعدين وهابطين

السلالم الرخامية في حركة دؤوبة وكأنهم في سباق مع الزمن. قال له معالي الباشا:

- "خلاص يا داود. أصحابك اشتروا السلاح من عند الشيوعيين، وإسرائيل والغرب طبعا مش راح يسكتوا. خلاص أيامنا هنا خلصت، ما عادتش مسألة غني وفقير، كل حاجة خلاص اتغيرت، كل شيء راح يا داود، واحنا لازم نمشى من هنا بأسرع وقت".

وعرض الباشا في عجلة على داود أن يشترى منه القصر بما فيه في الحال بمبلغ عشرة آلاف جنيه عدا ونقدا، وان كان عليه لو وافق أن يأتيه بالمبلغ المطلوب على الفور من خزينة مصنعه الجديد في خلال ساعة واحدة حيث كان سيبحر على متن سفينة مغادرة لميناء الإسكندرية في غضون ساعات قلائل. وفعلا طار داود بسيارة الباشا للدخيلة، وقابل رئيس الحسابات بالمصنع وطلب المبلغ، إلا أن رئيس الحسابات الذي استقبله بكل حفاوة، إعتذر بأنه كان قد سبق وأودع الإيرادات للبنك، ولم يكن بالخزينة سوى ثلاثة آلاف جنيها، كان قد أبقاها لمرتبات العمال في اليوم التالي، أعطاه إياها على أن يحضر مثلها بالإضافة لباقى المبلغ ويرسله إليه في الغد عندما يفتح البنك أبوابه من جديد. ولمّا عاد داود إلى

القصر وأعاد كلمات الرجل للباشا، فوجئ بأنه أخذ المبلغ ووقع المبايعة لداود فأصبح "داود عبد الملك" المالك الجديد للقصر الفخيم، وكانت آخر كلمات الباشا له:

- "خللى بالك من المصنع يا داود، أنا هابقى أتصل بيك لمّا أستقر". وفي اليوم التالى انتقلت إيلين والأولاد للقصر، بينما بقى داود بشقة محرم بك لحين إتمام الإستعدادات للإنتقال بصفة نهائية.

* * *

عند باب القصر الخشبى السميك المصنوع خصيصا من أشجار غابات بولونيا لدولة الباشا، وقف خدم البيت مصطفين لاستقبال إيلين وأولادها. وقفز الطفل "سليمان" من باب السيارة إلى الممر المتمايل بين خمائل الجاردينيا وشجيرات الياسمين الفواحة، ثم طائرا فوق درجات السلم الرخامية مارقا ما بين أجسادهم إلى داخل القصر، حيث استمر في ارتقاء الدرج تلو الآخر حتى فتح الباب الأخير فوجد نفسه فوق السطح المطل على البحر المترامى أمامه إلى ما لا نهاية، فارتكز بكوعيه فوق السور وداعبته نسمة هواء تطايرت معها خصلات شعره الناعم فوق رأسه الصغير المستكين بتلذذ، من جمال المنظر ورائحة البحر، فوق يديه المتشابكتين تحت ذقنه.

* * *

عاد الطارق ليطرق الباب من جديد، فقام داود من كرسيه بالبلكونة وأغلق ضلفتيها ليكسر أشعة الشمس الحارقة، وهمَّ ليفتح الباب.

قمر!.

نعم هي واقفة أمامه بشحمها ولحمها، وهو شاخص إليها بذهول، ببنطلون البيچاما والفانلة الداخلية، حافي القدمين، وباقي كوب الشاى ما يزال في يده. تفحصها بنظراته وهو غير مصدق بأنها فعلا هنا، أمامه. شعرها الذهبى متطاير فوق جبهتها بدون اعتناء، وعينيها، آه من عينيها الخضراويتين المغلفتين بسحابة الحزن هذه، والشفتان المكتنزتان كحبات الكريز، والخدان. يا الله!

ولكن ماهذا؟

مزيج من أحمر وأزرق يتلاقيا فوق بشرتها الوردية، كدمات، تؤلمه عيناه لمجرد النظر إليها، فانعقد حاجباه وتقلصت عضلات وجهه ولكنه لم يزل لا ينطق بما يجيش في صدره، يحزن قلبه وينعصر ولكنه لايبكي ولايحتج.

- "هاتسيبني واقفة عالباب كده ياسي داود؟" قالت قمر بعد أن طالت وقفتها أمام باب الشقة وسحابة من الحزن تلفها.

- "إيلين والولاد مش هنا يا قمر!".

- "ما أنا جايه لك إنت يا سى داود".

- "أنا برضه قلبى كان حاسس!".

قالها وهو ينسحب من أمام الباب ليتيح لقمر أن تدخل، وقد خفض عينيه نحو الأرض، يتتبع خطا قدميها، وعقباها تعتصر دمويتهما مع كل خطوة تخطوها، قبال كعبي حذائها المكشوفة مؤخرته. وتوقفت قمر في منتصف الصالة، ثم استدارت نحوه لا تعرف ما إذا كان سيسمح لها بالجلوس.

أما هو فشعر أنه كان يريد أن يأخذها بين أحضانه فتبكي على كتفه وهي تشكي إليه كم فعل بها الزمن. ولكنه آثر أن يكتفي بإشارته لها بأن تجلس. ودخل إلى غرفة النوم ووضع چاكيت البيچاما ثم عاد، وكانت قمر قد أخفت وجهها في راحتيها وصارت تنتحب.

- "مالك بس يا قمر؟"

- "ضربني يا سي داود. كسَّرني من الضرب علشان خايفه عليه وعلى إبنه". ثم غابت ثانية وسط دموعها.

- "إهدي بس علشان خاطري وقولي لي إيه إللي حصل". لكنها استمرت في بكائها فأضاف مستعطفا:

"بس وحياتي!. كفاية!".

رفعت قمر وجهها نحوه وقد جلس قبالتها وهي غير مصدقة ما سمعته أذنيها لتوها. كل تلك الرقة تصدر من ذلك الرجل الذي كان مع ذلك يتمتع بالسطوة والمقدرة التي أعادت لها زوجها من قبل، وفي غضون ساعات قلائل. وكفكفت دمعها ثم صرخت منفعلة:

- "فيها إيه يعني لما واحدة تخاف على بيتها. كل يوم والتاني يطب علينا إللي إسمه محمد البوري ده، ويقعد وياه يتودودوا ورا الباب المقفول بالساعات وانا سامعاهم بوداني بيتكلموا عن الريِّس عاوزين يموتوه!. ولمّا شكيت له قام ضاربني. يعني عايزني أستني لمّا ييجوا ويقبضوا عليه من تاني؟. " واستدركت وقد علت نبرات صوتها أكثر:

- "أنا قلت له الكلمتين دول يا سي داود، وهو نزل عليّ بالاقلام والشلاليت وقال إيه راح جايب خرزانة وقال لازم

يأدبني. ليه ياخويا؟، وهو أنا قليلة الأدب؟ " وراحت تنتحب من جديد. ثم كفت فجأة ورفعت رأسها قائلة بنبرة مهزومة:

"أخدت الولة لطفي للست أم إحسان، وجيت لك علي طول. لا بد تشوف لي صرفة يا سي داود، أنا بنت ناس ومش وش البهدلة دي".

ثم عادت تبكي من جديد.

– "خلاص بقى ياقمر كفايه بُكا. هوده كلام برضه؟، فيه حد يرضى يعامل واحدة ست بالطريقة دي؟." وقبض يديه بعضهما ببعض، ثم قال محتدا:

– "أنا مش باقول هانضربه بس علشان ضربك، لأ مش كفايه!. بس لو عايزه نموتهولك هانموته لجل دموعك الغالية!".

ثم أشاح بوجهه بعيدًا عنها تجنبا لمواجهتها.

قالها بجدة أخافتها، فتطلعت إلى عينيه، تستطلع خلالهما مدى جديته في الإضطلاع بما قاله. وجفت دموعها فجأة حينما بدأت تتفكر في تلك الكلمات. نعم هي تفضل ولألف مرة أن يموت حسنين البصري ويختفي من حياتها، وأن يحل مكانه داود عبد الملك فتستعيض بقوته ونفوذه، مع رقة شعوره

وعواطفه الجياشة، من بطش الشيخ حسنين بها، وحتى وإن شاركتها فيه الست إيلين. قامت قمر من مكانها وقد حسمت أمرها في أن تمضي في الطريق حتى النهاية، فدارت حول المنضدة التي كانت تفصل بينهما حتى واجهته، ثم مدت يدها إلى كفه ورفعته نحو شفتيها ولثمت ظهر يده إكبارا، ثم باطن يده هياما، فسرى شعور دافء إلى قلبه، وقشعريرة اجتاحته كله. مد هو بدوره يده الأخرى وطاف بها حول خصرها، حتى احتواها وضمها بقوة إليه، ثم رفع كفه عن شفتيها وبرقة رفع ذقنها قليلا ثم التقطت شفتاه إياها، وأغمض عينيه خج-لا، وذاق أجمل رحيق عرفه، وذاقت هي طعم أول قبلة حقيقية فذابت بين زراعيه، وبتأني ابن الخمسين، نزع داود ردائها الخارجي عنها برقة وغطى جسدها بقبلات ناعمة، ألهبت شعورها فبادلته حبا بحب، وقامت قمر واتجهت ناحية العود المستند إلى ظهر المقعد المواجه وأمسكت بعنقه وأعطته لداود بدون أن تنبس ولو بكلمة. بدأ داود يداعب أوتاره ثم انطلق يعزف ويغني نفس الأغنية التي غناها للحوريّة المسحورة عند شاطئ البحر، وانسابت النغمات إلى جسد قمر الذي بدأ يتمايل معها في لذة ونشوة ثم أزاحت عن كتفها حاملة قميصها الداخلي فسقط عنها عند قدميها وهي ما زالت تتثنى على وقع

الموسيقى، ثم نزعت عنها صديريتها ولباسها الداخلي ودارت بجسدها حول نفسها مزهوة بجمالها، ثم نزعت عنه بدورها ملابسه حتى صارا عاريين تمامًا في وسط الصالة، هي واقفة كتمثال ڤ–ينوس المرمري، وقد أغمضت عينيها من فرط لذة النشوى، وطاف داود بقبلاته من حولها وما زال يعزف أوتار عوده وكأنه المث–ال ألكساندروس الأنطاكي، يدور بأنامله وبروحه حين خلق تمثاله الأشهر. وما زال شعاع شمس المغيب العابر من بين ضلفتى شيش البلكونة يتدحرج فوق جلدها الحريري فيلهبه بضيِاه، فصارت "قمر" كتلة من النور يحوم هو من حولها كفراشة عاشقة مسلوبة الإرادة لا تبتغي سوى الإلتحام بها. وشعر داود بشهوة تشمل كيانه كما لم يشعر من قبل فعادت إلى جسده العجوز توترات الشباب ولفتاته، وعنفوانه وشدته، كما لم يختبر لزمن من قبل ذلك اليوم، ذلك اليوم الذي أعده فارقا في حياته فيما بعد.

رقد داود وبجانبه قمر وقد أغمضا عينيهما سابحين في بحور النشوى، ثم مد يده وأشعل سيجارة وهو يراقب حلقات الدخان تتصاعد نحو سقف الغرفة. ومضت لحظات صامتة ثم هبت قمر رافعة نصفها العلوي مرتكزة على مِرفقها، وقد أحكمت الغطاء فوق صدرها بيدها الأخرى وقالت:

– "أنا لازم أِمشي دلوقت. هي الساعة تطلع كام؟ لازم أروح أجيب الواد لطفي من عند أم إحسان" فسألها من بين دخان السيجارة:

– " وبعدين يا قمر؟ عايزة تعملي إيه مع جوزك؟" فأجابت على الفور وبلهجة حاسمة:

– "أنا ماليش إجواز. أنا لازم اطلقه النهاردة قبل بكرة.". فالتفت داود نحوها محاولا أن يستنبط بدوره مدى جديتها فيما تقول وسألها:

– " والمطلوب مني إيه؟ أنا قلت لك أنا ممكن أمُّوته علشانك!" فأجابت بكل برود:

– "يبقى لازم تموته. لو تقدر!" والتفتت نحوه رافعة حاجبها في تحدي، فنظر داود أمامه وتمتم وكأنه يخاطب المجهول:

– "مشوار صغير لمصر، هايكون فيه موتك يا شيخ حسنين! ماهو انت خرجت من الحبس على مسئوليتي، ولما تكمل في مشيَك البط–ال ده تبقى بتضرني أنا شخصيًّا!. وهاتكون نهايتك على إيدىَّ دول" ورفع كفيه في الهواء،

كالمُصَلِّي! وإن كان ينظر نحوهما ذاهلا بل وغير مصدق ما كان مزمعا أن يقدم عليه.

قامت قمر وفي لحظات كانت قد تركت المنزل وبقى داود وحده في الغرفة المظلمة لساعات ينفث دخان سجائره بلا طائل. وكما تقضم ثمرة الكمثرى الشهية، المتدفقة بالرحيق الحلو فتتلذذ، إلى أن تلتقط بأسنانك – دون أن تقصد – لبها المرير، نعم. لا يزال طعم المرارة يملأ حلقه، ولا يستطيع أن يدفعه عنه، برغم كوب الشاى المحلى بثلاثة ملاعق من السكر، الذي إزدرده دون أن يميز له طعما. إمتلكه الشعور بالإثم الثقيل على قلبه، فقام وارتدى ملابسه متعجلا، يريد أن يهرب، ثم نزل للشارع وسار عابرا الدكاكين المغلقة، والمقاهي المكتظة بالساهرين في تلك الأمسية الربيعية من أمسيات الإسكندرية، وقد غسلت الأمطار المتلاحقة بطول الشتاء شوارعها، فعاد الناس يساهرونها بعد طول غياب. وانطلق في شارع السوق متجها نحو البحر، ملاذه الأخير لعله يجد عنده دواء لتلك المرارة.

وملأ الجو عبق دخان النارجيلة المحترق وضحكات المتسامرين حتى عبر الكورنيش، فتبدلت الرائحة مع نسمة الهواء الباردة المحملة برائحة البحر الممزوجة بفواح كيزان

الذرة المتقلبة فوق قطع الفحم المتوهج، فتصوّر نفسه، في هلعه، يتلوى مثلها فوق النار كمثل عقابه في الآخرة، تلك النار المتقدة التي كان قد تمادى في وصفها له أهله وناسه بالإسكندرية بطول السنين، جزاءا له على فعلته الش–نعاء، بل وعلى ما كان يعتزم أن يصنع بصديقه الشيخ حسنين. وجد نفسه ينظر إلى البحر بغموضه الداكن وأمواجه الفضية تتواصل، وهو يتمتم:

" يارب السماح!. يارب الغفران!."

ولكنها قمر!

نعم هي التي أغوته بجمالها، وشبابها، وأنوثتها الطاغية! ثم جاءته – دون دعوة منه – بعد ذلك إلى داره باكية!. لا بل مستعطفه إياه أن ينقذها مما هي فيه، بل ولينتقم لها، وحتى الموت! من ذلك الغبي الذي يضربها! كيف يتسنى له أن ينظر ذلك الجمال دون أن يركع أمامه متعبدا!

إنه الشيخ حسنين!

نعم هو المذنب، المستحق لكل عقاب ينزل به!

لا. ليست خطيئته، ولا خطيئتها. الشيخ حسنين هو المسئول الأوحد! ويستاهل تبعات ما حدث، وكل ما س–يحدث له.

الوغد يضربها!. إنه حتما أعمى، ولذا فهو دومًا يتحسس طريقه في الحياة بدون أن يدري! من الأزهر لإحياء الحفلات! ومن "زينب شربات" إلى "قمر"! ثم يأتيني أنا – صديقه ورفيق دربه – ويقول لي بأن أرحل عن بلدي! ويستبدلني أنا ب–"محمد البوري"! ذلك الصعلوك – الذي كان قد قابله مرة أو مرتين من قبل – الذي يدعي مرة أنه فنان ورسّام، ومرات إنه سياسي واشتراكي، ثم ينقلب أخيرًا إلى إخوانجي! بهلوان ويلاعب فيل بزلومة في قاعة سيرك درجة ثالثة. إنه حتما أعمى، لا يميز أمامه، وسيقع قريبا عند أول حفرة تقابله. نعم. حتما إنه الشيخ حسنين!

ولابد أن ينال جزاء فعلته المشينة!

الفصل العاشر

وتعود الشمس وتشرق من جديد كما أشرقت بالأمس، ومنذ شهر مضى، وعند بدء الخليقة، وإلى المنتهى. تسللت أشعتها تخترق ما بين فتحات الشبابيك بنافذة غرفة النوم العلوية، فأيقظت إيلين من نومتها المتقطعة قلقا على ابنها سليمان الذي كان قابعا بجانبها، فقد قضى الليل كله يرتعش من الحرارة التي أشعلت جسده نارا، فنقلته إلى سريرها لتسهر بجانبه. أما داود فكان مسافرا للقاهرة ليبتاع بعض لوازم للمصنع، وكان ذلك اليوم الأول الذي يفترقان فيه منذ أن كانا قد التقيا بمحرم بك. كانت تمتم بصلواتها وقد تجمدت عيناها فوق وجه الصبي النائم، وتتجمع حبات العرق كاللؤلؤ فوق جبهته، فتمسحها هي بالقماش المبلل تارة وبراحة يديها تارة أخرى والدمع ينساب فوق خديها، وشفتاها ما تزال تردد صلوات حفظتها عن ظهر قلب أيام الطفولة والشباب بدار الأيتام. وتلقفتها شطحات الذاكرة فأخذتها إلى حيث كان ابنها "مكاري" - الأخ الأصغر - راقدا فوق سريرها بشقتهم الأولى بمحرم بك، وهو يذوب بسرعة ما بين يديها من كثرة ما فقد من رحيق جسده، وهي مغلوبة على أمرها لا تستطيع إلا أن تغسل جسمه الطري من آثار الإسهال والقيئ اللذان لم يتوقفا أبدًا لأيام

وليال لا حصر لها حتى قضيا عليه. لم تكف عن البكاء لشهور طويلة من بعده، ولازالت تبكيه أحيانا. لقد ملأ الحزن قلبها من بعد رحيله حتى لم يعد يسع لأي شيء آخر، فكفت تمامًا عن الغناء، بعد أن كان شدوها كل حياتها، وعلامة وجودها أينما كانت، بل وحتى داود - رجلها - لم تعد ترغب فيه وفي قربه كما كانت من قبل، بل ووجدت نفسه تتجنب الإنفراد به حتى في غرفة النوم، صارت تنام في غرفة نوم الأطفال ساعات قبل أن يعود هو من سهراته، وفي الصباح - أو بالأحرى عند منتصف اليوم - حين يصحو كانت تتشاغل عنه بأمور المنزل وتدابير شئون الحياة. ولمّا لم يمانع داود أو يعترض، أعزت هي تقبله لذلك الوضع الجديد لتقدم العمر به، فلم تثر تلك المشكلة بينهما، ولم يطرحها أحدهما للآخر بطول السنين، إذ آثر كل منهما أن يلزم الصمت تجاهها حتى لا يجرح مشاعر الثاني موقنا بينه وبين نفسه بأنها ليست مشكلته هو بل مشكلة الطرف الآخر.

ملأت رائحة المرض مساحة الغرفة فهمَّت من مرقدها وفتحت أشرع النافذة لتدخل نسمة البحر الرقيقة تغسل ما علق بالجو من أنفاس ليلة الأمس. ورمقت الصبي النائم بنظرة عطوفة هي كل ما كانت قادرة أن تقدمه إليه، فقد نضحت

مشاعر الحب العميقة عنها حتى تجاه أبنائها، منذ أن وارت طفلها "مكاري" التراب قبل ثلاثة س–نوات. أما سليمان فكان يهذي من فرط الحرارة ويقول في نومه:

– "أنا سليمان ابن داود ابن عيسى. إبعدوا عني كلكم، إبعدوا وإلا.!"

وكانت الحمّى قد طافت به إلى تلك الصحراء المترامية حيث أحاط به صبية أشرار يريدون الفتك به، وهو لا يعرفهم ولا يعلم لماذا يتربصون به، فما كان منه إلا وبدأ يعدو فجأة نحو صبي منهم كان يقف في مواجهته، ملوحا بقبضته نحوه وخاتم أبيه يبرز أمامه بفصه الأحمر كالنار المستعرة، وكان يبدل خطوات أقدامه على الرمال بسرعة فائقة، وما زال يعدو حتى باتت أصابع قدميه بالكاد تمس الأرض من تحته، ثم بدأ يرتفع عن الأرض تدريجيًّا حتى طار نحو قرص الشمس الساخن عابرا فوق الصبي الذي كان يعترضه. ثم ارتفع في الهواء منطلقا ولكنه لم يطق حرارة الشمس ففتح عينيه الصغيرتين ليجد أمه تنظر إليه مشفقة عليه من خطرفات الحمى، وسألها:

– " عطشان يا ماما، عايز أشرب، ريقي ناشف قوي. تتصوري كنت باحلم إني طاير لحد قرص الشمس!".

عاد داود نحو الظهر ليجد سليمان مريضا وطريح الفراش، أما إيلين فكانت مكتئبة ومنزوية في ركن بالغرفة لاتكف عن البكاء، ولكنه انزعج إذ لم تفكر في إحضار طبيب أو حتى في إعطاء الولد ولو حبة أسبرين. وفي خلال ساعة كان السائق في طريقه للأجزخانة ليحضر الدواء الذي كتبه الطبيب الذي جاء به داود على عجل. وشعر بأن عقابا من السماء قد حل ببيته جزاء الذنب الجسيم الذي إقترفه! بل وشعر بكمد أكبر إذ لم يجد من يشكو له محنته ويسأل إرشاده، كما كان قد اعتاد أن يفعل مع صديقه الوحيد الشيخ حسنين! هذا الذي كان قد عاد من القاهرة اليوم بعد أن أتم مهمته وبعد أن تأكد من دقه لآخر مسمار في نعشه!. صعد داود إلى سطح القصر المواجه للبحر ووقف في وسطه سابحا ببصره بين زرقة سماء الإسكندرية الصافية وبين زرقة البحر الداكنة الغامضة، وصرخ بكل ما أوتي من قوة:

" يارب السماح!. يارب الغفران!."

وأمضى بقية اليوم ما بين هبوط إلى غرفة النوم ليستطلع حالة الصبي، وبين سطح القصر ليصرخ وينتحب ذلك الألم الذي كان يعتصره.

وعند المساء بقى داود ساهرا فوق سطح القصر، وحيدًا وسط النجوم الساهرة المتناثرة كحبات الماس في سماء الإسكندرية الرائقة إلا من غلالات رقيقة من السحب تمر متباطئة فتضفي على الليلة سحرا وغموض-ا. ومضى داود يجول بالسطح من ناحية لأخرى وهو رافعا عينيه نحو السماء، ثم نحو البحر الأسود الممتد بغموضه حتى يلتقي بسواد السماء عند الأفق المخفىّ تحت جنح الليل، ثم ثانية نحو السماء. مبتهلا وسائلا، يارب! إلى متى يمتد ذلك الش-عور بالذنب؟ إكتنفه الحزن والإنكسار ودموعه تترقرق حول مقلتيه. لم يستطع داود ليلتها، ولا من بعدها وحتى آخر عمره، مهما حاول وبذل من جهد، أن يمحو من نفسه تمامًا أثر فعلته مع قمر وخيانته للشيخ حسنين.

لكن يبدو أن عدالة السماء قد ترفقت بسليمان فلمّا أشرقت شمس اليوم الجديد تبين بأن الإبن لم يؤخذ بذنب الأب وتماثل الصبي للشفاء بالرغم من الإثم الجسيم الذي ارتكبه أبوه. تهلل داود كما نهلل جميعنا وكأن قيام العدل فيما بيننا هو الإستثناء وليس القاعدة.

ومضى سليمان ينمو ملتصقا أكثر فأكثر بأبيه، إذ تبدى له مدى العاطفة التي كان يكنها له دونا عن باقي اخوته،

فكان ذلك الشعور يعوضه عن الجفاف الممتد ما بينه وما بين أمه. لم تكن إيلين مقصرة نحوه كأم، ولكن مشاعر الأمومة وكأنها قد جفت! نعم جفت لديها حتى لم تعد تتعدى حدود المسئولية كأم ترعى أبناءها وزوجها، وكانت تقدمها بغزارة مشهود لها بها. أما الحب فكانت تضن به - دون أن تقصد ذلك - على أي منهم منذ رحيل مكاري وكأنه أخذ معه قلبها إلى جوف القبر حين مضى، فلم يبق لها - ولهم - سوى عقلها وشعورها الفطري كأم، وواجباتها كزوجة إزاء داود والأولاد.

* * *

بعد اعتقال زوجها، سعت قمر في الحال للحصول على الطلاق منه. وفور طلاقها الذي حصلت عليه خلال زمن قياسي، بسبب انحياز المسئولين عن تنفيذ الإجراءات ضده بصفته من الإخوان المسلمين، تملقا للسلطة، بدا الطريق ممهدا لتحقق حلمها بالزواج من معشوقها داود. ولكن بقت عقبتان تحولان بينها وبين رغبتها الملحة؛ صداقتها لإيلين واختلاف الديانة. أدركت على الفور أنه لو تحول داود للإسلام، فسيحل الإشكالين معا. هكذا كانت قمر دائمًا لا تفكر كثيرا، ولكن حين يخطر لديها خاطر أو فكرة لحل إشكال ما، كانت

غالبًا ما تكون الخطوة الأكثر عملية بالنسبة لها، وإن يبدو الحل مجنونا في بعض الأحيان، ولكنها تشرع في العمل به وهي لا تدري كيف خطرت لها تلك الفكرة أصلا، وما كانت لتستطع الإتيان بها ولو تفكرت في حل لتلك المشكلة ولو لمئة عام!. ولكن بقت معضلة إقناع داود بذلك الحل. لم تقدر أن تجد لها مخرجا أو تمهيدا لمفاتحته بها، فقررت أن تترك الأمر لسجيته حين تلقاه. كانت تتفكر في هذه الأشياء وهي تتأمل جمالها ورشاقتها في المرآة وهي تمصمص شفتيها متفكرة باستنكار في الشيخ حسنين الذي لم يوفها حق قدرها، بالمقارنة بداود الذي يذوب هياما كلما يصير في مقربتها.

خرجت قمر لتبتاع زيت وسكر للبيت، وتركت إبنها لطفي عند الجيران يلعب وانتابها شعور لذيذ بالحرية كانت قد افتقدته لزمن طويل. سارت في الشارع الضيق بين نفس البيوت المتلاصقة الواحد تلو الآخر، نفس البيوت التي حفت بجنبات طفولتها وحتى اليوم، وإن كان طلائها قد تقشر بفعل الملوحة ورطوبة الجو، نفس الوجوه والجيران والمحلات المتبعثرة على جانبي الطريق، وإن تغير أصحابها وتجارتها، فحامد الكواء كان حسنين اللبان، وعباس الجزار كان لاوندي الساعاتي، وإن بقى الآخرون في صناعاتهم ولكن إستبدل

الأبناء آباءهم في حرفاتهم وتجاراتهم. وحل جيل جديد من الصبية والصبايا يملأون الشارع حياة، لعبا وصياحا وضحكا وبكاء وعدوا هكذا في كل مكان. ودخلت إلى محل "رزق" العطـ–ار، "أهلا بالست قمر وردة حتتنا" ابتسمت هي وغشيتها الروائح النفاذة النابعة من الجوالات المتراصة المحملة بالتوابل والبهارات، ومدت أطراف أصابعها تلتقط أوراق النعناع، وزهرات الريحان، وحبات الينسون، والكمون، والحلبة، تفركها بين أصابعها لا لشيء إلا لتقربها من أنفها وتملأ أنفاسها بروائحها العبـ–قة، وتسرح وهي تفاضل فيما بينها، وابتاعت نصف أوقية جوزة الطيب لتطحنها مع حبات البن المحمصة لتعد القهوة لداود بالطريقة التي يحبها وقرطاس من الحلبة والينسون. أحقا ما تزال "وردة" الحيّ؟ ولو كانت فهل تكون هكذا في عينيه؟ وتذكرت قمر طفولتها، تلك الأيام التي لم تبدو بعيدة كل البعد عنها، كيف كانت دومًا تقود أترابها في اللعب، وكيف كانت في المقدمة إذا ما اجتمعن للهو وخاصة في أمسيات رمضان الساهرة، كانت على رأس قافلة أطفال الحي يدورون حول البيوت بفوانيسهم المنيرة بلهيب الشموع، يجمعوا الحلوى والمكسرات اللذيذة وهم يغنون أهازيجهم الرمضانية. ومرت بمنزل "أمينة حلمي" بحوائطه الصفراء القديمة المتآكلة

وسكونه المطبق، صديقة الطفولة وحبيبتها الراحلة، وترحمت عليها متذكرة في ألم وخز بقلبها حادث الترام الذي قضى عليها. كم خاصمها النوم لشهور طويلة بعد ذلك الحدث المروع وخاصة أنها عاينته بنفسها إذ كانتا تلعبان سويا – وكانتا في الرابعة عشر عندئذ – قبل أن تعدو – رحمها الله – بكل سرعة دون أن تدري نحو الترام القادم، فكان ماكان. ولكنها في النهاية كانت قوية وتخطت المحنة بإصرارها وعنادها، وشبت فتاة يضربون بها الأمثال في الرسوخ والالتزام. ثم حبتها الدنيا بجمال نادر وقوام مليح فأضحت مبتغى لكل شباب الحي، ولكن خطفها الشيخ حسنين خطفا وهي ما تزال تخطو على عتبات الشباب لما كان له من دلال عند والدها رحمه الله، الذي وثب إلى تزويجها منه درءا للمخاطر التي تحسبها من نظرات الشباب من حولها، فتزوجها وهي بعد بنت السادسة عشر بينما كان هو في منتصف الأربعين، ومن يومها وبين جدران بيته، تحولت إلى قطعة من قطع الأثاث، لا رأى لها ولا كلم–ة، ولا حول لها ولا قوة. توارت قمر القائدة الذكية خلف الجدران، ثم مؤخرا خلف حواجز متجددة من غلالات الثياب والأقنعة إذا ما خرجت من سجن شقتهما. ثم يتطاول عليها بالضرب أيضًا؟

لا يمكن! لم تكن راغبة، ولا قادرة بعد، على أن تحيا هكذا بل وتحمد ربها أن فرق بينهما الطلاق إلى الأبد.

وفي ذات اليوم، كان قد إتفق أن يمضي داود ليلته بشقته بمحرم بك، وقد أدركت قمر ذلك بسرعة عند مرورها من أمام المنزل لدى عودتها من التسوق، فلما وجدت الشبابيك مفتوحة، ألقت بنظرة خاطفة حولها لتتأكد من أن أحد لم يكن يراها ثم دلفت إلى مدخل العمارة بدون تردد.

ثلاث طرقات خفيفة على الباب ووجدت نفسها أمامه، وذابت بين ذراعيه في عناق دافئ، وإن انتزعها منه داود برفق، وهو يتعذب.

- **" أنا مش قادر يا قمر. إحساسي بالخيانة بيعذبني"**
- **" خلاص يا سي داود، أنا إتطلقت!"**
- **"معقول؟ بالسرعة دي؟ إزاى؟"**
- **"ولاد الحلال."**
- **"ولاد الحلال؟."**
- **" خلاص بقى!. والماضي راح لحاله"**
- **" قوام كده!. بقى ماضي؟ إزاى قدرتي؟"**

- " قول إزاى قدر هو؟! هو اللي عمله كان شويه؟"

وأطرق داود، لا يسعه أن يجد إجابة للحظات، ثم عقب بدون أي انفعال:

- " صحيح. هو اللي عمله كان شويه!." وغاب في صمت كثيف.

لم تزل قمر تتأمله في صمته، وقد أضفى ذلك الصمت عليه مزيدا من رقة المشاعر، التي أظهرت لرجولته بعدا جديدا، سمت بها وعلت، فألهبت إحساساتها حتى لم تستطع قمر أن تتمالك مشاعرها الجياشة نحوه، فبادرت وألقت بنفسها ثانية في أحضانه، مشتعلة هذه المرة بالرغبة في أن تلتحم كلية بجسده، فيصير اتحادهما الآن كاملا لا يحده خوف من أحد، أو شبهة خيانة، أو عذاب ضمير. ولمّا كانت مشاعرها أصيلة فعلا، لا تشوبها ذرة افتعال، انتقلت عدواها - كالحمى - إلى جسم داود وإلى قلبه، فترك عنه كل مقاومة، إذ بددت سعادة النشوى التي اشتملتهما كل شك في أن ما بينهما يمكن أن يكون خيانة. أو خطيئة!

حكت له عن كل حياتها، عن طفولتها وعن شبابها، وعن أمينة حلمي وعن الشيخ حسنين، عن أي شيء وعن كل

شيء، ثم قالت والحب يتدفق من بين شفتيها، وكأنها الأرض المتخمة بالحمم لم تقدر أن تبقى حرارتها وفورتها بداخلها بعد، فتفجر البركان يفيض قلبها بلهيبه، إذ لم تقدر أن تظل بعد ساكنة:

– "مش قادرة!. مش قادرة أوصف لك إحساسي! قد إيه أنا محتاجة لك! أنا مِلكك ياسي داود، إعمل فيَّ ما بدالك!" ثم فاضت عيناها الخضراويتان هياما وأضافت:

– "الأمر ليك إنت، بإشارة واحدة منك أنا مستعدة أعيش تحت رجليك طول العمر"

– "أعوذ بالله يا قمر. تحت رجلىَّ إزاى!. ده إنتي ست الستات!"

– "مش عايزاك تفهمني غلط، بس الست إيلين. دي مهما كان، في مقام أختي الكبيرة برضه، وأنا مارضلهاش حاجة بطالة أبدًا!"

– "أنا مش عارف هانعمل إيه مع الغلبانه دي إللي عمرها ما أذتش نملة! والله ماتستاهلش مني ده كله!"

– "خلاص يبقى نتجوز ياسي داود، ولو في السر، أنا موافقة". وصمتت قمر خج–لة من أن تكون تسرعت في كلامها

هكذا، متفكرة فيما يمكنه أن يظن بها، تبتغي أن تسرقه من زوجته، ثم بعد برهة أضافت:

- "وعلى العموم إللي تشوفه يا سي داود."

- "نتجوز ده إيه ياقمر! ما أنا متجوز إيلين وما يحقليش أتجوز عليها، إنتِ في إيه ولا إيه؟ بقى نقول لك مش عايز نزعلها، عايزاني نطلقها؟"

- "مين جاب سيرة الطلاق بس؟. ماهو إللي بنعمله دلوقت ده هو إللي بيسموه - والعياذ بالله - (خيانة) ياداود ياحبيبي، وده إللي تاعب ضميرك من ناحية الست إيلين. بس لو إتجوزنا - ولو في السر - خلاص ما فيش خيانة ولا حاجة!"

- "تاني ياقمر هاتقوليلي نتجوز، طب إزاى بقى؟"

وهنا أدركت قمر أن اللحظة الحاسمة قد جاءت. بكل براءة وصدق قادته إليها دون تخطيط مسبَّـق أو مناورة منها، جاءت، ومن ناحيتها هي فقد تحيّنتها فرصة لا تعوّض، فمالت نحوه وأفرغت كل أنوثتها منسابة فوق صدره الأشيب تداعبه بأصابعها، وهو راقد على السرير بجانبها وهمست قائلة:

- "شوف يا داود يا حبيبي، مافيش غير إنك توصل مشوار لجامع الأزهر في مصر، وهناك تِسلم - في السر طبعا - ومافيش مخلوق غيري هايعرف، وبعدين ممكن نتجوز عرفي، في مصر برضه علشان يفضل الموضوع برضه في السر، يعني عقد جواز - حتة ورقة - بيني وبينك، يشهد على إننا متجوزين قدام ربنا، فينصلح الحال! وأبقى مراتك وخدامتك طول العمر، وإنت تفضل متجوز إيلين وما تحسش إنك بتخونها وانت معايا". هكذا طرحت قمر كل أوراقها مكشوفة أمامه بدون تخابث أو موارة، وإن كان ما تطلبه منه ما زال عسيرا عليه أن يقوم به، أو على الأقل ليس بالبساطة التي طرحته هي، إذ كانت تبعاته أصعب من أن يستطيع أن يحسمها هكذا سريعا. وتفكر في ذاته:

"من جديد؟

أأخوض في ذلك الطريق أيضًا، بعد كل هذه السنين المتراكمة من ورائي؟

حقيقي أنني لم أعبأ قط بتلك الكلمة، التي تكتب فوق ورقة ما، في خانة الديانة. حقيقي أن ديانتي وعقيدتي محفورتان فوق جدران روحي، بكلمات من ذهب مرسومة على

الناحية الداخلية من جسدي، الناحية التي لا تبصرها عيون، سوى عيون قلبي!.

كنت ظننتني وصلت إلى نهاية الطريق، لأنني جزت في الماء وفي النار واختبرت ملئ الحياة، وظننتني عبرت أخيرًا إلى الراحة! بعد زوجتاى الأولتين ورحيلهما عني ومس–ئولية العيال التي تحملتها عني إيلين. والمال، حتى الرزق الذي كان قد قطعه عني الشيخ حسنين، عاد وانفتح لي سبيله على مصراعيه!.

ولكن أيمكن أن أفعل–ها من جديد؟ ومن أجل امرأة مرة أخرى؟ يهودي، فمسيحي، ثم مسلم!. والكل يصبحون فجأة أهلي وناسي! ياله من أمر مضحك!. ولكن أنا. من أكون أنا؟ ومن أكون لهم؟".

* * *

ورغم نقاء الجو وجماله في ربيع الإسكندرية البديع، موسم الحب والغزل وأصل الحياة، إلا أنه أمضى يومه قابعا بمفرده في شقته حائر النفس. في خضم المشاكل تتوه أحيانًا المشاعر الحقيقية، وتساءل هل يحبها فعلا أم هي لا تعدو أن تكون مجرد نزوة. بدت له خيالات لقاءاتهما، فأشعلت ذكرياتها

النشوة في جسده، فهل تكون إذن مجرد متعة جسدية؟ وفي سنه هذا؟ لا شك أن شهوته تجاهها كانت تمثل عنده الجانب الأكبر من انجذابه نحوها على الأقل في بداية علاقتهما. ولكم اشتهى قربها يوما، بل وحتى الآن. ولكن هل ذلك هو كل ما يكنه تجاهها؟ لقد عصفت به الأفكار بجنون فلم يتبين بوضوح الطريق أمامه، لذلك اختار داود الصمت ملجأ له وحصنا يحتمي خلفه حتى يتمكن من أن يرتب أفكاره ثم يتخذ القرار.

الفصل الحادي عشر

برودة الليالي في وسط الصحراء متميزة، ولا تضاهيها برودة ولا ينافس آلامها ألم. تنفذ بين ثقوب الجلد كالخناجر، ثم تنخر وتتلوى وتستقر في اللحم، في العظم، بل في النخاع. مؤلمة، قاسية، لا ترحم.

جلس "محمد البوري" وحيدًا في الزنزانة الضيقة، مستندا إلى برودة الحائط الإسمنتي وقد رفع ركبتيه مرتكزا بقدميه فوق حافة السرير الحديدي، وضمهما بذراعيه إلى صدره العريض محاولا أن يخفف آلاما تجتاح جسده برمته. لقد التبسته روح حزينة ولم يستطع مهما أوتي من قوة أن ينتزعها عنه، وفرت دموعه من مقلتيه وهو شاخصٌ نحو السرير المقابل الذي بقى خاويا، فقد غاب الشيخ حسنين اليوم، وإلى الأبد من أمام عينيه، لم يأبه بموته أحد وكأنه حشرة داستها الأقدام أو حيوان نفق! فلم يحظَ من المحيطين به بشبهة شفقة أو شعور بالذنب، لا مِن الجندي المعتدِي ولا مِن رؤسائه من الضباط، الذين علت وجوههم ابتسامات السخرية، تلك التي لم تغب لوهلة سوى عند إحتسائهم لرشفات الشاى المتلاحقة، ثم عادت تتراقص فوق شفاههم الغليظة وهم يتابعون شتائمهم وسبهم لباقي المسجونين. والكرابيج والعصي

في أيدي العسكر ما تزال تلهب أجسادهم بألسنة من نار آتية من الجحيم، ويتفرق القطيع في أنحاء الساحة، ويعدو محمد البوري مهرولا ما بين جموع المساجين الشاخصين بذهول إلى ما يحدث. فرقعات الكرباج ورائه تلاحقه، وهو يعدو وعيناه شاخصة نحو الشاويش القابض بقوة بمؤخرة رقبة الشيخ حسنين، ويحاول أن يقترب ولكن تمنعه أجساد المساجين المتزاحمة والسجانة وعصيهم من الإقتراب أكثر، يدفع بكلتا يديه الأجساد من حوله بلا جدوى فيصرخ وما تزال نظرته متسمرة فوق مشهد وحيد؛ رأس الشيخ ويد الشاويش ما تزال تدفع بها تباعا بقسوة ووحشية نحو جدار المبنى الإسمنتي حتى شج رأسه مرات ومرات، ثم تركه ليسقط على الأرض جثة هامدة!. لم يكن بمقدوره أن يبصر أي تفاصيل أخرى فلقد تحولت الساحة والجند والسجناء في تلك اللحظة إلى لاشيء، إختفى الكل وبقي أمامه وجه الشيخ الجاحظ العينين وقد اختلط بياض بشرته بحمرة الدم المتدفق الذي لم يكن قد جف بعد بتراب الحائط الإسمنتي بزرقة الموت التي كست الكل بحضورها المهيمن. فتوقف هو عن الحركة مستسلما للسعات السياط وهو يبكي في صمت. بعدها جاءوا بسيارة نقل وحملوا جثمانه وخرجوا بها إلى خارج أسوار السجن ليدفنوه في

الصحراء المترامية حولهم. لم تزل الآلام تمزقه في وحدته بينما صراخات التعذيب تأتيه من كل صوب من حوله. وتملك منه الخوف فتمتم قائلا:

- "وقل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا".

لم ينس ارتعابه وتقلص ملامحه وهو جالس أمامه في خلفية العربة التي دُفعوا إلى مؤخرتها في ذلك الفجر منذ أيام قلائل، وهما محاطان بالجنود المدججين بالسلاح، بينما كانا في الطريق للقاهرة. هناك اقتيدا لمبنى المحافظة أولا ثم لوزارة الداخلية حيث أخذوا بياناتهما ثم سيقا إلى "سجن الأجانب". لم يتبادلا ولو كلمة واحدة بطول الطريق لسبب حالة من الرعب إجتاحتهما معا، فبالرغم من قرب عهد الشيخ حسنين بالإعتقال، إلا أن كان هناك شعور يقيني يتملكه بأن تلك الرحلة كانت تحمل معها عواقبا وخيمة. هالهما أولا منظر البوابة السوداء المخيف ولكن لمّا مضت بهما السيارة إلى داخل أسوار السجن، إنتابتهما موجة من الهلع حين أبصرا المساجين ما بين عادٍ وساقطٍ إلى الأرض، بملابسهم الداخلية تلاحقهم الكرابيج في أيدي الجنود الذين يلاحقونهم بها بلا رحمة أوهوادة. لن ينس وجه الشيخ المسن لحظتها وقد استحال ارتعابه إلى غضب وثورة زادت من تقلص ملامحه

واحتقن وجهه الأحمر حتى كادت عيناه أن تقفزا قفزا من مقلتيهما، فما كان منه إلا أن حاول تهدئته بكلمات رقيقة وكأنه يدرك عقبة غضبه وما تخبئه له الأيام القليلة التالية. وبعد لقائه بالضابط المختص وتدوينه لبياناته الشخصية، فوجئ الشيخ حسنين بأن الضابط يأمره ساخرا أن يخلع عنه ملابسه، هكذا أمام كل الموجودين، ولما تبين له جدته فيما أمره به، استجاب هو مرغما وهو يرتجف غضبا، فهو الذي لم يخلع عنه ملابسه حتى أمام إمرأته في خصوصية حجرة النوم، كيف يؤمر هكذا أن يأتي بذلك الفعل المشين أمام العشرات من الأغراب، ولماذا؟ أي جرم كان قد اقترف ليستحق عنه ذلك العقاب؟. لم تكن لديه أدنى فكرة أن ما كان ينتظره بعدها كان ليعد تلك الإهانة نعمة وحسن استقبال من قِبل الباشا الضابط!. فقد بدأ اليوم بتجمع في فناء السجن بالملابس الداخلية حيث أمر المئات من المساجين، بغض النظر عن أعمارهم، بالجرى في طوابير ثم الوقوف فجأة ثم العدو ثم الجلوس القرفصاء ثم الوقوف، وهكذا في تتابع سريع يعاقب المخطئ في تنفيذه بالجلد الفوري على أيدي الجنود المحيطين. ثم بدأت الموسيقى تشدو بأغنية أم كلثوم "يا جمال يا مثال الوطنية". ثم أمر الضابط الشيخ حسنين أن يقف في

ملابسه الداخلية - هكذا أمام المئات - وأن يمسك بالميكروفون بنفسه ويغني أغنية أم كلثوم عينها، بما أنه مقرئ ومتعهد حفلات، فوجب عليه أن يمتع الإخوان بجمال صوته وإلا. بينما أوقف الشيخ حسن الهضيبي، المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين، بنفسه بلباس أزرق في الوسط وفي يده عصاة يلوح بها أمامه كقائد للأوركسترا إمعانا في الإذلال. وبعد الإنتهاء من فقرة الغناء، ومن شدة المهانة ساد هرج بين الإخوان، وتعالت همهمات فيما بينهم حتى صاح واحد من وسطهم هاتفا:

- "لا رجعية ولا إخوان. ولا متاجرة بالأديان

حسن البنا وحسن التاني. سلكوا طريق ضد الإنسان"

لم يعرف أحد من كان صاحب الهتاف ولكن أجبر الجميع أن يرددوا الهتاف خلفه بأمر الضابط قائد الطابور. وهنا ارتقف الشيخ حسنين غلطة عمره، إذ سأل الضابط الجالس أمامه في غلظة واستنكار عمن يكون "حسن التاني" هذا؟ فما كان من الضابط إلا أن هب قائما ورفع كفه وبكل قوته هبط به كالصاعقة على خد الرجل العملاق، ولكن وهن السن غلبه، فترنح الشيخ وكاد أن يسقط. وإذا بالضابط يصرخ في وجهه بسخرية:

- "مش عارف مين حسن التاني يا روح امك؟ تعال يابني إفتح لنا محضر وخد أقوال الجدع ده!. التاني يا روح قلب امك يبقى حسن الهضيبي، تعرفه ياوله؟. إنطق!" وجلس ثانية وهو يلقيه بنظرة س-اخرة.

- "أعرفه يافندم" أجاب الشيخ وكفه لا تزال عالقه فوق خده تتلمس المهانة فوقه وتحاول أن تنتزعها عنه، وقد استبد به الغضب فلا يزال وجهه ملتهبا بفعل اللطمة التي تلقاها أمام كل الحاضرين.

- "أقف إنتباه يامسجون! الإسم، والسن، والعنوان" فأسقط يده إلى جانبه وأجاب صاغرا. مال الضابط بجزعه للوراء على كرسيه، وعقد ذراعيه أمام صدره وسأل متهكما:

- "تعرف إيه بقى يا حسنين عن حسن الهضيبي؟"

- "ده يبقى المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين، يافندم"

- "وهو إلي قتل رئيس الوزارة السابق النقراشي باشا، بعد ما كان نازل من عند أمك مش كده؟" أجاب الشيخ متلعثما وبدون تفكير:

- "لأ يا فندم مش هو!. أنا قصدي أقول أنا ماعرفش، بس الشيخ حسن الهضيبي راجل تقي وعالِم إسلامي كبير، ومالوش دعوة بالقتل والحاجات دي"

- "وهو إللي حاول يقتل الرئيس جمال عبد الناصر ليلة ستة وعشرين يوليو. بعد ما خلص من عند الست حرمك، يا حسنين، مش كده؟". غليَ الدم في عروقه، ولكنه تماسك في اللحظة الأخيرة، وأجاب منفعلا:

"يافندي لو سمحت!. (صمت). بلاش!. (صمت). يا فندم المستشار الهضيبي ده راجل عظيم وأنا رأيي إنه مش ممكن يعمل كده!" فصرخ الضابط في وجهه غاضبا:

- "رأيك؟ إنت فاكر إنك هاتقول لي رأيك في الموضوع يا كلب يا ابن الكلب؟" وهنا اشتعل غضب الشيخ حسنين فلم يتمالك نفسه هذه المرة، وانقض على الضابط فجأة بجسده العملاق، فدفع به وبكرسيه للخلف فانقلب الضابط على ظهره وارتفعت قدماه نحو السماء، في حركة هيستيرية مباغتة، فصار يصرخ للعساكر من حوله أن يمسكوا بإبن الكلب ذلك الذي تجرأ واعتدى عليه، بينما ضج المساجين بالضحك من المنظر. فما كان من أحد الجنود إلا أن انقض على الشيخ المسن، وفعل فعلته إكراما لرئيسه وابتغاء

لمرضاته، وبابتسامة رضى فوق شفتيه كما ينبغي لأى مواطن صالح يؤدي واجبه على أكمل وجه.

ومات الشيخ حسنين، هكذا أمام جميع الحضور من المساجين، كما ماتت الضحكة فجأة وسقطت من فوق وجوههم. كما هشم الجندي الساذج رأسه، صُرعت ضحكاتهم وق–تلت أحلامهم كلها، قتلها قهر العسكر وقلة الحيلة من جانبهم. لم يكن قائدا أو زعيما طيلة حياته، ولكن سما الشيخ حسنين بموته إلى قامة البطل والشهيد بالنسبة إليهم. وبالرغم من إيمانهم به وبموقفه، وبالرغم من إلتفافهم حوله فقد مضى عنهم إلى الأبد، دون أن يتمكن أي منهم من أن يفعل أي شئ.

وتساءل محمد البوري في وحدته وتحت ثقل ظلمة الزنزانة وبرودة جدرانها إذا ما كان مستعدًّا الآن أن يحذو حذو الشيخ حسنين إذا ما تطلب منه الأمر أن يفعل.

* * *

أصرت إيلين أن يلتحق سليمان بمدرسة "سان مارك" بالشاطبي. مدرسة كاثوليكية خاصة وبمصاريف مرتفعة، ولكن داود أصبح الآن ميسور الحال وينبغي له أن يعلم ابنه أحسن تعليم. ومن ناحيته لم يعارضها داود وإن بقى تفكيره شاردا

بسبب موضوع السفر والرحيل عن البلد الذي بات يلح عليه، ربما هروبا من قصته مع "قمر" القابع كالجبل فوق صدره، لا يستطيع معه نوما أو تشاغلا بعمل، وحتى العود والغناء والطرب لم تعد له رغبة بهم. ولاحظت إيلين ذلك التغيير وإن لم تعتد أن تتدخل في أموره لو لم يفاتحها هو أولا بها. فآثرت أن تدعه وشأنه وتلتفت لرعاية شئون الأولاد والإشراف على الخدم من "عبده الطباخ" ل- "وليام السائق" ومن "عم حسن الجنايني" ل- "الست نرجس" مديرة المنزل أو المربية، لاتعرف بالضبط، وزوجة سي وليام بسلامته!. وبالرغم من أنها لم تعد تمس أي من الأعمال المنزلية منذ أن انتقلت للعيش بالقصر إلا أنها وجدت أن الوقت لم يعد يكفي لقضاء حاجاتها اليومية، بل وأنها باتت تقضي وقتا أقل بين الأولاد ومع داود. في منزلها الجديد كانت تشعر كالتائهة، تدور يوميًّا بين الغرف وبين الخدم تأمر وتنهى، وهي تبحث عن شيء ما، عن نفسها التي تركتها مع شقتها القديمة أو مع مكاري هناك في محرم بك، أو عن الأولاد وحتى تتلاقى مع أحدهم - بمحض الصدفة - في ممر ما بين الغرف في الدور العلوي مثلا، أو بإحدى الشرفات، أو عند البهو الكبير في الدور الأول قادما من الخارج أو تاركا للمنزل، فيتبادلون كلمات مبتورة وجمل ناقصة

تنسى هي – وينسون معها – أن يستكملونها عند لقاءاتهم العفوية التالية. وما تزال تزداد عزلة، وسمنة، وخمولا مع الوقت، ففقدت تدريجيًّا تلك الروح النشطة فكانت تمضي معظم وقتها بغرفتها بالطابق العلوي، تزدرد قطع الحلوى، وتستمع نادرا للراديو لأغاني أم كلثوم وعبد الوهاب وبعض أغنيات عبد الحليم حافظ وتصلي لأن يمنحها ربها من عنده سلاما وفرحا من جديد.

ولكنها لم تنس ملجأ العذراء الذي شهد أيام صباها وشبابها، أيام الفرحة الأصيلة النابعة من داخل القلب وسلام النفس الحقيقي، فغمرته بالعطايا والخدمات في السر ودون أن تعلن عن شخصها، خجلا من أن يرون ما آل إليه حالها من تعظم الحياة! أو ربما خوفا من أن يحسدونها على ما هي عليه من رغدة المعيشة، أو لأنها – وذلك كان ربما الأقرب للحقيقة – لم تستطع أن تقنع نفسها باستحقاقها فعلا لتلك النقلة المسحورة، وخاصة أنها لم تجلب معها السعادة لها أو لأى منهم! لذا صممت أن ترسل سليمان لمدرسة "سان مارك" وليلى ومن بعدها منى إلى مدرسة "الإي جي سي" أو مدرسة البنات الانجليزية (التي تغير اسمها فيما بعد إلى كلية النصر)، وأن تغمر الملجأ بالعطايا والهبات لعل في ذلك يكون

السبب المكنون الغامض لديها، المطوى سره إلى الأبد تحت غلالات المشيئة الإلهية، التي بسببها ومن أجلها انقلبت حياتهم هكذا رأسًا على عقب!

* * *

فراغ قاتل تركه الشيخ حسنين وراءه، وفجوة في حياة داود عبد الملك لم يستطع أن يملأه العمل أو تشاغله بأمور الحياة من إدارته لشئون المصنع إلى رعايته لأسرته. وكأنه ثقب في جدار نفسه تتسرسبت من خلاله أسباب السعادة، فحال دونما أن يمتلئ قلبه بالفرح أو روحه بالرضى. أشعل سيجارة وهو يسير متفكرا، ما يزال يفتقد "الصداقة" التي كانت تجمعهما في العمل وحول الطرب والسهر، أو حتى التفكه بفعل سجائر الحشيش الملفوفة بعناية التي كان يتفنن الشيخ حسنين في اخراجها كأبهى ما تكون، بل ويتبارى بجودة صناعته بين أترابهما الذين قد يتقابلوا معهم خلال سهراتهم معًا فيدعوها متفاخرا وهو يقف في وسطهم وهو يرفع بها بين أصابعه بحب وحنو في وسط مجلسهم فيقول:

- "وسع يا جدع للعروسة"! بالمقارنة ب- "الشمطاء" أو "العرجاء" أو "الحزينة" التي قد يجسر أحد سواه أن يلفها في محضره. وجد داود نفسه يحمل عوده الصامت تحت ابطه

ويتجه لمقهى الأسطى محمود القرش ذات خميس ليبتاع قطعة "مزاج" لعله يملأ به ذلك الفراغ الذي ينال منه أو لعله يفاجأ بالشيخ حسنين جالسًا هناك.

إستقبلوه – والحق يقال – أجمل استقبال، بل وصاح الأسطى محمود بصبيه "الهُِن" أن يعيد تنظيم الكراسي بركن المقهى الداخلي لدواعي السلطنة! فقد هل الخواجة داود في ميعاده وقد اجتمع أهل المزاج والفن والفرفشة بالمقهى، فجلس بينهم وقد رسم صورة ابتسامة على صفحة وجهه، إذ لم يجد صديقه الغائب بينهم، وأخذ يعبث بخاتمه الفضي حول إصبعه. ثم بدأ صوت المذيع ينبعث من موجات الراديو القابع بصدر المقهى، يقدم من خلاله حفلة أم كلثوم الشهرية – ولم يصدق داود أن فاته أن اليوم كان الخميس الأول من الشهر– حيث كانت تعتزم كوكب الشرق أن تقدم أغنيتها الجديدة التي يقول مطلعها:

شمس الأصيل دهبّت   خوص النخيل يا نيل

تحفة ومتصورة   في صفحتك يا جميل

والناي على الشط غني والقدود بتميل

على هبوب الهوا   لما يمر عليل

وانساب صوت "الست" يجتاح كيانه فيغسله من كل بوادر تعثر، فحل–ق معها عاليا ثم مد رجليه من تحته وتحسس موضعهما فوق الأرض من جديد، فشعر مجددًا بأنه قادر على مواكبة هذه الحياة بكل ما تحويه من متناقضات، حتى لو كان هو من يجلبها على نفسه بنفسه.

* * *

أيام وأيام تمر بها ولم تسمع من داود فانتابها شعور دفين بأنه لن يعود. مرات ومرات مرت من أمام بيته وتطلعت بشوق نحو شقته لعلها تلمحه، أو لعلها تبصر بصيص من ضوء ينبعث بها يعيد إليها الأمل. إلتفت حولها غلالة سوداء كئيبة ولاحت نهاية مشوار علاقتها مع داود تطل إليها باصرار فتزداد ظلمة حياتها ظلاما. أطلت عليها فكرة الموت – لا تدري من أين – تلح عليها مرات ومرات. كم من مرة تباطأت قليلا وهي تعبر الطريق لعل سيارة قادمة تنهي عذاباتها إلا إن أبواق العربات كانت دومًا تفزعها، فتنتفض هاربة عند آخر لحظة. بل ووقفت ذات يوم ذاهلة فوق شريط الترام العابر وقد لاح لها طيف "أمينة" صديقتها تبتسم إليها وتلوّح بيدها، إلا أن رنين جرس الترام المدوي أفاقها، فاندفعت نحو السلامة لحظات قبل أن تكتسحها عجلاته الحديدية.

ومع مضي الأيام إزداد إلحاح نفس الفكرة عليها بأن داود قد لا يعود إليها أبدا.

الفصل الثاني عشر

تلتف أصابع الزمن من حولنا فتجمع الأصحاب تارة وتفرق فيما بينهم تارة أخرى. وفي ميدان المنشية أيضًا، وعند إنتصاف صيف عام 1956، وبالتحديد في مساء السادس والعشرين من يوليو هبت نسمة لطيفة خففت من حرارة الجو واضفت نوع من البهجة حول المجتمعين في الميدان، كما تجمعوا منذ نحو عامين. توافدت الآلاف من جديد، مدعوون من قبل أولى الأمر في هذه المرة، ورجالاتهم المنتقين والمنتشرين بين جموع الشعب ووسط المصالح والشركات والمصانع، ومن بينهم داود عبد الملك، نعم. كحقيقة واقعة هذه المرة، ولم تكن شطحة من شطحات خياله كالتي انتابته قبل عامين. إجتمعوا في ذات الميدان ليستقبلوا الزعيم والقائد يلقي إليهم خطابه المرتقب بمناسبة أعياد الثورة وذكرى جلاء الجيش الإنجليزي عن مصر. كان "داود" قد تلقى دعوة للحضور من نقابة العاملين الممثلة في شخص "عبد الحميد مصطفى" رئيس اتحاد العمال الشاب الذي يعمل في مصنعه، والذي كان يُذكره دومًا بابنه "فؤاد" الذي رحل عنه إلى إسرائيل قبل سنوات، ولم يعد يسمع منه تاركا وراءه حرقة القلب لغيابه والحيرة والغموض عما آلت إليه حياته. وجاء "جمال" في

موكبه الرائع تلفه عاصفة من التصفيق وتقدم نحو المنصة وسط نداءات الجماهير بصيحاتها الجهورة، وبدأ يتكلم عن التغييرات التي ألمّت بمصر في السنوات الأخيرة، وداود يتفكر في التغييرات التي ألمت به شخصيًّا في السنوات الأخيرة! وتأمل داود الناس من حوله وأبصر في عيونهم ذلك البريق المبهج الذي جمع فيما بينهم، وشعر داود بفرحة لوجوده وسطهم يتشارك معهم تلك اللحظة التاريخية (كما كان قد أدرك فيما بعد). وأعلن "جمال" في نهاية الخطاب عن تأميم شركة ملاحة قناة السويس لتصبح شركة مصرية، وسط هتاف الجماهير المحتشدة. إلا أن داود – وبالرغم من إعجابه الشخصي بجمال – لم يستطع أن يمنع عنه تلك الغصة التي انتابته لما تفكر به من احتمال انتقام فرنسا وانجلترا المتوقع واين سيؤدي هذا بالثورة التي كانت ما تزال بعد تخطو أول خطواتها في إدارة شئون البلاد. وقف يصفق مع المصفقين ولكن خاف داود على الثورة ومن أجلها، وخشى على كفاحاته الوطنية ومشاركته لعبد الناصر أفندي والشيخ حسنين إياها من أجل مصر أن تضيع هباء، وربما أدى به ذلك التوتر الداخلي لأن يصفق بحرارة "أقل" أو أن يهتف بصوت "أدنى" من باقي الجماهير من حوله، وإذ به يفاجأ بإثنين من رجال

الحرس يقفان بالزي العسكري عند جانبيه، إقتربا منه فورًا عقب انتهاء الخطاب، وتلاصقا بكتفيه، حين همس احداهما في أذنه أن يتبعهما، فسار مذعنا بدون أن يتردد وتبعهما في صمت، دون أن يتساءل حتى عما كان قد اقترفه من ذنب، لأنه شك، بل أيقن – في قرارة نفسه – بأنه لم يرحب فعلا بذلك القرار كما كان ينبغي له أن يرحب به وإن كان يتساءل لوكان قد بدر منه فعلا ما يوحي بعدم الترحيب، وكيف تسنى لهم أن يدربوا مثل هؤلاء الرجال إلى هذا المستوى من الكفاءة، التي تتيح لهم أن يلتقطوا بها أتفه التصرفات الموحية عن أفكار قد تدور بذهن المواطنين. ثم انتبه فورًا إلى أنهم قد يدركوا الآن ما يدور بفكره فيزداد معه عقابهم إياه، فتوقف فجأة عن التفكير.

في غرفة بمبنى عادي، واحدة من العمارات المحيطة بميدان المنشية أو ميدان "محمد علي" كما يسمونه، دخل داود أولا ثم تبعه واحد من الحارسَين الذين أتيا به بينما بقى الآخر خارجا. غرفة بسيطة الأثاث وكأنها حجرة مكتب محام صغير أو محاسب قانوني في شقة متوسطة الحجم، يغلفها الظلام بشكل عام وعند المكتب جلس ضابط وأمامه أباچورة مشعة بهالة من الضياء – هي مصدر النور الوحيد بالغرفة –

تنعكس فوق وجه حاد الملامح منكب على دفتر كبير أمامه منشغل عنه بالكتابة، بدا لداود لأول وهلة أنه كان يعرفه أو على الأقل قد تلاقى واياه من قبل. ألقى إليه بالتحية العسكرية ثم انصرف الحارس الذي كان قد جاء به. وفعلا لمّا كف الرجل القابع أمامه عن الكتابة ورفع رأسه نحوه تذكره على الفور؛ "كامل فياض" صديق جمال عبد الناصر الذي لاقاه بسان استفانو، ذلك الضابط الذي كان قد قدمه له قبل الثورة كرئيس الحركة بالإسكندرية والوجه البحري على ما كان يذكر، فابتسم قليلا مدركا سهولة مأموريته الآن في إقناع هذا الرجل بحسن نيته وبمحبته واحترامه للرئيس الذي كان هو شخصيًّا شاهدا عليها عند لقائهما الأول، حتى وإن كان لم يصفق لقراره بتأميم القناة – فعلا بالقوة المطلوبة.

وقف داود أمام المكتب منتظرا دعوته له أن يجلس إلى إحدى المقاعد الخشبية المرصوصة من حوله من نوع تلك التي تؤجرها من محلات الفراشة لإحياء فرح، أو عزاء لميِّت، ذكره منظرها بصديقه الشيخ حسنين، فلاح له طيفه وتساءل عمَّا يكون حاله عليه في تلك اللحظة بالذات. ولمّا رفع الضابط أخيرًا وجهه نحوة وقد ألبسه بمشروع ابتسامة مصطنعة، أشار إليه بأن يجلس قائلا:

- "إتفضل أقعد يا خواجة داود". ثم ضغط على زرار أمامه ملأ رنينه الغرفة كلها، فانفتح الباب وفوجئ داود بأن الداخل لم يكن إلا العامل الشاب "عبد الحميد مصطفى" الذي كان قد دعاه لحضور خطاب الرئيس جمال، وأما هو فحيّا الضابط الجالس تحية عسكرية أيضًا، ثم أومأ بجدية لداود - صاحب المصنع الذي كان يعمل به - دون أن يفتح فاه بكلمة واحدة، وبعدها اتخذ المقعد المقابل له وجلس صامتا وغابت نظراته مشتتة بأنحاء مختلفة بين الضابط والأوراق أمامه وبين جدران الغرفة، ولكنه تعمد ألا تلتقي أبدًا بعيني داود. ساد السكون النسبي في الغرفة - إذا ما تغاضينا عن هدير الجماهير الآتي من صوب الميدان - لبرهة من الوقت، قطعها كامل فياض قائلا بلهجة رسمية، وموجها كلماته لعبد الحميد الجالس قبالته كالكلب المخلص حيال سيده، والذي كان ينظر إليه منتظرا أي إشارة أو إيماءة منه تدعوه لأن يتحرك من مكانه:

- "إحنا متشكرين قوي يا عبد الحميد، وسيادة المقدم فاروق التابعي هايبقى يتصل بيك بعد يومين علشان يبلغك بقرار الخواجة داود، ودلوقت تقدر انت تتفضل مع السلامة". فهب الشاب من مقعده مؤديا التحية العسكرية ثانية، ثم

استدار منصرفا دون أن تتلاقى نظراته مع داود أيضًا. وانشغل عنه الضابط ثانية يكتب بعض الكلمات في دفتره وعاد الصمت فارضا ترق–به وحذره حول المكان، ولكن لمّا لم يتقبل داود استمراريته الثقيلة قطعه متسائلا:

– "قرار إيه ده إللي سيادتك قلت عنه لعبد الحميد يافندم؟". لكن استمر تشاغله عنه لفترة وجيزة ثم رفع كامل فياض رأسه عن دفتره وقال بابتسامة عريضة:

– "قرارك – طبعا – يا خواجة داود!". وهز رأسه متخابثا وعاد لدفتره. شك داود في أن الموضوع لا يتعلق بتصفيقه الفاتر حيال موضوع التأميم، فعاد يتساءل وقد ملأه الفضول:

– "أيوه يعني بخصوص إيه يا فندم؟". فأجابه على الفور وكأنه يغير سياق الحديث:

– "إنت مش فاكرني ولا إيه يا داود؟" قهقه الرجل بضحكة فجة عالية ثم قام من مقعده ودار حول المكتب حتى وصل إلى المقعد الذي كان يشغله عبد الحميد من قبل وجلس به وما يزال يضحك مصوبا نظراته نحو داود الذي ارتسمت فوق وجهه ابتسامة بلهاء ملؤها الحيرة عما يثير الضحك في

تلك الكلمات السخيفة التي نطق بها الرجل حتى الآن. ولكنه أجاب رغما عنه:

- "طبعا فاكرك يافندم. البكباشي كامل فياض، ولا دلوقت زمانك بقيت أميرالاى ماشاءالله!"

- "اللواء كامل فياض يا خواجة داود، (أميرالاى) و(بكباشي)، الألقاب بتاعة زمان دي راحت لحالها خلاص، ولا إيه؟".

شعر داود بأنه يخضع من قِبَل الضابط لتحقيق - غير رسمي طبعا - إذ غاب عن الغرفة من يدوّن الأقوال بص-يغة السين والجيم مثلا، ولكن ملأ المكان ذلك الشعور بالاستنفار والتعالي والنبرة العدائية من قِبَل المحقق، والشعور بالدونية عند المتهم الذي عادة ما يصاحب التحقيقات الرسمية. أخرج علبة سجائره من جيب السترة مادا رأسه للأمام ومتسائلا بنظراته عما إن كان مس-موحا له بأن يدخن، ولكن الرجل قال له بلهجة قاطعة:

- "لأ بلاش، أصلي عندي برد ومش مستحمل دخان السجاير ده". لاحظ داود علبة سجائره الملقاة على ظهر المكتب بجانب منفضة السجائر المملوءة بكعوب منطفئة،

فأدرك أن المسألة شخصية، وإنه يسعى لأن يستفز مشاعره ويضيق الخناق من حوله. ولكنه أبى أن يمكنه من ذلك. إنها إذن لعبة مدبرة ولابد له أن يخوضها بحذق وإلا خسر! تساءل عما كانت قلة حماسته لقرار تأميم القناة يستحق كل ذلك! ولكنه تذكر السؤال الذي كان الرجل قد طرحه من قبل، فوضع علبة السجائر في جيب سترته في هدوء وأجابه عن تساؤله ببشاشة قائلا:

- " طبعا يا سيادة اللواء الألقاب بتاعة زمان، وكل حاجة من ريحة زمان، خلاص ول-ت من زمان! مشيت وراحت لحالها! ماهو عشان كده (زمان) بقى إسمه العهد البائد!. المهم نرجع بقى للنهاردة، ما قلتليش بقى سعادتك عن سبب إستدعائي هنا الليلة وعن القرار إلي هايعرف بيه عبد الحميد مصطفى ده يبقى بخصوص إيه؟".

- " بخصوصك طبعا يا خواجة!"

- " تقدر تقول لي (داود)، يا فندم. أنا مش خواجة!"

- " لكن الناس كلها عارفة إنك (الخواجة) داود. مش كده ولا إيه يا (خواجة داود)؟".

أدرك داود مأربه من خلال كلماته الإستفزازية، فآثر الصمت وابتسم. ليس موضوع تأميم القناة، ولكن كامل فياض كان له بالمرصاد، كان يمارس الضغط عليه وعلى أقرانه من اليهود الذين بقوا في البلد حتى يرحلوا عنها. فالمواجهة بين مصر وإسرائيل أصبحت وشيكة، وخاصة بعد صفقة الأسلحة التي حصل عبد الناصر عليها من تشيكوسلوفاكيا، ووجود اليهود على أرض مصر أصبح يهدد الأمن القومي لإمكانية تجنيدهم من قِبل إسرائيل، وخاصة بعد فضيحة "لاڤون" الشهيرة – أو پ–نهاس لاڤون وزير الدفاع الإسرائيلي – التي كانت قد ملأت الأسماع وتصدرت عناوين الصحف منذ بضعة أيام حين انفجرت بعض المفرقعات في مكتب بريد في الثاني من يوليو بالإسكندرية، ثم في الرابع عشر من يوليو في المركز الثقافي الأمريكي بالقاهرة والإسكندرية، وتم القبض على "روبرت داسا" اليهودي المصري بعد أن انفجرت قنبلة بالخطأ في أحد جيوبه، فتبينت السلطات المصرية أن المخابرات الإسرائيلية قد قامت بالعملية بمساعدة يهود مصريين جُن–دوا خصيصا لأجل تنفيذها، فاستقال على إثرها وزير الدفاع الإسرائيلي. ولكن على أي حال لم يرد سيادة اللواء فياض أو أحد من القيادات أن يصطبغ ذلك الضغط بأى

شبهة من العنف، مراعاة للمظهر العام الذي رأت الثورة أن تبدو عليه، وداود عبد الملك بالذات كان صديقا للرئيس ولوالده، فكان ينبغي أن يتعامل معه بكل حرص وحذر لئلا تتفاقم الأمور. قال له معاتبا:

- " إنت زعلت ولا إيه ده أنا باهزر معاك ياراجل!". إستفزته أكثر تلك الإجابة وشعر بأن الرجل كان أكثر مهارة في إدارة اللعبة مما كان قد تحسب، فعقب داود وقد بدأ الإنفعال يزحف فوق ملامحه:

- " مش هاين عليك تقولها؟ (ياراجل) برضك؟ مش قادر تنطق إسمي (داود) من غير ما تس-بقه ب- (خواجة) بتاعتكم دي؟ تقوم تقول لي يا راجل؟. بقى بزمتك يا شيخ ده شكل خواجة؟" وأمسك بوجنتيه قابضا بهما بين أصابعه وأضاف بهدوء مفتعل مصحوب بنبرة سخرية:

- "بص كويس وأحكم سيادتك، وأنا راضي باللي تحكم بيه! بقى بزمتك دي سحنة خواجة دي؟" ولكن زاد إنفعال داود من هزلية الموقف في عينه من جديد، فضحك الضابط كامل - الذي أصبح (الآن) لواءا بجيش مصر - بعصبية، إذ كان لا يمكن أن يسمح لذلك الرجل الحشرة أن ينفعل أمامه هكذا! - حتى لو كان صديقا للرئيس - ضحك أيضًا نفس الضحكة

العالية الفجة المشوبة برائحة الريف والطين وروث البهائم، ضحكة الحقول المفتوحة المترامية تتراقص الضحكة من فوقها وتبتعد حتى تختفي فلا يرجعها صدى ارتطامها بجدار قائم من حولها.

- " شوف بقى يا داود يا عبد الملك، إنت راجل كبير وفي سن والدي، وأنا بصراحة عاوز أساعدك، ومش هاين عليّ أشوفك متبهدل! لو كنت عاوز تسيب البلد زى قريبك (بنيوتي باشا) ما سابها، أنا ممكن أساعدك تبيع مصنع الدخيلة، والفيلا، والعربية - بسعر كويس جدًّا - وأدبر لك جوازات السفر للعيلة كلها - من غير (قمر) طبعا - علشان تخرج وانت معزز ومكرّم وفلوسك في جيبك تعرف تعيش بيهم (مَلِك) برة مصر!" وعاود قهقهته المستفزة، تملأ الغرفة جلبة رخيصة وهو يعيد على مسامعه بين جلجلات ضحكاته بلكنة متناغمة:

- "بس بشرط من غير قمر!. والليلة تسوَى إيه من غير قمر!. يا اللي سبت نجوم الدنيا علشان قمر!"

أدرك داود قواعد اللعبة أخيرا!

يلوحون له بمعرفته بكل شئونه العامة والخاصة ويغلفونها بلهجة تهديد - بل وبفضيحة! - إذا ما أصر أن يعارضهم ولم ينصع لرغبتهم في أن يترك البلد! ولكن ماذا الذي يدفعهم لمثل ذلك الفعل المشين ولماذا الإلحاح عليه أن يرحل؟ لايدري.

الشيخ حسنين وإخوانه المسلمين أولا، ثم كامل فياض وضباط الثورة الآن؟. لايمكن أن يكون ذلك القرار صدر من جمال عبد الناصر شخصيًّا فهو يعرفه جيدا وهو لا يمكن أن يقر بذلك. ولابد له إذن من مواجهته بنفسه ليعرف منه رأيه في ذلك الأمر.

- "طيب تسمحلي بمهلة أفكر يا فندم؟.

- "أسبوع كفاية؟"

- "شهر يا سيادة اللواء!. شهر. الموضوع مش سهل بالمرة. ده قرار صعب ومحتاج تدابير وهايتوقف عليه مصيري ومصير ولادي".

- "وقمر؟ قصدي أقول الست أم لطفي. على فكرة حبيت أقول لك تبلغها إن طليقها - وصاحبك - حسنين البصري، تعيش انت!".

ماذا قال؟ مات؟ الشيخ حسنين مات؟ ولكن كيف؟ ولماذا؟. وكأنه يقرأ أفكاره، إستمر "كامل فياض" في سرده الخال من أي إنفعال وكأنه يحكي له قصة مسلسل شاهده على شاشة التليفزيون:

- "أصله كان بيحاول يهرب من السجن، فطلعوا عليه الولاد بتوع الحراسة، موتوه!." وابتسم بخبث وغمز له، ثم أضاف:

- "البقية ف حياتك انت بقى!" وقام ومن جديد دار حول المكتب ليجلس خلف المكتب بمواجهته ثم قال:

- "وبلغني كمان إنه اندفن هناك في الصحرا وعلى حساب الحكومة ياعم! إبقى بلغ المدام انت بقى على راحتك على بال ما يوصلها الجواب في البوسطة. خلاص يا خواجة داود قدامك شهر تفكر!". وبسط كفيه فوق صفحة المكتب معلنا له أنه إنتهى من كلامه، وبأن المقابلة معه قد انتهت.

"مات؟"

"بهذه السرعة؟"

"الله يرحمك يا شيخ حسنين ويرحم أيامك!"

استأذن داود وانصرف وهو يحارب دمعه حتى لا يفر أمام الرجل الغريب، وهو يعبث بالخاتم الفضي حول إصبعه في عصبية متسائلا عما إذا كان قد فقد مفعوله السحري!.

"مات؟"

وفوق درجات السلم المظلمة لم يستطع داود أن يكتم مشاعره أكثر فوجد نفسه ينتحب، وقد غمر الدمع صفحة وجهه. بكى الشيخ حسنين الذي مضى عنه ثم لم يلبث أن بكى نفسه وقد عزموا الأمر على أن يرحل هوأيضًا.

* * *

تمت المدة التي كان ينبغي لهم أن يقضوها بليمان طرة بعد أن صدرت ضدهم الأحكام بالسجن، وبعد إعدام لفيف من قادتهم، عُودة وفرغلي وهنداوي، الذين كان يعرفهم شخصيا، إلى جانب صديقه الشيخ حسنين، بالإضافة للآخرين الذين لم يكن يعرفهم، فبكاهم كلهم ليال طوال شاعرا بالفراغ المخيف الذي تركه رحيلهم عنه. ثم رؤى أن ينقلونهم من سجن "طره"، إلى سجن "الخارجة" في وسط الصحراء الغربية. وبالرغم من كونه يبعد نحو مائتين وأربعين كيلومترا من مدينة أسيوط داخل الصحراء، إلا أنه اعتبر سهل الهروب منه حيث كان عبارة عن

مجموعة من الخيام يحيط بها سور من الأسلاك الشائكة. وعليه فتم نقلهم – من جديد – إلى سجن "قنا" الحصين، الشديد الحراسة. هكذا كالقطيع يساقون من مجزرة إلى مجزرة، وحتى يحين موعد الذبح!

"تحيا الثورة!".

سرح بهذه الأفكار ذهن "محمد البوري" وهو قابع بالزنزانة المكتظة بالنزلاء وقد اكتسى جسمه كله بالعرق اللزج، واتخذ له ركنا وجلس مقرفصا وعيناه شاخصتان نحو النافذة الوحيدة في العنبر المزدحم. عبَر شعاع عينيه قضبانها الحديدية السوداء، نحو السماء الصافية الزرقة من وراء مبنى السجن وجدرانه، التي تبخر عنها – بفعل تلك الحرارة الفظيعة – كل شائبة تشوبها، وأى تجمع سحاب فر هاربا من قيظها شمالا نحو مدينته الرائعة والحبيبة التي افتقدها: الإسكندرية! حيث زوجته زينب وأبناؤه الثلاث محمد ومصطفى والصغيرة ميّ. وابتسم بالرغم من كل ما كان يحيط به من أسباب تدعوه – بل وتلح عليه – أن يبكي وأن يكتئب أو حتى – والعياذ بالله – بأن ينتحر ويستريح!. ومع ذلك فقد ابتسم لمَّا تذكر "محمد" ابنه الأكبر وما حدث له قبل أن يأتوا به إلى هنا. مد عنقه وأداره من حوله وألقى نظرة من حوله وكأنه ينتقي من

بين المساجين ذلك الرجل الذي سوف يستمتع معه حين يقص عليه قصته مع ابنه البـ-كري، ولكنه لم يجد ذاك الصديق المختار بعد أن رحل الشيخ حسنين عنه وتركه وحيدًا ليس له من يشاركه في أفكاره وخواطره. فاكتفى بأن أغمض عينيه سارحا في ما حدث يوم أن نادى "محمد" ابنه أن يتبعه إلى حجرة الصالون ذات صباح وكان عيد الأضحى على الأبواب، وخروف العيد قد قبع في الشرفة الملتحقة بالحجرة يأكل من برسيمه في هدوء منتظرا نهايته المحتومة. أتاه الولد طائعا إلى حيث كان يجلس على الأريكة المذهبة بالغرفة، فأجلسه بجانبه، وربت على كتفه قائلا له مبتسمًا أنه قد تمتع برؤيا نورانية ليلة الأمس!. إتسعت عينا الصبي مندهشا فأزاده مكملا أن ملاكا نورانيا مجنحا قد زاره في المنام في شبه حلم ليعلمه برسالة من عند الله - سبحانه وتعالى - طالبا منه أن يذبح ابنه عندما يستفيق في الصباح، ولذلك دعاه إلى أن يتحدث معه في حجرة الصالون. إتسعت ابتسامته لما تذكر كيف تراجع ابنه في مجلسه، متسائلا في براءة عما إن كان الملاك كان قد أعلمه بالضبط عن أي من أبنائه كان قد سأله أن يذبح! فأجابه على الفور إبني البكر طبعا. فتراجع الصبي أكثر حتى صار ملتصقا بمسند الأريكة، وسأله إن كان قد نطق بإسمه

صراحة، أي ذك–ر إسمه "محمد" أم أنه ربما كان يقصد أن يذبح "مصطفى" لأنه كان دائمًا ما يتسبب في المشاكل ويغضب والده! إنفلتت ضحكة مبتورة منه وهو يتذكر كيف قفز الولد من فوق الأريكة لم–ا قال له أن الملاك قد قال له أن يذبح "محمد"، فدفع الصغير بالباب تاركا حجرة الصالون، ثم قالت له "زينب" زوجته فيما بعد أنه جرى نحو غرفة النوم وهو يصرخ في وجه أخاه الأصغر أن يقوم على الفور ويتبعه إلى خارج المنزل حيث أن أبيهما قد جاءته رؤيا أن يذبحهما! هو أولا، "ثم لا بد وأن يذبحك أنت أيضًا يا مصطفى من بعدي لأنك أساسا ولد عفريت وأفسدك تدليل أمك لك. يبدو أن الرجل قد جُن! ". وفعلا هب الإثنان معًا وفي لمح البصر كانا قد اختفيا إلى خارج المنزل، مختبئان بالشوارع المحيطة، بعيدًا عن (سكين) أبيهما الذي كان قد أمره ربه أن يذبحهما به!. ولم يعيدهما إلى البيت بعد ذلك إلا "الأسطى سالم" الكواء عند رجوعه من تسليم شغل عند شارع الفكهاني حيث كانا واقفين على الرصيف، لقيهما في طريقه وهما يتابعان مباراة لكرة القدم تجري في وسط الشارع!. ابتسم محمد البوري متفكرا: أولاد عفاريت! بالقياس بالملاك الصغيرة ميّ، وآه من ميّ! وعيون ميّ! وشعرها الهائش وهي تجري بخطواتها البريئة

المتعثرة من حجرة إلى حجرة بشقتهم بالحض–رة تملأ المكان بكلماتها المضغومة الغامضة التي لا يفهمها سوى ابنه محمد. ابتسم وابتسم. ثم قهقه ضاحكا فتابعته عيون الإخوة من حوله متعجبين من ضحكاته وسط ذلك البؤس المحدق بهم، ملاحقين إياه بالدعوات لأن يحفظه العليّ سبحانه من الجنون!

كان قد غاب كلية عن حاضره. نافضا عن ذهنه تلك الرائحة العفنة لهذه الأجساد من حوله التي لم تغتسل أو حتى تقترب من الماء منذ ثلاثة أيام، وتلك (العفريتات الزرقاء) المبرطشة بدوائر العرق المحاطة بحواف بيضاء من الملح المجفف، وتلك الوجوه العفرة والرموش وفروات الرءوس واللحى المكسوة بالتراب، الذي حل فوقهم من وقع أقدامهم تدب فوق الأرض النضبة الصحراوية صانعة هالة من القذارة من حولهم، سيقوا خلالها عبر رحلتهم الشاقة وتنقلاتهم بين عربات اللوري وعربات القطار طيلة الأربعة والعشرين ساعة الماضية. وبقدرة الفنان الخلاق بدل كل ذلك في مخيلته برمال وأمواج شاطئ سيدي بشر الذي كان يعشقه، بنسمة الهواء الحاملة لرائحة البحر المنعشة في طياتها، التي تنساب فوق الأمواج الراقصة لحظة الغروب، وهو واقف هناك وفرشاته في يده يرسم ويرسم ويرسم، وملأ أنفه وصدره من ذلك الهواء النقى في شهيق

ممتد، إنتهى فجأة بموجة حادة من السعال انتابته، مع إحساس بالغثيان جلب الدمع لمقلتيه.

قرر الثورة على ذلك الواقع، بينه وبين نفسه كأقصى ما كان يستطيع من تغييره وبدون أن يتعرض لعنف السجانة وبطشهم؛ قرر أن يعاود الرسم! لو لم يستطع أن يقترب بنفسه من الحلم، فينبغي أن يأتي بالحلم إليه ويجلبه إلى حيث هو قابع! ولو في "قنا"!

* * *

- "بوسطه!"

تلقت قمر النداء المصاحب لطرق الباب بإجفائة انتزعتها من تقطيع البصلة في يدها، فمسحت دموعها - من تأثير رائحته اللاذعة - بطرف ذيل قميص المنزل الذي كانت ترتديه واتجهت نحو باب الشقة تستطلع الخبر. كما نستشعر أحيانًا وجلا لا ندري كنهه حيال حدث أو لقاء ما، شعرت قمر بشعور خفي بعدم الراحة تكللها تلك الطرقات التي تبدو عادية للوهلة الأولى. ولكنها منذ يومين تتمتم بينها وبين نفسها "خير! اللهم اجعله خير!" كلما طرق الباب طارق، وكلما تعالت صيحات الأطفال وهم يلعبون في الشارع أمام بيتهم، وكلما نما

إليها صراخ بوق سيارة من ناحية شارع السوق أو صوت عجلاتها تصفر فوق الطريق، تشهق وتقول: "اللهم اجعله خير!". وكم امتلأت ليلة الأمس بالكوابيس المزعجة التي أضجت مضجعها عشرات المرات، والتي أعزتها لطبق البامية المثقل بالثوم، التي كانت قد أكلته على العشاء من قبل أن تنام مباشرة، بالرغم من إلحاح أمها المستمر لها بخصوص أكل البامية قبل النوم، وذلك الصوت الداخلي الذي كرر تحذيره لها وإن لم تصغى إليه!. لم تكن مستعدة لأن تطرح هذا التساؤل على نفسها بعد، ولكن داود أيضًا لماذا لم تعد تسمع منه؟ منذ أسبوع أو أكثر لم تره أو تلمح ولو ضوءا ينبعث من شقته حين مرت بها ولعشرات المرات خلال مشاويرها لقضاء حاجيات بيتها في الأيام القليلة الماضية، حتى أنها كادت تجن!. ولكن، وبما أنه لم يحدث شيئًا يؤكد هواجسها خلال اليومين الماضيين، قالت قمر لنفسها ألا تكترث لمثل تلك الأصوات بداخلها، التي أعزتها لوسواس "الخناس" برأسها، وهي تمد يدها – بعد أن مسحتها في ثوبها – إلى مقبض الباب وهي تلويها ولا تزال تقول مرتاعة:

– " خير! اللهم اجعله خير!"

- "صباح الخير، السيدة قمر حسين السك–ري؟" قالها شاب رفيع طويل القامة ذو ابتسامة لطيفة تضفي آدمية وطلاوة على زيه الرسمي، وطاقيته المدفوعة للوراء بحافتها الرخيصة اللامعة جعلته يبدو أشبه بكمساري الترام أكثر من عسكري قسم الشرطة، وقد حمل حقيبة جلدية مليئة بالأوراق والخطابات المتراصة عموديا، برزت جوانبها عندما رفع غطائها الجلدى المطوى أمامها ليخرج الدفتر العريض المهترئ الملئ بالخطوط الطولية والعرضية، ثم أخرج ورقة الكاربون السوداء ووضعها بعناية شديدة بين ورقتين بالدفتر.

- "أيوه ياخويا أنا قمر. خير؟" ناولها مظروف ممتلئة صفحته بالطوابع والأختام، حتى وكأنهم لمَّا وجدوا أنه لم يعد يخلو منها أي جزء بواجهته بعد، قرروا أخيرًا تسليمه إياها.

- "إتفضلي إمضي بالإستلام هنا. ولا تحبِّي تبصمي؟" وأشار باصبعه إلى مربع أسفل الصفحة وعند نهاية سطر قرأت قمر إسمها مقيدا في أوله، فأمسكت هي بقلمه وكتبت إسمها الثلاثي، ثم تناول منها الدفتر وسألها بدوره عن رقم بطاقتها، ولكنها لم تكن تحمل بطاقة شخصية، فدون هو ذلك في الدفتر ثم أعاد وضعه في حقيبته وأعاد غطاءها حازما جانبيه بتأن وربت على الحقيبة مرتين برفق معلنا عن اتمام مهمته، ثم

ابتسم متمهلا ولكنه أدرك أنه لن يحظى منها بأى بقشيش فاستدار وانطلق يعدو فوق درجات السلم مسرعًا ليلحق بمهمته التالية.

سحبت هي أحد الكراسي الملتفين حول مائدة الطعام في وسط الصالة عند الناحية المقابلة لحيث كانت تجلس وهي تقطع البصلة وتقل–م الخضروات لإعداد طعام الغداء، وجلست تفض الظرف عن الخطاب وهي تبسمل مرتجفة. وفي صمت وتأن قرأت كل حرف بالخطاب الموجه إليها من وزارة الداخلية، وبإمضاء اللواء الفلاني رئيس مصلحة السجون، ينعيها بكل أسف لموت طليقها الشيخ حسنين..

" مات؟"

" لا. بل ق–تل!"

" الشيخ حسنين لايهرب أبدًا!"

" قتلوه!"

" لا لم يقتله سواى! أنا التي قتلته. أنا!"

" أنا من دفع بالخواجة داود لأن يشكوه عند الحكومة. لأنه ضربني!"

بهذه الخواطر اشتعل ذهن قمر ولم تستطع السيطرة عليها. وفي غمار الكآبة التي كانت تسبح في لجتها أياما، لم تتجاسر أن ترفع عنها تهمة القتل واستسلمت لذلك التيار القهري يحملها فوقه إلى مصير تجهله. وبكت، وبكت، وبكت حتى ذبلت عينيها من طول البكاء، بكت الشيخ حسنين أولا لأنها قتلته! نعم قتلته، وهبطت سحابة سوداء وكأنها من السماء فشملتها من قمة رأسها وإلى أخمص قدميها، ولم تستطع أن تفلت من قبضتها، حزن غير عاد امتلك روحها فبكت أيضًا، ووجدت نفسها غير قادرة عن أن تكف عن البكاء. إعصار من البكاء والحزن اجتاح كل مشاعرها، ولكنها بدلا من أن تستجمع رباطة جأشها، وجدت نفسها فجأة تنزلق بل وتمعن في الهبوط وبسرعة نحو تلك الهوة العميقة التي كانت قد بدأت تنحدر إليها. بدأت تستحضر وجه "أمينة حلمي" صديقة عمرها، وهي تعدو خلفها وتصرخ نحوها أن تقف، أن تلتفت إلى الترام القادم، وتصرخ وتصرخ، بينما تطير أمينة كالمجذوبة نحو نداء غامض يهيب بها ألا تتوقف وألا تنظر ناحية العجلات الحديدية برنينها المدوى وصراخ قمر يدفعها أن تعدو ووجها الجميل ملتو للخلف، ملتفت بل ومشدود ومثبت بفعل قوة سحرية كالمغناطيس تجذبه نحوها هى، وتعلو وجهها

تلك الابتسامة الغامضة التي ألقتها إلى قمر وكأنها تودعها بها، أو كأنها تعلمها بأن سرهما سيبقى خفيّا إلى الأبد!.

نعم سرهما الذي طالما أرق مضجعيهما!. فكيف كان لواحدة منهما أن تواجه الحياة الطبيعية المنتظرة منها بعد أن ذابت عشقا تجاه الأخرى، وبعد كل تلك القبلات والملامسات والأحضان وإرتجافات الحب المحمومة التي اعترتهما لسنوات طوال، إختلتا خلالها ببعضهما لساعات وليال طوال. تعاشقتا وتعاهدتا مرات ومرات فيما بينهما أن يبقى حبهما سرا وإن دام للأبد!. شعور رهيب هو مزيج من الخوف من الفضيحة لو تسرب ولو جزء من سرهما عند الأهل أو الجيرة، ومن عذاب النار الآت – وهو أقل ما كانتا تتطلعان إليه إزاء غضب الله الواحد القهار – حيال ذلك الفسق والفجور الذي كانتا ترتعان فيه. ومن ناحية أخرى طفقت علاقتهما السرية المتنفس العاطفي الأوحد المتاح للفتاتين المراهقتين الطافرين قلبيهما بالحب بكل ما يحمله من نشوى القرب من الحبيب واللهفة للقائه بل والتوتر والقلق لغيابه وجفائه، مع استحالة مبادلة هذه العواطف مع شاب من الجنس الآخر لتزمت حديدي كانت عائليتهما تتمتعان به. ومع ازدياد تقاربهما انقلب استكشاف عواقب اللعب بالنار إلى اكتوائهما بها، فتحولت مشاعرهما إلى

حب جارف مجنون عصف بحياتهما معا. كانت قمر متأكدة من أن ذاك الحمل الثقيل قد ناء به قلب أمينة الصغير الرقيق، فلم تعد تحتمل الحياة خافية إياه في قلبها ونفسها بعد! نعم، بقى سرهما محفورا في قلبيهما ولكنه مع ذلك ظل مخفيا عن بقية العالم إلى الأبد، وإن لم تستطع قمر، رغم كل تلك السنين التي ما تزال تعدو بها، أن تنسى وجه أمينة المطبوع بتلك البسمة المحبة المؤَدعة، تلك البسمة التي توقف عندها زمنها واستكان.

ولم تستطع قمر أن تمحو الجرم أبدًا! ذلك الوخز الذي شعرت به يومها والذي ينتابها الآن، والذي عاودها مرارًا بطول السنين، بمسئوليتها هي عن موت أمينة، حبيبتها، كما تشعر بنفس الوخز لمصرع الشيخ حسنين، زوجها! قتلت أمينة حين أحبتها وسحرتها بعاطفتها المتأججة، وحين صرخت بها أن تحترس فتلفتت لصوتها هي بدلا من أن تبصر بنفسها الترام القادم فتنجو! قتلتها! ثم قتلت زوجها حينما طلبت من عشيقها أن يقتله عنها، فهي قاتلته أولا وأخيرا، فما كان من داود أن يخدشه لولاها هي! قتلته!. ولو استمر بها الحال هكذا فكم س-يكون لها من ضحايا أيضًا! ألم تكن تعتزم أن تقتل الست إيلين الطيبة الأميرة المستكينة التي طالما ما عطفت عليها

واحبتها، باختطاف زوجها منها، ولطفي ابنها بعد أن ألقت بأبيه في التهلكة ثم انصرفت عنه أيضًا ساعية من أجل زوج جديد!

" قاتلة!"

" قاتلة!"

" القاتل ي–قتل ولو بعد حين!"

ترددت تلك الأصوات تطن برأسها بدون توقف، وبدون رحمة أو اشفاق بها.

فجأة هبت قمر من فوق كرسيها دافعة إياه خلفها بمؤخرة ساقها فوقع، ومضت هي صامتة نحو المطبخ، ثم انثنت على ركبتيها تحت حوض الغسيل، ورفعت الستارة القماش الملتفة حول قاعدته، وبهدوء سحبت الزجاجة البنية اللون لحمض الفينيك التي تستخدمه للنظافة وقبضت عليها بكل قوتها ثم وقفت ثانية.

ظلت واقفة للحظات كالمسحورة ثم استدارت خارجة من المطبخ، واتجهت نحو غرفة النوم حيث رقد طفلها لطفي غافيا عند جانب السرير عند ناحية الحائط، فمالت فوقه وقبلته برفق لئلا توقظه. جلست قمر عند طرف السرير لدقائق وقد غشيتها

تلك السحابة من العدم فاستسلمت لها، وانتابتها موجة من التلذذ بسطوتها عليها، فلم تحاول أن تبذل أي جهد لتجنبها. لم تكن تفكر في شيء محدد، بل ولم تعد ترى الأشياء من حولها بوضوح وكأن غشاوة ضبابية قد ملأت الغرفة قبالها. ثم رفعت فجأة الزجاجة إلى فمها وتجرعتها كلها عن آخرها وكأنها زجاجة مياه غازية، ثم بهدوء أحكمت وضع الغطاء بفوهتها من جديد، ثم وضعت الزجاجة الفارغة فوق الكومودينو بجانبها، وهي ترمقها بنظرة متسائلة. ثم رفعت رجليها وهي تدور لتستلقي فوق السرير بجانب لطفي، وألقت إليه نظرة أخيرة وابتسمت، ثم أغمضت عينيها ونامت.

تراءت لها عمارة عالية اندفعت نحو مدخلها ثم دلفت كالمنصاعة وبدأت تتسلق درجات السلم الرخامية وهي تتأمل فخامتها وتتعجب من تركيبتها الحلزونية الصاعدة في وسط المبنى. وفجأة انقطع التيار الكهربائي عن المنطقة فساد الظلام. ومن ناحيتها فقد تشبثت قمر بيديها الإثنتين فوق الدرابزين واستمرت في الصعود والظلام ما يزال طابقا فلم تبصر معالم أي شيء من حولها. بدأت تشعر بالتعب الممزوج باليأس من نهاية لصعودها حين تراءى لها وجه سيدة مضاء صفحته – بالكاد – بنور شمعة يتراقص في يدها، فتحت باب

شقة في أحد الأدوار التي مرت بها في صعودها، وتقدمت السيدة – التي بدت ملامحها مألوفة لديها شديدة الشبه بأمها وإن كانت أصغر منها بكثير – ومدت بيدها الحاملة الشمعة لتعطيها لقمر وقد علت وجهها ابتسامة وإن لم تتكلم. ولكن ريح هبت فأطفأت الشمعة وغاب ضيها المنعكس على وجه المرأة فاختفت. كانت تلك الإطلالة كافية لتطمئن قمر فاستمرت في الصعود، وقد زال عنها التعب فجأة حتى صارت تركض فوق الدرج يدفعها فضول طفولي لمعرفة ما سيؤدى إليه هذا السلم الحلزوني. إنساب من بعيد صوت غناء وعود الخواجة داود يهمس، وهيئ إليها أن التيار الكهربائي قد عاد حيث أضاء مصباح معلق بقمة المبنى رفعت إليه رأسها ولكنها لم تستطع أن تتبين تفاصيله إذ كان ما يزال بعيدًا عنها، ولكن انعكاس ضيّه المريح فوق الجدران كان كفيلا لأن يبعث طمأنينة وسلام في قلبها شجعاها على المضى فيما كانت بصدده من الصعود نحو ذلك الضوء المعلق بأعلى المبنى. وكلما اقتربت أكثر من قمة المبنى كلما اشتدت حدة دائرة ذلك الضوء المبهر، الذي لم تستطع من فرط بريقه ولمعانه الفريد، أن تتبين معالم بقية الأشياء من حولها. وربما كانت تلك المشاهد المبهمة هي آخر ما قد علق بذاكرتها.

الفصل الثالث عشر

تجمعت السحب الرمادية من جديد فوق سماء الإسكندرية منذرة برحيل الصيف بأيامه الحارة اللاهية وأماسيه الطرية المبهجة، وحلول فصل الخريف. ولكن الخريف هذه السنة بالذات له طعم متميز. مزيج متشابك من مرارة الحنظل ومن حلاوة الشهد، كما تتتابع الأيام الحارة والباردة بحسب تجمع السحب وهبوب الرياح الآتية من الشمال.

ومن الشمال جاءت النكبة الجديدة أيضًا.

أسراب من الطائرات البريطانية والفرنسية تحلق فوق سماء منطقة القنال، فيما يتساقط وابل من الجنود المعلقين في كبد السماء بمظلاتهم المهولة، تلفظهم عنها جوف طائرات عملاقة تحوم حول مدينة "بورسعيد" عند رأس القنال. بينما تزحف من الشرق الدبابات والجنود الإسرائيلية تنتشر عبر صحراء سيناء، مدعمة بستار من القذائف الجوية توائم تقدمها حتى تنتشر فوق كل أرض مصر شرق قناة السويس. كارثة! لا، بل مهزلة دولية في صورة عمل عسكري بهذا الحجم للرد

على خطوة جمال عبد الناصر العنترية لتأميم القناة!. مرارة الحنظل!.

ثم ماذا عن الشهد إذن؟

الشهد جاء من استبسال أهالي مدينة بورسعيد الذين هبوا للدفاع عن بلدتهم بالعصى والطوب وبقلوب ملؤها الحب لبلدهم، وبالشجاعة والبطولة التي لا يردعها إلا الموت! نعم حركة مقاومة شعبية تلقائية بطعم الشهد! لم يكن شهدا صافيا مصفا حقا، ولا كان انجازهم نصر بأى حال، بل هكذا طالعتنا الجرائد والأخبار في كل يوم تشيد بكفاح وعناد أهل بورسعيد الذي ردع عنهم عنوان المعتدين. فليس من الشجاعة بشىء أن يثور الفأر في وجه الأسد وأن يكيل له اللكمات ثم ينتظر ردة فعله بكل شجاعة، فيستبسل للزود عن حقه من بعدها. أظهرت الأيام لي أنني كنت محقا عندما خشيت من قرار تأميم القناة الذي أعلنه جمال بالمنشية، فها هي عاقبته تحدق بالثورة وبمصر. لم يستحق تلك الميتة كل من مات في بورسعيد على أيدي الفرنسيين أو البريطانيين، أو في سيناء على أيدى الإسرائيليين، ولم يؤد اس-تبسال من بقى منهم إلى توقف الحرب، بل ولم ينهيها سوى تدخل أيزينهاور - الرئيس الأمريكي - شخصيًّا وإمرته لحلفائه بالإنسحاب الفوري. وهو

لم يفعل ذلك لكونه رجل المبادئ العظيمة، بل لدرء الزحف الشيوعي عن المنطقة والذي كان قد بدأ فعلا بدليل تهديد "بورجانين" لفرنسا وانجلترا. ولكن على أي حال، كانت تلك الأزمة بمثابة أول اختبار حقيقي لمدى شعبية الثورة واستئثار جمال عبد الناصر - زعيمها وقائدها - بقلوب الناس ونجحت معركة بورسعيد في التعبير عن ذلك النجاح.

راحت كل تلك الخواطر تجوب في ذهنه في مسيرته، وتنبه هو عندها في أنه لم يتكلم مع أي أحد منذ أربعة أيام. نعم، آخر مرة تذكر أنه لفظ بأي كلمة كان يوم الإثنين الماضي!. وابتسم لذلك الخاطر. ثم خطرت قمر في ذهنه فعاتب نفسه لأنه لم يسأل عنها لأسبوعين، ولا حتى ذهب لشقته بمحرم بك.

"ماذا يمكن أن يدور بذهنها عني الآن؟ رجل ككل الرجال، يأخذ من المرأة ما يريد ثم يلقيها عنه". ولكنه ليس كذلك، ليس ككل الرجال، سيذهب إليها ويشرح لها كل شيئ، وحتما ستتفهم بدورها موقفه.

مضى داود عبد الملك يتسكع سائرا على كورنيش الإسكندرية في ذلك الصباح الخريفي الدافئ، أحب فصول السنة إلى قلبه، حين تخلع مدينته عنها لباس "المصيف"

وتعود المدينة الساحلية الساحرة الهادئة بعد أن غاب عنها ضجيج المصيفين وجلبتهم. لم يذهب للمصنع منذ أربعة أيام، بعد زيارة "عبد الحميد مصطفى" له في مكتبه يوم الإثنين الماضي. كان قد أتم مقابلة مع رئيس الحسابات أعلمه فيها أن الأرباح قد عادت للإرتفاع بعد الكبوة التي مرت بها عند انتقال إدارته من يد الباشا إليه، ولكنه بدأبه وذكائه – مع مساعدة حفنة من المخلصين له – أدرك أسباب الهبوط في مستوى الإنتاج، وبسرعة تداركها فارتفعت من جديد معدلات الأداء وعائداتها. وإذا بالباب يطرق ومن خلال مواربته أطل وجه عبد الحميد الذي ما أن أدرك أنه وحده دخل على الفور إلى غرفة المكتب واغلق الباب من ورائه.

قال أنه جاء حاملا رسالة له من فوق! ولما نظر ساخرا نحو سقف الحجرة سأله عن ذلك "الفوق" أجابه بتعال وانفة أنه مرسل من طرف اللواء كامل فياض شخصيا، وكان ذلك ما توقعه داود بالضبط. سأله عن محتوى الرسالة فأجابه الشاب – بوقاحة هذه المرة – أن سيادة اللواء شخصيًّا يريده أن يتنازل نهائيا عن ملكيته للمصنع لمصلحة اللجنة العمالية. ابتسم داود لصفاقتهما – اللواء صاحب الرسالة ومبل-غها إياه – متسائلا بسخرية عما يمكن أن يدعوه لأن يفعل ذلك؟

فما كان من عبد الحميد أن بادره بكل ثقة بأن المصنع ليس ملكا له على أي حال وإنما ملك للشعب بعد أن أمرت "الثورة المجيدة" بتصفية أموال الإقطاعيين وإعادة أملاكهم للشعب، وحيث أن كان المصنع ملكا لبنيوتي باشا أحد إقطاعي البلد، فتؤول بالتالي ملكيته للثورة وللشعب. أجابه داود وهو يبذل كل الجهد للإحتفاظ بسكينته ورباطة جأشه، بأن بنيوتي باشا قد باعه المصنع بعقد بيع موثق، وهو بالتالي مالكه الحقيقي، وبما أنه ليس من الإقطاعيين فلا يحق لهم أن يطالبوا به. إعتقد داود أن إجابته كانت شافية فربما لم يكن سيادة اللواء الذي أرسله يعرف أن ملكيته للمصنع كانت بوجب عقد موثق، إلا أن عبد الحميد فاجأه بمستوى من الصفاقة لم يكن يتوقعه حين سأله عن مصدره من المال الذي تأتي له من خلاله أن يبتاع مصنعا يقدر ثمنه بخمسين ألف من الجنيهات! ومن خلال ضحكة فجة – ذكرته بالرجل الذي كان قد جاء حاملا رسالته – سأله عن عدد الإفراح وليالي السبوع وأعياد الميلاد التي كان قد أحياها ليتسنى له أن يجمع المبلغ! أم أن أحد – لسبب أو لآخر – كان قد هم بإقراضه المبلغ بضمان وظيفته مثلا! أو أن يكون قد اضطر لرهن العود حتى يشتري بثمنه مصنعا بخمس–ين ألف جنيه! صفاقة وقلة أدب لا حد لها!.

ملأت قهقهته الوقحة جنبات الحجرة، فهب داود من كرسيه بدون تردد وطرده من مكتبه في الحال، ولكن بعد أن أبلغه برسالة مقابلة لرئيسه، قل لسيادة اللواء أن يبتعد عن طريقي ليؤثر السلامة، ويلتفت - ربما - لمضايقة من هو قادر حقا على مجاب-هته، مهددا إياه بما كان يمكنه أن يفعل به. ولكن أثارته تلك المقابلة فعلا، إذ كان صبره على لقاء "جمال" ثانية قد قارب على النفاذ. وكانت تلك الكلمات آخر ما كان قد تفوه به ولأربعة أيام التزم خلالها الصمت.

أثناء مسيره بدأ داود يشك في أن هناك من يتبعه. وقع خطوات من خلفه تتناغم في وقعها مع سرعة خطواته، ولم يدر لها بالا أولا بل تجاهلها تمامًا ونسيها وسط زخم الأفكار التي كانت تعصف بذهنه، ولكن اصرار الخطوات وملازمتها له بدأ يضايقه، فقرر الإسراع في خطوته أملا في أن يثني إسراعه صاحبها ولكن لاحقته إيقاعاتها، ثم فجأة توقف واستدار متحديا. وقف أمامه شاب لايعرفه ولا أوحت إليه ملامحه بأية مشاعر تجاهه، شاب يكاد من جانبه أن يكون بلا ملامح أو انفعال وكأنه شبح أو خيال. وقف الشاب قبالته صامتا لا يلوي على شيء وكأنه قد تلقى أمرا فقط بأن يتبعه، نسوا بعدها أن

يطلعوه عما يفعل في حال إن لحق به. بادره داود بالسؤال بعد أن أصر هو على صمته:

- "نعم؟ أي خدمة؟" تماهى إلى ذهنه لحظتها أن تلك كانت أول كلمات ينطق بها منذ أربعة أيام، ولكنه لم يجبه أولا ثم بعد لحظات، وكأنه تذكر فجأة الرسالة التي كان يحملها، تكلم بصوت أجوف مبحوح وكأنه لصبي على أعتاب المراهقة:

- "الشيخ فودة طالب يشوفك" تذكر داود الإسم على الفور، إنه الرجل الذي أفقد صديقه الشيخ حسنين صوابه فأدى به للسجن ثم الموت، فانتابته قشعريرة إزاء تلك الفكرة، فسأله:

- "وعايز يشوفني ليه؟ وإنت مين أصلا ؟". وهنا تجرأ الشاب، وارتفعت نبرة صوته المبحوح وبدا له أنه الآن يخطو فوق أرض مألوفة لديه:

- "مش مهم أنا مين يا خواجة داود، تقدر تعتبرني رسول الشيخ باعته علشان يبلغك الرسالة، لكن لو تحب أنا ممكن أقول لك أنا ماجد عبد الحميد أو جابر محمود عطية أو أي إسم تاني مش هاتفرق لأن الرسالة هي الأهم. أما سؤالك عن الشيخ فودة عايز يشوف حضرتك ليه، فده موضوع أكبر

من شأني أن أعرفه كمجرد مرسال ما بين سيدنا الشيخ وبين حضرتك."

- "طيب خلاص، ما تمشيش ورايا تاني وخليني أفكر في الموضوع وهابقى أشوف طريقة أرد بيها على الشيخ فودة"

التقط داود علبة سجائره من جيبه وأشعل سيجارة.

- "تفكر إيه ياخواجة داود، سيدنا الشيخ عايز يقابلك دلوقت، وهو باعتني أجيب حضرتك وأوصلك لحد عنده. الشيخ فودة ده راجل كله برَكة ومعرفته مكسب مش خسارة. إتكل انت بس على الله ويللا بينا!".

* * *

- "صباح الخير يا أولاد، أنا اسمي "مسيو ناثان" مدرس الفصل هذه السنة، وسأكون دائمًا بجانبكم كأب لكم تستطيعون اللجوء إليه في أي وقت. قد تستغربون لغتي، ولكن تلك هي لغتنا العربية التي سنتحدث بها في حصة اللغة العربية حتى تتعلموا قواعدها الصحيحة، مثلما سنتحدث باللغة الفرنسية في حصص أخرى لتتعلموها أيضًا. والآن سنبدأ أولى دروس اللغة العربية بأول حروفها: الألف وهو عبارة عن خط رأسي هكذا" وأمسك بقطعة الطباشير ورسم ألِفا فوق صفحة

السبورة الخضراء. وألقى الطفل سليمان بنظرة خاطفة نحو صديقه الجديد "يوسف" يستطلع وقع تلك الكلمات العجيبة عليه، فوجد أنه - مثله - يحاول جاهدا أن يكتم ضحكاته، فالتفت سريعا للأمام قبل أن تفلت منه هو ضحكته بالرغم منه، فيستحق غضب المسيو ناثان العملاق العجوز الذي كان يروح ويجيء أمامه يلوح بعصا طويلة بيده لا تتلائم لطولها وتعوجها ولونها القاتم، وكأنها شومة بيد فتوة من الفتوات، مع بدلته الصوف الانجليري الأنيقة ذات الصديري الذي تتدلى منه سلسلة ذهبية تنتهي بساعة مخبأة بجيب صغير، يخرجها منه مرات متتابعة ليستطلع الوقت في حين يتكلم معهم بتلك اللغة الغريبة والتي تختلف تمامًا عن حديث أمه، أو الأسطى "وليام" السائق، أو عم "عبده" الطباخ، أو الريس "حسن" الجنايني معه. لغة مستحدثة على أذنيه الصغيرتين وعالم جديد يخطو إليه بأول خطواته، وملؤه الشوق في أن تنكشف له أسراره.

- "ثلاثة كلمات تبدأ بحرف الألف هي أول كلمات نبدأ بها" ثم كتب وهو ينطق بكل كلمة يكتبها:

"أقرأ" "أفهم" "أعمل"

- "حروف الهجاء هي مفاتيح اللغة، تتيح لكم أن تدخلوا الي عالمها فتقدروا أن تقرأوها. ولكن أن تقرأ يجب أن

يكون مصحوبا بفهم ما تقرؤه حتى تستطيع أن تعمل بما قرأت، مفهوم؟ والآن، من منكم يستطيع أن يأتينا بكلمة أخرى تبدأ بحرف الألف؟"

وهكذا أمضى سليمان اليوم الأول له بمدرسة "سان مارك". طفل جميل ورث جمال أمه ونقاء بشرتها، وذكاء أبيه وسرعة بديهته، فعلت وجهه المليحة قسماته ابتسامة لطيفة وهو يطوف بعينيه العسليتين الواسعتين في صمت ذلك العالم الجديد الذي دُفع به إليه. لم يبك كما بكى بقية الأطفال عندما تركتهم أمهاتهم عند باب المدرسة الحديدي، بل انتابته حالة ممتعة من الفضول والرغبة في الاستكشاف. جذبه ذلك الكم الهائل من الأطفال الذين ذكرهم ازدحامهم وجلبتهم بشقتهم القديمة بمحرم بك، حين تجمعوا في الفناء الواسع لأول مرة بزيهم الموحد متبعثرين أولا، ثم عند دقات جرس نحاسي مهول ملأ صداه جنبات الفناء تخلله توجيهات صوت جهوري قادم من خلال مكبرات للصوت، آت من مصدر مجهول، شب على أطراف قدميه الصغيرتين مرات ومرات يحاول تحديد مكان صاحبه دون جدوى، فحسبه أولا "صوت الله" الذي كان قد كلم به "موسى" عند قمة الجبل بسيناء، كمثل ما كان أبوه قد حكى له عنه، ولما كانت لهذا الصوت سطوة وإمرة نافذة لتوجيههم

كيفما شاء. ثم فوجئ سليمان بتلك الحشود الهائلة من الأطفال وقد بدأوا يتحركوا بتلقائية منفذين لتعليماته بحذافيرها، هؤلاء الغرباء المتبايني الألوان والملامح الذين شك هو في أنهم حتى يتكلمون نفس اللغة، إنبهر بكونهم قد انتظموا هكذا، تحت تأثير قوته السحرية، إلى طوابير يقف عند رأسها مدرس كل فصل حاملا لشارة ملونة، يحمل مثل لونها بيده شارة وزعت لكل طفل في ذات الفصل. وما زال صوته الجهوري يدوي، ثم بدأ يتحدث بلغة غريبة – عرف بعدها أنها الفرنسية – وحتى العربية التي كان يتكلم بها أولا عصت عليه أحيانًا وقد غابت تفاصيل كلماته وأضغمت مخارجها لمّا تردد صداها عن مباني المدرسة العملاقة تحيط بالفناء كالأصرحة تنتظر في صمت متى يتسنى لها أن تبتلع كل هؤلاء الأطفال بملامحهم البريئة إلى جوفها. وازداد اتساع عينيه وبريقهما كما تسمرت البسمة فوق صفحة وجهه، وقد انعكس شعاع شمس الصباح الوردي فوق وجناته.

*** * ***

إقتربت الساعة من السابعة والنصف مساء، وأحاطت بجدران الزنزانة لوحات زيتية تقبع فوق أرضيتها، وترتكن بيأس على حوائطها. عيون حزينة لبائعي الفول المدمس،

ولأطفال يلعبون، ولرجل قابع على الكورنيش خلف سنارة يغوص طرفها في مياه البحر في انتظار الرزق. وجوه وعيون تطل من كل ركن تتساءل عن مصيرها، وجلس "محمد البوري" على طرف سريره الحديدي يتأمل تساؤلاتها حائرا يبحث معها عن اجابات. قام من مجلسه وفرد قطعة قماش – كانت في الحقيقة إحدى قماشات الرسم التي وفرتها له إدارة السجن – فوق أرضية الزنزانة، وتوجه نحو القِبلة وشرع يصلي صلاة المغرب. كان يتوضأ مرة واحدة في اليوم خلال الدقائق القليلة المتاحة لهم لاستعمال دورة المياه الوحيدة بالطابق كله، ثم يحرص طوال اليوم أن يتجنب أن يمس أي شيء يمكن أن ينقض وضوءه حتى يستطيع أن يصلي طوال اليوم بدون الحاجة لأن يعيد الوضوء. وكانت تلك الممارسة في حد ذاتها تشغل في الواقع مساحة كبيرة من ذهنه فتعينه – على غرابتها – على إمضاء الوقت الذي كان يعد أكثر العقوبات إيلاما لروحه في ذلك السجن. الوقت. صخرة من صخور "سيدي بشر" القابعة أمامه وهو يصارعها بطول اليوم لينقلها من عند أول شعاع ينير زنزانته وعند طرف آخر شعاع يتركها، كفاح وقتال مستميت يستغرق كل قطرة حياة، من أجل أن يحرك صخرة الزمن تلك، ورحلة تبدأ عندما يفتح عيناه قبيل الفجر

ولا تنتهي حتى "يسقط" نائما عند آخر اليوم، ليعاود رحلته من جديد في الغداة. ومع تكرار المشوار وتشابه الأيام وتعاقبها الممل فقد الإحساس بالزمن، بل ربما يكون قد أفقد نفسه ذلك الإحساس لئلا يمسه الجنون!

سمع طرقا خفيفا على الباب، الذي انفتح ليطل وجه الشاويش حجازي معلنا:

- "عندك ضيوف ياسي محمد"

ثم تراجع عن مدخل الزنزانة ليفسح الطريق لرجل غريب وأغلق الباب ورائه، مسجون مثله يرتدي (العفريتة) الزرقاء، طويل القامة أصلع الرأس حليق الذقن والشارب، ذو أنف مهول يملأ صفحة وجهه وقد حمل فوقه نظارة سميكة ما كان لأنف أقل شأنا من قدرة لأن تحملها. دخل تسبقه يده الممدودة للتحية، وكرشه يهتز أمامه وشبه ابسامة تلوح وهو يقول:

- "مساء الخير يا أستاذ بوري، أنا رشاد فكري، زميلك في (الجناح) إللي جنبك، وحكولي باقي الزملا عن رسوماتك بما إني كاتب وشاعر - زي ما سيادتك يمكن تكون عارف - فجيت لك علشان أتعرف بحضرتك وأتفرج على شغلك". سمع

حديثه إليه ولكنه كان ما يزال يترنح في دائرة الإكتئاب المحيقة، فمرت كلماته دونما تأثير. ولمّا لم يجد أية رغبة في نفسه لأن يعلق على كلماته أو حتى يرد له التحية، إلتزم بالصمت، وإن أخذ بيده يصافحه بدوره بحركة لا إرادية، خالية من أي مشاعر. وراح المدعو "رشاد فكري" يجوب حوله وقد عقد ذراعاه فوق صدره وأحنى رأسه متأملا اللوحات الراقدة بهدوء عند أرضية الزنزانة، يقف عند بعضها ويمسح بأصابعه فوق ذقنه مهمهما بكلمات مضغمة ثم يستكمل دورانه، هكذا عدة مرات حتى أنه ربما قد تفحص اللوحات أربعة أو خمس مرات، وهو ينظر إليه دون أن يحاول حتى أن يقيم للمشهد اعتبارا، ثم أخيرًا تكلم المدعو رشاد فكري بصوته الهادئ العميق:

- "حاجة جميلة. الشغل ده لازم تشوفه الناس كلها يا أستاذ بوري".

وبالرغم من كون الخريف قد وضع أدراجه - رسميا على الأقل - إلا أن "قنا" كانت ما تزال تسبح في غمار الصيف وقيظه، تشهد بذلك حرارة الجو والرطوبة اللزجة التي تحيط بهما. وبالرغم من ذلك كانت ريحا ثلجية قد هبت بداخله من حيث لا يدري أين، أنعشت روحه ونفسه، متزامنة مع وقع

كلماته عليه، أفاقته ولو مؤقتا من غيبوبته الداكنة، ولكنه – مع ذلك – تساءل في ريبة عمن يكون رشاد فكري هذا، ولماذا يدعوه "بوري" هكذا وليس "محمد البوري" كما يدعوه باقي الخلق؟

* * *

الفصل الرابع عشر

سار داود بجوار الشاب الغريب صامتا. بطرف عينه كان يراقبه وقد انحدرا من شارع "فؤاد" إلى شارع ضيق متفرع من الطريق الرئيسي. لم يزل يتساءل عما يدفعه لأن يتبع ذلك الغريب نحو مكان مجهول وسط ذلك الصمت المريب، ومن الذي يضمن له سلامته خلال تلك الرحلة الخفية العواقب. ولكنه الفضول لمقابلة الشيخ فودة ومعرفة لماذا طلب هو أن يراه أصلا. تجمعت السحب من فوقه فأضفت لونا رماديا داكنا فوق الناس والأشياء من حوله فزادت من توجسه، وعند منتصف الطريق سبقه الشاب بخطوة أو اثنين ثم عرج إلى داخل إحدى الحوانيت المتراصة بطول الطريق صائحا:

- "السلام عليكم! الأمانة وصلت!".

تبعه داود إلى داخل المحل، ورجع صدى صوته فارغ-ا، فجلس الشاب على مقعد خشبي موضوع بجوار الحائط الأخضر المزين بآية مذهبة تتوسطه وقرأ كلماتها "إنا فتحنا لك فتحا مبينا". وقف داود إلى جواره وتبين له أنه محل سمسار، حيث دار حوار بين رجلين حول شقة ثلاث غرف كان أحدهما يبغي تأجيرها. وإذ بشاب يدخل المحل ويرمي السلام على

الموجودين فرد الجميع بهمهمة، ثم مد يده ليسلم على داود قائلا بنبرة واثقة:

- "يللا بينا، الشيخ في انتظارك".

فنظر داود باتجاه الشاب الأول الذي أومأ إليه ثم هب فجأة من فوق كرسيه وقام وترك المكان متجها ثانية إلى ناحية شارع فؤاد، في حين تعلقت نظرات الوافد الجديد بداود يتفحصه مبتسما، ثم أعاد كلماته متسائلا هذه المرة:

- "يللا بينا؟"

شاب لطيف أقل عمرا من الشاب الأول، وتطل من عينيه السوداء الواسعة لمعة ذكاء تميزه عنه، كما كان - على عكس الأول - كلوما فبادره بمجرد أن غادرا الدكان قائلا:

- "صحيح يا خواجة داود إنت يهودي؟"

نظره داود مبتسمًا لمباشرته في طرح سؤاله وقال:

- "طيب مش تقول لي الأول إسمك إيه؟"

- "إسمي هادي مصطفى درويش، وطبعا هاتقول لي - زي كل الناس ما بيقولولي - إنت شكلك كده مش هادي ولا

حاجة، بس أهو إسمي بقى والسلام. وعلى العموم، كل الناس بينادوني ب-(ديدو)"

- "وعمرك كام سنة يا ديدو؟"

- "تسعتاشر وحضرتك؟"

- "أنا عندي ييجي اتنين وخمسين وشوية، إحنا باقي لنا كتير على مانوصل؟" وكانا قد تخطيا ميدان محطة مصر ومرقا إلى شارع ضيق تصطف على جانبيه بيوت قديمة تبوح النقوش بأعلى مداخلها وطبقات الجبس برسماتها الهندسية المتآكلة عند حوافها، وأشكال الزهور حول نوافذها، بالعظمة التليدة، والرونق الذي كان. ولكنها شاخت الآن، فوقفت ملتصقة الواحدة بالآخرى وكأنها تتساند بعضها على البعض من أجل البقاء في الوضع الرأسي، وقد انفض عن معظمها الطلاء فبدت الحجارة العارية من تحته تشي بعمرها المديد، كما تفضح من ناحية أخرى تلك البنايات المس-تحدثة، التي بدأت تستبدل تلك التي لم تقو على الصمود، بجدرانها الرقيقة من الطوب الأحمر المتراص بين عواميد الخرسانة، وقد عافاها الجمال، كما غابت عنها الصلادة التي منحتها إياها تلك الحجارة العتيقة.

- "مش خايف يا خواجة داود من مقابلة الشيخ فودة؟" سأله "ديدو" متخابثا وقد اتسعت عيناه بنظرة باسمة.

- "أنا ماعنديش حاجة أخاف منها، وبعدين هو الشيخ فودة مخيف للدرجة دي؟" أجابه داود ضاحكا. لم يجبه "ديدو" ولكنه قال:

- "نفسي أعرف مدى علاقتك بالراجل الكبير، الشيخ فودة بيقول إنك راجل واصل لفوق قوي، الكلام ده صحيح؟ صحيح حضرتك قابلت الريِّس بنفسه؟" سأله الشاب بصوت ينضح بالإعجاب والتملق.

- "السر كله في ده" ورفع داود إصبعه مشيرًا إلى خاتمه المسحور ثم أضاف:

- "هو ده سرِّي يا ديدو. الخاتم ده هو وش السعد على، وبيفتح لي دايما أبواب السعد قدامي. أنا هاحكيلك الحكاية". وبتلقائية شديدة وعفوية لم يدر لها سببا، بدأ داود يقص عليه قصة الخاتم المسحور الذي كان قد جلب الشهرة والحظ من قبله للشيخ سيد درويش البحر، ولجمال عبد الناصر، ثم أخيرًا لداود عبد الملك، ولسليمان ابنه من بعده بعد عمر طويل!

وعند آخر الطريق وقفت بناية قديمة متميزة بارتفاع طابقين تحيط بها أشجار البلوط العتيقة، كما تنفر من بين عواميد سورها الحديدي الملتوية أفرع شجيرات الريحان المتغولة والتي يفشي حالها بأن يد بشرية لم تقوّمها لأعوام طوال. كانت حتما مسكنا لعظيم في يوم ما، مد "ديدو" يده ودفع بالباب الحديدي الذي زمجرت مفاصله الصدئة بصرير كريه، ودلف هو أولا ثم تبعه داود، وأغلق ديدو الباب ثانية ورائهما. وكما توقع تبدت له آثار الإهمال، فتفاحلت أفرع النباتات لتغطي تقريبًا الممر الحجري المموج والمؤدي إلى المدخل الرئيسي، وقبعت بوسط الحديقة نافورة مرمرية جافة مغطاة بطبقة ترابية سميكة وقد تعلقت خيوط العنكبوت بأطرافها وتكاد تغمرها أوراق النباتات الشيطانية النامية من حولها. ونبهت الأصوات الذي أحدثتها دحرجة بوابة الحديقة الحديدية أهل البيت، فانفتح باب خشبي ضخم عند رأس بضعة درجات، وأطل وجهٌ من ورائه، ثم يدٌ أشارت لهم بالدخول. لم يتمكن داود من استعادة س-كينته المعهودة وهو يخطو بتردد فوق الدرجات الرخامية المتمايلة المتآكلة بفعل الزمن، وقد تسارعت دقات قلبه كالطبل في صدره، ولسان حاله أن يستدير ويعود من حيث جاء، بينما تقوده قدماه - وفضوله - ليدلف

متوجسا إلى البهو المظلم من وراء الباب. وبينما لم تتأقلم عيناه بعد عتمة المكان بالمقارنة بضوء الطريق في الخارج، بوغت بأيدي تتفحص ملابسه وجزعه بل ورجليه باحثة عن سلاح مختبئ هنا أو هناك، بينما تنامي إلى مسمعه تلاوة قرآنية حسبها بأذنه المرهفة أن تكون للشيخ مصطفى اسماعيل، آتية من مصدر بعيد، ثم صرح صوت غليظ من وراء ظهره يقول:

– "لامؤاخذة يا خواجة داود، بس الإحتياط واجب" ثم أعلن الصوت ذاته لآخرين من حوله، لم يتحقق لداود من مكان تواجد أي منهم ولا عددهم لشدة الظلام المحيط:

– "نضيف زى الفل، يا رجالة، دخلوه!"

وفعلا قاده "ديدو" إلى ممر طويل بعمق المنزل ينتهي عند آخره بحجرة مواربة الباب، ينبعث الضوء من فتحته، دفعه فإذا بأريكة اسطنبولي مغطاة بمفرش أبيض ناصع وكليم من القطن الرخيص مفروش أمامها، وخلت الحجرة من أي قطعة أثاث أخرى في بساطة لا تتناسب مع فخامة المبنى، أو على الأقل ما كان عليه حاله ذات يوم. وكان يتربع فوق الأريكة شيخ يبدو في السبعين من عمره ذو لحية وقورة بيضاء وعينين رماديتين باهتتين، تتدلى من بين أصابعه مسبحة

ويرتدي جلبابا أبيضا ومن فوقه عباءة من الصوف كما للمسنين من عادة أن يستدفئوا ولو في عز الصيف. قابله الشيخ النحيل كالشجرة اليابسة بابتسامة مصطنعة تنضو عن الأسنان القليلة المتبقية وبصوت متهالك قال:

- "أهلا يا خواجة داود، الحمد لله إللي كتب لي العمر لحد ما اقابلك يا راجل!"

مال ديدو نحو أذن داود منبها إياه أن الشيخ فودة ضعيف النظر، وإن كان يسمع بدرجة معقولة، ولكن عليه أن يقترب منه أكثر حتى يتسنى للشيخ أن يستمع إلى كل ما يقوله، فأومأ داود، واتخذ بضعة خطوات حتى أصبح يقف في مواجهة الشيخ تماما.

- "السلام عليكم يا شيخ فودة" فأمال الشيخ المسن رأسه هازئا يمنة ويسرة ورد منفعلا:

- "أمّا والله!. وكمان بتحييني بتحية الإسلام، يا راجل يا فاجر!" ثم سعل الشيخ سعلات متتالية من جراء حدة انفعاله. لو كانت تلك هي مجرد البداية، فكيف يتوقع أن تكون نهاية هذا اللقاء؟ فكر داود في أن يقوم ويرحل، ولكنه خاف! أجل خشي عاقبة غضبة الرجل واعوانه المنتشرين في كل

مكان من حوله، كما كان قد أعلمه بخوفه منه من قبل الشيخ حسنين يوم أن تقابلا مع الرئيس جمال أول مرة، فبقي ساكنا. لم يُعلم مخلوقا عن مقصده، وحيث هو الآن، ولو حدث له مكروه فلن يتخيل أحد أنه هنا ولن يستطع مخلوق أن يسرع لنجدته. إذن فلينتظر ليرى بنفسه ما سوف تتطرق إليه الأمور، فهو لا يملك الآن سوى الانتظار. لم يدر ما إذا كان عليه أن يجلس بجوار الشيخ أو أن يبقى هكذا واقفًا أمامه فلم يتحرك. تقدم "ديدو" من جانبه فقبل يد الشيخ ثم حياه منصرفا مما زاد من ارتباك داود ووحدته. مرت الدقائق ثقيلة والصمت يقتل أي بادرة ود قد تحوم من حولهما، وبقى داود ينظر ناحية الشيخ متفحصا تجاعيد وجهه العميقة وانتابته حالة من الإشفاق عليه أنسته سوء موقفه للحظات، ثم تحرك الشيخ في مجلسه معتدلا من قبل أن يبادر بالحديث قائلا:

- "إنت إيه حكايتك بقي ياسي داود؟ قول لي بصراحة كده عاوز مننا إيه بالضبط؟"

- "أنا؟ يا شيخ فودة ماتنساش إنك إنت إللي طلبت مني نيجي لهنا علشان نتكلمو معاك، يعني مش أنا إللي عاوز منكم حاجة لا سمح الله"

- "من غير لف ولا دوران، أنا هانقول الكلمتين إللي عاوز نقولهم علشان خاطر ربنا". وتنحنح في مكانه ثم أكمل:

- "بقى إنت ضربت صحبية مع الشيخ حسنين وبعدين بعته بالرخيص علش-ان تراضي الكلاب إللي اشتروك، واهو مات الله يرحمه. وبعدين لعبت على الست قمر مراته لحد ما انتحرت هي روخره وراحت في ستين داهية بسببك!. وبعدين." قاطعه على الفور داود بنبرة حادة:

- "إنت بتقول ايه؟ قمر بخير، أنا شفتها، لسة من كام يوم، وكانت زي الفل" فسعل الشيخ من جديد مقاطعا:

- "لأ يا سي داود قمر ماتت من ييجي أسبوع واندفنت كمان وآني حضَّرت دفنتها بإيدىَّ دول. جالها خبر الشيخ حسنين من هنا وشربت قزازة الفنيك من هنا".

أصابه الذهول!

ما الذي يحدث من حوله وكيف تسير به الأيام إلى ذلك المنحدر الذي لا نجاة منه. لا بد أن في الأمر سر! ولابد له من أن يعرفه. الآن!. هذا الشيخ الأعمى القابع أمامه ليس بالضعف الذي يبدو عليه، ولكنه سوف يرغمه على أن يفهم منه مكنون ما يحدث. لا بد أنه له ضلع فيما يجري من حوله،

فالمصائب لا تتأتى هكذا تلقائيا. لا بد من أن تكون هناك يد خفية تدير مصائر هؤلاء الناس، والشيخ فودة – إن لم يكن هو صاحب هذه اليد – فلابد أن يدله بطريقة أو بأخرى عن صاحبها. ولكن عليه الآن أن يتماسك حتى لو كلفه ذلك أن يمثل دورا في تلك المسرحية!. فلماذا إذن هبت كل تلك الرياح هكذا بدون سابق انذار تجاهه؟ وما هي علاقة عبد الحميد مصطفى وكامل فياض بالشيخ حسنين وقمر وهذا الشيطان العجوز القابع أمامه لايكف عن السعال، لا بد أنه يعرف تمامًا كيف يضع الأمور في نصابها فيفهم تلك الألغاز! وكأنه بسكين حاد، شق داود بسمة فوق وجهه المكفهر واستحضر نبرة ضاحكة بادر بها الشيخ قائلا:

– "أنا هانفضل واقف كده ولا إيه يا شيخ فودة؟"

– "إتفضل أقعد ياسي داود، هو انت عاوز عزومة يعني؟ دانت الود ودك تشيلني وتيجي تقعد مطرحي هنا!"

– "ليه بس يا شيخ فودة التهمة دي؟ أنا عمر إيدي اتمدت على حاجة بتاعتك؟"

– "الشيخ حسنين!. ده أول هام. وبعدين الست قمر! آني مش عايز نتكلم ونفتح في كلام مالوش لزوم!"

إذن فهو يعلم بما كان بينه وبينها. ولكن لا بد له أن يتأنى فلعله يلقي إليه بط-عم، يريده أن يبتلعه فيبوح بسر لا يدري تفاصيله بعد، عليه أن يلتزم الحذر تجاه ذلك الثعبان!

- "الشيخ حسنين - الله يرحمه - طول عمره كان أخويا وحبيبي ع الحلوة والمُرة، وزي مانت عارف آني إللي طلعته من الحبس، يعني لو كنت نقصد له الأذية ما كنتش نطلعوه من أصله. والست قمر جت لي تشكي من رجوعه للسكة البطالة دي من بعد ما رجعناه. يعني هو إللي جابه لنفسه وقطع بينا الله يسامحه بقى! أما الست قمر فدي أول مرة - ورحمة أبويا - أسمع بموتها، الله يرحمها ويحسن إليها. ومش معقول يعني أكون أنا اللي رحت وشربتلها الهباب ده عشان نسِمُّوها!"

- "شوف يا داود، من غير لف ولا دوران، اليهود من يومهم ما وراهمش إلا الخراب، من يوم ما خنتوا سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ولغاية النهاردة. شوف يابن الحلال قدامك حل من إتنين؛ يا تنطق بالشهادتين وتعيش في وسطنا مسلم زيّك زي أي واحد تاني، يا إما يابن الحلال تاخد قرشيناتك وتسيب البلد دي من غير مطرود. إحنا بصراحة مش

مرتاحين لوجودك كده وسطنا!. وان ما كانش، فذنبك على جنبك بقى!"

تذكر داود على الفور كلمات اللواء كامل فياض وتعجب من تطابقها مع كلمات الشيخ، فازداد يقينا في وجود سر ما يجمعهما، وأقسم لنفسه أن يكشف مكنونه فيما بعد، عندما يكون في وضع أقوى مما هو عليه الآن.

- "إنتم مين إللي مش مرتاحين لوجودي يا شيخ فودة؟" سأله وهو يعلم أنه لن يجد عنده الجواب الشافي.

- "إحنا المصريين يا خواجة داود!. من أول الإخوان ولحد العسكر. فيه عندك كلام تاني ولا قلت كل اللي عندك؟"

تعهد له بأن يتفكر في الأمر - كما كان قد توعد فياض من قبل - ثم استأذن منصرفا. وجد ديدو ينتظره خلف الباب، وتنامى إليه صوت القرآن المرتل من جديد، فأسرع به ديدو إلى خارج المنزل وعند السور الحديدي سأله:

- "هاتعمل إيه يا خواجة داود؟" فنظر تجاهه وتأمل عنفوان الشباب والبراءة تطل من عينيه الواسعتين وأجاب:

- "والله مش عارف يا ديدو".

* * *

غربت الشمس وغاصت خلف صفحة مياه البحر الممتدة، وتحت وطأة الإنهاك واضطراب المشاعر اتجه مباشرة للبيت. وبينما كان داود يخلع ثيابه في غرفته، كانت إيلين تلملم قطع الثياب وراءه الواحدة تلو الأخرى وتطويها بعناية لتضعها في الخوان، وقد انصرف هو يتلو عليها تفاصيل لقائه بالشيخ فودة والخيارين الذين طرحهما عليه. وبقت إيلين منشغلة بما كانت تفعله ولم تعقب على كلماته، وإن كانت تعبيرات وجهها الحزينة – التي لمحها داود بين كلماته – قد فضحتها، فلمّا انتهى، بادرها بالسؤال عن رأيها فيما ينبغي له أن يفعل. لم تجبه إيلين، لا لم تنبس بحرف واحد وإن ملأها اليقين بأن ما آلت إليه حياتهم لم تكن إلا سلسلة من المصاعب، ولم يجلب لهم ذلك الخاتم (المسحور) سوى الغم والنكد. ولمّا غلب داود النعاس وسافر إلى دنيا النوم، تسللت إيلين وبخفة أخذت الخاتم القابع بكل براءة بجوار ساعة اليد فوق الكومودينو، فخبأته في عبها تحت فستانها بصديريتها، وبهدوء غادرت الغرفة وأغلقت الباب.

* * *

تأثر "محمد البوري" بشدة لحماس الدكتور "رشاد فكري" للوحاته. إنبهر بأن ذلك الرجل المثقف الذي حصل على الدكتوراه في الآداب من جامعة كامبردچ – كما كان قد قال له – قد تنازل وجاء لزيارته وتأمل لوحاته مهمهما أولا ثم معجبا بها. قال له أنه وجد فيها تساؤلات كثيرة، مشوبة بالحزن الدفين الذي مس قلبه هو شخصيا، كما علق بأنه أمضى حياته – مثله – يبحث عن إجابة واحدة شافية فلم يجد. وعده أن يكلم مأمور السجن بصددها في اليوم التالي وخرج. وفي وحدة الزنزانة القاتلة شك بينه وبين نفسه في سلامة عقل ذلك "الدكتور" العبقري، الذي رجح بأنه يحتاج بدوره لدكتور نفساني ليجيبه عن كل تلك التساؤلات! ورمي ببصره يتأمل لوحاته من حوله باحثاً عن كل تلك التساؤلات التي كان يتكلم عنها فلم يجد أي منها فانتابته نوبة من الضحك المجنون. قام وصلى العشاء ثم اندفن تحت البطانية الصوف وأسلم جفونه للنعاس.

وعند الصباح ووسط تجمهر حاشد وجد نفسه وجها لوجه أمام العميد رشدي اسكندر مأمور السجن وبجانبه الدكتور رشاد بصلعته اللامعة ونظارته الغليظة المتفحصة، الذين دارا بين لوحاته لدقائق، أصدر بعدها سيادة المأمور

أمره للشاويش حجازي بأن يحمل اللوحات بعناية وينقلها إلى غرفة ملحقة بمكتبة السجن، أمر بأن تكون معرضا فنيا للوحات "البوري"! أسقط في يده! معرض للوحاته! هذه الخربشات الحقيرة فوق قطع القماش تترقى فجأة هكذا لتتبوأ تلك المكانة الشاهقة! لا بد أن في الأمر التباس. لا. لا بد إنه (ملعوب) يريدون به شرا! ينبغي له أن يكون حذرا. شكرهم طبعا ولكنه استوقف الدكتور رشاد حينما بدأوا في الانصراف. تأمل ملامحه فقرأ سعادة صافية فوق صفحتها، ولكنه تخطاها متسائلا:

– "ليه يا دكتور؟ وإيه اللي بيحصل بالضبط؟ بس الأول قول لي إنت تبقى مين بالظبط". فضحك الكتور رشاد. ضحكة طفل مجلجلة ملأت فراغ الزنزانة بعد أن انصرف الجميع.

– "إقعد يا بوري"

– "وليه دايما تقول لي يا بوري؟ أنا إسمي محمد!"

– "طيب أقعد يا محمد!. شوف يا سيدي، أنا راجل صعيدي مصري، الدنيا ادتني كتير!. مصر يا محمد كبرتني وعلمتني لما أخدت البكالوريا وبعدين الليسانس وطلعت التاني

على الدفعة، وكان ممكن أكون الأول لو ماكنتش من عيلة متواضعة. لو ماكانش إسمي رشاد فكري مجاهد، جايز! لكني طلعت التاني وده كويس برضه! المهم أكون من التلاته الأوائل علشان أروح كامبريدچ. ده كان حلمي وحققته، ورجعت لمصر بالدكتوراه! رجعت يا محمد لقيت الثورة قامت فاستبشرت خير، طلبة الجامعة المصرية الوطنية أولى بالعلم والمعرفة إلي اتعلمتهم طبعا. عينوني فين يامحمد؟ موظف في وزارة المعارف، في الأرشيف بتاع (دار الكتب)، أنا قلت طبعا المسألة فيها غلطة، ماهو مش معقول البلد تصرف عليّ كل ده، لغاية ما آخد الدكتوراه، علشان أرجع وأشتغل مجرد موظف في الأرشيف! رحت على طول لأكبر مسئول، آعلى درجة في السلم علشان الموضوع يخلص. لقيته مين يا محمد؟ لقيته ولا حاجة! لقيته "ضابط" يا محمد، آه والله زى ما باقول لك كده، ضابط بتلات نجوم، مامعاهوش ليسانس، المسئول عن تعيين المبعوثين لمّا يرجعوا بشهادات الدكتوراه! قال لي وهو بيضحك – وكأن الحكاية هزار مثلا – لو مش عاجبك يا دكتور، نرجعك تاني مطرح ما كنت! مارضتش طبعا، علشان أنا رجعت وشايل جوه قلبي حلم كبير ومش ممكن أفرط فيه، فقررت أحارب الوضع بطريقتي." إلتقط رشاد أنفاسه ثم أضاف:

- "ما أنا كنت لازم أحقق حلمي اللي مخبيه جوا ضلوعي، وقافل عليه بالجامد، طول سنين الغربة دي! لقيت الحل الوحيد إني أكتب. مقالات وأبحاث ودراسات وكتب، عن الناس، وعن الثورة، وعن التغيير، وعن الديمقراطية، وعن العمل الوطني، فضلت أكتب وأكتب وأكتب وماليت مصر كتابات، لحد ما اعتقلوني، وشرفت هنا يا محمد يا بوري! وأديني أهه قدامك معجب جدًّا بفنك الفطري ده، إنت موهوب بصحيح يا محمد!".

فحدجه محمد البوري بنظرة ذات معنى، ثم رفع أصبعيه نحو ذقنه يتحسسانه متخذا منظر المفكر، ثم عقب بثقة العارف ببواطن الأمور:

- "مادام مسجون علشان الكتابة، تبقى إنت أكيد على كده بقى - والعياذ بالله - شيوعي!"

فقهقه الدكتور رشاد فكري ضاحكا مالئا الزنزانة من جديد بتلك الضحكة الطفولية.

*** * ***

الفصل الخامس عشر

تحايلت البرودة من جديد على ذلك الشعور بالدفء الذي كانت تشيعه ذيول أيام الصيف الراحلة، فتسللت ما بين البشر الذين لم يجدوا مفرا من أن يتجنبوها بدورهم، واقتصدوا تباعا تواجدهم في الأزقة والشوارع والميادين، حتى إذا ما حل الشتاء بزعابيبه القارسة البرودة، كانت الطرقات قد خلت تمامًا من المتسكعين، فلم يطرقها الناس إلا لقضاء حاجياتهم الضرورية ثم يعودوا من بعدها مهرولين إلى دفئ منازلهم من جديد. وغلبت الأيام الرمادية العاصفة على الصحوة منها، فزاد ثقلها من كآبة "إيلين" ومن عزلتها في سجنها الفخيم. وحتى زياراتها للملجأ ومداعبتها للبنات هناك، الرحلة الوحيدة التي كانت تسمح لأن تقترب بنفسها - ولو قليلا من الشعور بالبهجة، أجبرها الصقيع على العدول عنها.

وبينما كانت جالسة في صدر غرفة الصالون ذات صباح تقضم بتلذذ قطعة الكعك الذي صنعته بنفسها بغير مناسبة، وكانت قد شرعت مؤخرا في التفنن في تحضير المأكولات المتعددة - على غير مواسمها المعتادة - بمجرد أن تخطر على بالها، في سعيها الدؤوب لأن تهبط عليها فرحة ما قد تحظى بها من جراء ظهورها المباغت - مثلا على مائدة

الطعام، دخل عليها داود وقد ندت ملامح وجهه عن حزن دفين. تفكرت في أنه لا بد وأنه قد بحث عنها في أرجاء القصر حتى وجدها هاهنا، حيث لم تعتاد هي – ولا هو – أن يجلسا بين جدران هذه الحجرة ذات الجو الكلاسيكي، فلابد إذن أنه يبتغي أن يفاتحها في أمر مهم يشغله. اتخذ مقعدا بجانبها إلا أنه بقى صامتا. تشاغلت عنه بازدراد قطع الكعك الواحدة تلو الأخرى منتظرة أن يبادرها هو بالحديث بلا جدوى. وفجأة شق جدار الصمت من حولهما جرس الباب يدوي، فسارعت "نرجس" لتفتح الباب، من ذا الذي يدق جرس الباب في هذه الساعة المبكرة من النهار؟ تفكرت إيلين، وتماهى لهما صوت "نرجس" يقول:

– "إتفضل يا أستاذ عبد الناصر، الجماعة في الصالون" فانتفضت "إيلين" واقفة تنفض عن فستانها فتات الكعك والسكر المطحون، واستقامت بجسدها الممتلئ مستعدة لاستقبال الضيف الوافد، في حين لوى "داود" عنقه ناحية باب الصالون ليتحقق من حقيقة ما سمعه من أن عبد الناصر أفندي قد جاء بنفسه فعلا لزيارتهم وهو يتحسس – بحركة لا إرادية – خاتمه الفضي من حول أصبعه، ولكنه لم يجده، رفع يده أمام وجهه ليتحقق من غياب خاتمه العزيز فتأكد من

غيابه، تفكر في أنه ربما يكون قد نسيَ، في خضم تأثره بكل تلك الأحداث المتلاحقة، أن يضعه كما كانت عادته حول إصبعه. دخل العجوز إلى الحجرة تقوده نرجس وتبدى أنيقا في بساطة – كعادته – بالبدلة الزرقاء الكاملة والطربوش الأحمر وقد تعكز على عصاه الأبنوس قائلا:

– "صباح الخير يا داود، صباح الخير يا مدام إيلين، أنا آسف إني جيت كده من غير ميعاد، بس والله ده من العشم، وقلت إن مافيش بين الإخوان مواعيد".

– "أهلا أهلا إتفضل" بادرته إيلين مرحبة بابتسامة عريضة، وإن خفضت عينيها للأرض وتأخرت مقدار خطوة للخلف خجلة، حيث لم تكن قد تقابلت معه من قبل وإن أدركت طبعا من يكون هذا الزائر المبجل، ثم أضافت:

– "أروح أنا أعمل الشاي وأملا لكم طبق الكحك، علشان تدوق عمايل إيديّا يا أستاذ عبد الناصر". وانفرجت أسارير داود بمجرد أن دخل صديقه القديم، وتناسى على الفور حكاية الخاتم، وباقي المشاغل التي اهتم بسببها، فقام على الفور وأخذه بالحضن من قبل حتى أن يدع زوجته "إيلين" تنتهي من إلقاء كلماتها المرحبة إلى مسامع ضيفهما.

- "إنت فينك يا راجل من زمان؟ على العموم ماكنتش هاتختار وقت أحسن من كده علشان تجيني." بادره داود بلهجة صادقة. خلع عبد الناصر عنه الطربوش، فأخذه عنه داود ووضعه بجوار عصاه التي علقها على قطعة الموبيليا الأنيقة بجانب مدخل الحجرة المصنوعة في إيطاليا خصيصا لحمل الطرابيش وتعليق المظلات والعصي والذي منه. وبينما هو متشاغل بذلك كان عبد الناصر أفندي يمد شفتاه ويمطها وكأنه يلوك بكلمات صامتة قبل أن يشرع فعلا في أن يتحدث بها، ومضت دقائق قبل أن يعقب على كلمات داود قائلا:

- "فعلا يا داود ما كانش فيه وقت أهم من كده، وعلشان كده أن جيتلك النهاردة". بالطبع توجس داود قلقا عند سماعه تلك الكلمات، ولكنه دعاه للجلوس أولا ثم سأله بدوره:

- "خير يا عبد الناصر أفندي، وغوشتني". تنحنح الآخر متحرجا مما كان يزمع أن يقوله وأجاب:

- "مش عارف يا خويا أبتدي منين، بس الحق مش عليك يا داود أفندي، الحق على العصابة دي إلي أخدت الأرض وشردوا أصحابها بحجة إنهم قال إيه (شعب الله المختار) طيب وباقي الناس؟ إيه؟ ربنا كان خلقهم غلط؟ وماختارهمش ليه همّ كمان؟ حاجة غريبة بصحيح!". مقدمة لا

توحي إلا بمصيبة قادمة، كما تعلو الأمواج وتتلبد السماء بالغيوم أولا فيعلم أهل الإسكندرية بأن "النوة" قادمة بعدها لا محالة. ورغم توجسه علق داود قائلا:

- "الظلم لمّا بيحصل في أي حتة في الدنيا لازم بيجيب من وراه الخراب. بس العالم مش ممكن هايسكت عالظلم ده يا عبد الناصر أفندي وأنا أكتر واحد إنضرِّيت بسببه، خسرت ولادي الإتنين، سابوني وجريو على (أرض الميعاد) بسلامتهم!"

- "مانا عارف يا داود، إنت هاتقول لي، بس المشكلة دلوقت إن فيه حالة حرب بينا وبينهم، وهمّ ابتدو فعلا وجم واحتلوا سينا ويّا أكبر دولتين من دول (العالم) إللي انت بتقول إنه مش هايسكت على الظلم! الحقيقة يا داود إن العالم عاوز يسكت، واحنا لوحدنا إللي عايزين نتكلم ونقول لأ للظلم ده"

- "والله باين كلامك صحيح يا عبد الناصر يا خويا، يعني نخلص من الإنجليز يطلعولنا ال-... " وسكت داود إذ لم يستطع أن يكمل الكلمة، فعقب العجوز قائلا:

- "ال- إيه ياداود؟ كمّ-ل ياخويا علشان تريحني وتقصّر المشوار عليّ، أقول لك أنا، نخلص من الإنجليز

يطلعولنا اليهود، مش كان قصدك تقول كده برضه؟ طب أنا هاسألك سؤال: تقدر إنت النهاردة تعمل ويايّ الحاجات إللي كنا بنعملها في أيام الشقاوة وتروح تفجّر قنبلة ولا صباع ديناميت في معسكر لليهود، زي ما كنا بنفجّر معسكرات الانجليز؟ طبعا لأ، ما هو يمكن يكون قاعد جواه ولد من ولادك، ماتآخذنيش!" أُخذ داود من ذلك الطرح المباغت، ولكنه استجمع شجاعته وقال على الفور:

- "كلام ده إيه يا عبد الناصر أفندي؟ (أول هام) إحنا كنا بنحارب الإنجليز إللي كانوا محتلين بلدنا وأرضنا، لكن إسرائيل مش محتلة أرضنا عشان نحاربها. (تاني هام) لو إسرائيل ماكانتش خرجت من (سينا) بأمر من إيزينهاور كنا هانروح إيدي في إيدك يا عبد الناصر أفندي ونحاربهم، ولو إننا - بيني وبينك - عجّزنا خلاص على الموضوع ده! ولا إيه يا راجل يا عجوز؟". وضحك داود محاولا تخفيف حدة النقاش، فاستجاب له عبد الناصر وبادله ضحكا بضحك، وفي تلك الأثناء دخلت "إيلين" ترافقها "نرجس" حاملتان صينية الشاي وطبق الكعك.

دارت الكلمات الخاوية والضحكات الطنانة فيما بينهم وهم يرشفون الشاى ويقضمون قطع الحلوى، وإن بدت في

عيون عبد الناصر افندي كلمات تعن عليه لأن يبوح بها، إلا أن وجود إيلين وسطهم قد حال دون أن يستفيض، وآثر داود بدوره أن ينتظر حتى تحين الفرصة المناسبة ليستكمل حديثه. ولكن لم يستكن ذهن داود على الإطلاق، فقد تلقفته صور لقائه مع الشيخ فودة ومن قبله مع عبد الحميد مصطفى، فتشاغل بها متسائلا عما كانت زيارة عبد الناصر له اليوم هي حلقة جديدة في تلك السلسلة الكئيبة من الأحداث التي لاحقته في الأيام الأخيرة. وكما كان قد توقع، فبمجرد ما تركت إيلين حجرة الصالون، تململ العجوز في مجلسه وواجه داود من جديد قائلا:

– "في الحقيقة يا داود ياخويا، أنا عندي كلمتين لازم أقولهم لك. "جمال" إبني إتصل بيّ إمبارح بالليل بخصوص موضوعك يا داود"

– "موضوعي؟ موضوع إيه؟"

– "مانا جايلك في الكلام أهه. ما هو أصل اللواء فياض كان كلم الريس بخصوص المصنع والقصر إللي إحنا قاعدين فيه ده دلوقتي. بيقولوا إن دي حاجات المليونير اليهودي بنيوتي باشا ولازم تروح للجنة التصفيات ولا مش عارف إسمها إيه! وكمان حكاية الشيخ فودة وزيارتك ليه دي،

إنت مش عارف إنه من زعماء الإخوان يا داود ولا إيه يا راجل؟"

- "بقى رئيس الجمهورية كلمك مخصوص علشاني؟ ده أنا أبقى راجل مهم جدًّا على كده وانا اللي كنت مش واخد بالي!"

- "يا داود ياخويا الموضوع إن جمال بيحبك ومش عاوز لك مشاكل، وعارف غلاوتك عندي، فطلب مني أقول لك الكلمتين دول علشان نحل الموضوع ده بطريقة ودية".

- "يا عبد الناصر أفندي المصنع والقصر ده، بتوعي أنا، بوجب عقود بيع موثقة في الشهر العقاري، مش مجرد كلام!" فابتسم عبد الناصر ومد يده ليربت بها بحنان أصيل على كتف صديقه الجالس بجانبه، ثم عقب قائلا:

- "يا داود يا حبيبي العقود دي ممكن يطعنوا في صحتها بمنتهى السهولة لأنك ماكانش عندك ما يثبت إمتلاكك لقيمتها وقت البيع والشراء، وبعدين دي الحكومة يا داود، عاوز تحارب الحكومة؟". أسقط في يده عند سماعه هذا الكلام، فتأمل صديقه الجالس أمامه شاكا في صدق نيته. أيمكن أن يتآمروا عليه كلهم فيسلبونه هكذا من كل ممتلكاته

في غمضة عين، بينما يقف هو مكتوف الأيدي؟ لا. لايمكن أبدا، وسوف يحارب، وحتى النفس الأخير!

- "يعني المطلوب إيه دلوقت؟" قالها داود وكأنه يستسلم لمصيره في حين كان ذهنه متوقدا يبحث عن مخرج من تلك الورطة التي أقحم بها.

- "أنا رأيي يا داود إن الحل الوحيد قدامنا هو التفاوض!"

* * *

تجمع الأطفال الثلاثة فوق سطح القصر يوم جمعة - يوم عطلتهم - يلعبون ويمرحون. كان سليمان قد وضع على كتفيه ملاءة سرير عقد طرفيها أمام عنقه، وفوق رأسه تاجا من الورق المذهب من بقايا حفلة رأس السنة الماضية، وصار يروح ويجيء بطول السطح وعرضه جارا وراءه طرف الملاءة الآخر، في حين يعطي أوامره لرعي-ته "ليلى" و"منى" اللتان كانت تنفذان أوامره بكل طاعة وامتثال. بل وكانتا تعدان له الطعام "الملكي" في صورة أوراق ملونة قد أعداها له في شكل كرات صغيرة مرصوصة على باطن غطاء علبة شيكولاتة صفيح فارغة.

قال لهما – كما تعلم من المسيو ناثان في المدرسة – أن الملك لا بد أن يكون حكيما قبل أن يكون قويا، يجب أن يحب شعبه أكثر من أن يخيفهم. ثم هب واقفًا فوق كرسي قديم وضعوه في وسط السطح ولقبوه بكرسي العرش، ونظر من حوله نحو البحر مادا ذراعه أمامه معلنا أن مملكته الشاسعة الممتدة أمامه هي أقوى مملكة على وجه الأرض، وأن كل سكانها هم رعاياه وينبغي لهم أن يطيعوه كل الطاعة، وفي المقابل كان عليه أن يسبلهم بحكمته وحبه لهم. أما "ليلى" و"منى" فنظرتا إليه ضاحكتين، ثم أعلنتا فجأة أن اللعبة قد انتهت، وأنهم سوف يلعبون الآن (مَدرَسة) حيث تصيران مدرستان مادتي الحساب واللغة الإنجليزية، بينما يكون هو تلميذهما، فأذعن بدوره صاغرا، ونزل من فوق الكرسى، وخلع تاجه الورقي، وافترش الملاءة، وتحول في غمضة عين من ملك متوّج إلى تلميذ في مدرسة!.

*** * ***

بعد صلاة الفجر توجه محمد البوري ليوقظ الدكتور رشاد ربيبه الجديد في سجن قنا. إعتادا أن بسرقا الساعات الأولى من اليوم يتبادلان خلالها الأحاديث والذكريات قبل أن يستيقظ باقي السجناء، والأهم، قبل أن تستيقظ شمس الصعيد

الحارقة اللاهبة. بالرغم من استنكاره لطريقة تفكيره حيال الإيمان وممارسات العبادة، إلا أن انفتاح عقله على مناقشة أي شيء وكل شيء جعلت من محاوراتهما كنزا من المتعة الذهنية لم يعهدها مع أي من أصدقائه من قبل. سأله يومًا أن يصلي معه، ولكنه أجاب بأنه لا يصلي! هكذا، وكأنه يقر بأنه لا يأكل الباذنجان مثلا!. وفي مناسبة أخرى سأله لو كان مسلما بالأساس، فضحك ملئ قلبه، وكأنه اس–تمع إلى طرفة نادرة، ومع ذلك لم يعقب! وإن اعترف له في يوم آخر بأن أبويه كانا مسلمين يمارسان طقوس الإسلام بحذافيرها كباقي المسلمين المصريين.

بادره في ذلك الصباح قائلا بنبرة ملؤها السخرية:

– "إزاي بس يا دكتور تقدر تشوف الفجر ده، والشمس طالعة بتتولد، والسما بتتلون كده قدام عينيك، من غير ما تفكر إن فيه خالق جبار ورا الحكاية دي كلها يعني؟".

– "ومين بس إللي قال إن مافيش خالق؟ لأ يمكن فيه، ويمكن مافيش، أنا بس باقول إني ما باملكش دليل على إنه فيه وكمان ماعنديش ما يثبت إن مافيش! ده كل إللي باقوله. ماعندكش إنت دليل؟"

– "ماهو قدام عينيك! عاوز أكتر من كده دليل؟" واشار نحو شعاع الشمس المتسلل بحياء عند الأفق الممتد.

– "ده ياحبيبي دليل على دوران الأرض حول نفسها مرة واحدة كل أربعة وعشرين ساعة، وحوالين الشمس برضه، مرة كل سنة، والكلام ده عرفناه من زمان، زمان قوي!. يعني لو رحت معبد أبو سمبل النهاردة هاتلاقى أجدادك بنوه من تلات آلاف سنة، بحيث شعاع الشمس يدخل من فتحة بتطل على الحجرة الملكية، مرة واحدة في السنة ينور تمثال الملك رمسيس في يوم عيد ميلاده! والكلام ده عمره أطول من عمر رينا بتاعك، بييجى ألف وخمسميت سنة!" فانتفض محمد البوري غاضبا وهم بأن يتركه ويرحل، لولا أن استبقاه رشاد فكري قائلا:

– "خلاص ماتزعلش، حقق علىّ! أقعد بس واهدا كده، وخلينا نتكلم عن لوحاتك! إنت عارف كام واحدة إتباعت للزوار وأهل المساجين لحد دلوقت؟ أربعة!" فرد بنبرة ملؤها الفخر والرضى الأصيلين:

– "هذا من فضل ربي!". فعقب رشاد فكري بسرعة مباغتة منتهزا تلك الفرصة السانحة التي لاحت:

- "لأ. قول هذا من فضل عقلي، وانت الصادق!".

وهكذا كان كلاهما يتحين الفرصة تلو الأخرى لتوجيه لكزاته الخفية الموجهة تجاه أفكار الطرف الآخر وعقيدته، تحرك المناقشات الساخرة بينهما، في حدود اللياقة والأدب، وان توقفا دومًا عند الحد الذي يعتبره الآخر تعديا على ما اتفقا عليه ضمنيا من أنه يقبع في منطقة المحرمات.

* * *

بحث عنه في كل مكان!.

فوق الكومودينو، وخلفه، وتحته. تحت السرير وفي الدولاب. في جيوب السترات كلها والسراويل. حاول أن يتذكر آخر مرة تحسسه حول إصبعه، كانت يوم أن أخذه "ديدو" للشيخ فودة. أيكونوا قد سحبوه من إصبعه في الظلام وهم يفتشوه حين شعر بتلك الأيدي تصعد وتهبط فوق جسده؟ أيكون ذلك الرجل ذو الصوت الغليظ قد اغتصب منه خاتمه المسحور خلسة، مستترا تحت جناحا الرهبة والظلام اللذان كانا يكتنفاه؟ إنه لا يتذكر الآن أن يكون قد رأى الخاتم بعدها. لا بد أن يكونوا قد سرقوه! لقد أخبر الشيخ حسنين - رحمه الله - عن خاتمه المسحور يوم اشتراه، ولابد أنه قد أخبر الشيخ

فودة بعدها عنه، كما تحدث عنه باستفاضة أمام "ديدو"، لا بد أن تكون أيديهم القذرة قد إمتدت إليه، فسرقوه طمعا في قوته المسحورة!

ومع ذلك إستدعى إيلين يومها متسائلا عما لو كانت قد رأته فأنكرت. شعرت لحظتها بوخزة في قلبها، كانت تلك أول مرة تكذب على داود، بل ربما كانت أول مرة تكذب على الإطلاق! ولكنها أنكرت إن كانت لا تعرف مكانه، ولن تبوح له به مهما يكن، إذ تملك منها الاعتقاد بشؤم ذلك الخاتم اللعين! ثم انتظر حتى رجع الأبناء من المدرسة وسألهم، إلا أنهم لم يكونوا يعلموا من أمر ذلك الخاتم شيئًا، وإن كان يأمل لو أن أحدهم – وخاصة سليمان – قد أخذه ليلعب به لعبة "الملِك والرعية" كما كان أحيانًا يختلس من دولابه طربوشا أو عباءة أو حذاء لامعا ليلعب مع أختيه!

في نفس اليوم اتصل داود تليفونيا بالأستاذ "سينوت قرياقوس" المحامي وحدد موعدا لملاقاته بكتبه بعد يومين لمناقشة موضوع القصر والمصنع. وفي مكتبه أخبره المحامي الشهير بأنه بعث سكرتيره الخصوصي للإتيان بنسخة من العقد الموثق بالشهر العقاري، وبعد بحث جهيد اعتذر له الموظف

المسئول – وهو يتصبب عرقا – بأن الدوسيه الذي كان يحمل عقده إلى جانب اثنين وثلاثين عقدا آخرين، قد اختفى!.

ثم تلقى داود مكالمة تليفونية بعد أيام قليلة من عبد الناصر أفندي يستأذنه في أن يأتي لزيارته أيضًا، ولكن بصحبة اللواء فياض هذه المرة، مما دعاه لأن يتصل به مسبق–ا. لم يجد داود بدا من أن يوافق مذعنا، فقد ارتفعت من حوله أسوار عالية لا يقوى على أن يحطمها من ناحية، ولا يقدر أن يمد بصره من فوقها لينظر ما تخبئه له الأيام من ورائها. إفتقد بشدة – لحظتها – خاتمه المسحور، وانتابه وقتها شعور دفين بأن اختفائه المفاجئ كان نذرا لأوقات عصيبة تنتظره.

* * *

وقف داود متسمرا أمام زرقة مياه البحر بامواجه الثائرة، وأحاطت به الرياح الباردة وقد التصقت ذراعاه بجزعه المرتجف التصاقا. لم يستطع أن يغالب شعوره بأن حبالا قوية تلتف حول جسده تقيده، وبأن أطرافها المشدودة بكل عنفوان كالأوتار حول عنق آلة العود، من حوله، كانت بأيدي الشيخ فودة والرجل ذو الصوت الغليظ من ناحية واللواء فياض وتابعه عبد الحميد مصطفى من الناحية الأخرى، يتجاذبه كل من

الفريقين إلى جهتين تبدوان متعاكستين، وإن أدتا في النهاية إلى نفس الغرض، أن يختنق، ويموت، أو أن يرحل. كادت شدة الريح أن تنزع عنه طربوشه، فتملص من تلك الرباطات ومد يده لأعلى وسنده.

الفصل السادس عشر

ن–وَّة الغطاس.

اليوم التاسع عشر من يناير، عام 1958.

موجة باردة جديدة عصفت بالإسكندرية، كما تعصف بها الن–وّات التي تأتيها متزامنة عند كل شتاء، إلا أنها كانت أشد قسوة هذا العام من أي وقت مضى. ارتفعت الأمواج المهولة حتى طال بعضها رصيف واسفلت الكورنيش، وهبت الريح تزمجر هادرة واظلمت الدنيا وطارت لافتات الطريق في الهواء، وتحطمت النوافذ الزجاجية بل وانخلعت الأبواب من متاريسها. وتساقطت الأمطار الغزيرة لثلاثة أيام وثلاث ليالي دون انقطاع، بينما قبع الناس في منازلهم ينتظرون. عند المساء انتابت داود رعشة، وشعر أولا بأن جسمه قد تث–لج، ثم غشته حمى شديدة طرحته بالفراش، غطت إيلين صدره بأوراق الجرائد تحت البيچامة، وتجرع شيح البابونج المغلي والشاي الممزوج بعصير الليمون وحبات الأسبرو على مدار الساعة، ولم يكف عن السعال والرشح طوال الليل.

في تلك الليلة، وكان جسده طريا مبللا من طيلة الرقاد والعرق ومن تأثير الأسبرو، غفا داود. لم يكن نوما بالمعنى

العادي الذي يأتي عند آخر اليوم بفعل التعب، أو لحلول الظلام، أو حتى استسلاما للسأم، ولكنه كان نوم المرض، ذلك النوم المرادف للإغماء، الذي لا تشعر بعد أن تفيق منه بالراحة أو الاكتفاء بل قد يغلبك الاحساس بكونك أشد تعبا من بعده عما كنت من قبل. وفي وسط تلك الغفوة العالقة بموضع ما بين النوم والصحوة، رأى داود حلما غريبا، تذكر تفاصيله كاملة عند افاقته وحكاها كلها لسليمان ابنه إذ كان موجودا معه في طياته، ثم رآه جالسًا قبالته عند طرف السرير حين أفاق.

في الحلم كان "مَ-لِكا" متوجا، جالسًا فوق كرسي العرش وسط بهو كبير مملوء عن آخره بالرعيّة. والغريب أنه - ذلك الملك - كان يبدو مختلف الملامح عنه، وإن كان موقنا تمامًا بأنه هو هو. وانسابت موسيقى بإيقاعات راقصة كتلك الموسيقى التصويرية المصنوعة باستوديوهات هوليوود لأفلام مثل "علاء الدين" و"لص بغداد"، وفعلا وكما في تلك الأفلام، قامت راقصات شقراوات وسمراوات تتمايلن على أنغام العود والدفوف بصحن البهو في غلالات حريرية هفهافة، وهم الملك بالغناء وسط أصوات الاستحسان المنطلقة من شتى الأرجاء من حوله. وسط ذلك الجو البهيج تسلل إلى البهو

رجل مخيف ملتفح بعباءة طويلة س–وداء غطت جسمه كله وحتى وجهه، ماعدا عينيه البارقتين، تقدم مستغلا الجلبة المبهجة من حوله وهو يغني، وهجم عليه في غفلة من الحراس وانتزع من يده الخاتم – الذي بدا في الحلم أكبر وأكثر رونقا ولمعانا – ثم في لحظة كان قد اختفى. صرخ عندها في وجه الحراس أن يوقفوا اللص قبل أن يهرب ولكنهم لم يفلحوا إذ في لحظة كان قد اختفى. وساد هرج بالبهو وتوقفت الموسيقى والرقص، فهب شاب أنيق يخطر في حلة مذهبة من بين مجموعة من الشبان كانوا يتسامرون في ركن من الأركان، أدرك داود – في الحلم – إنه لم يكن سوى سليمان إبنه، بالرغم من إنه لم يشبه سليمان في الواقع. رفع الأخير سيفه وسط الحاضرين وأعلن بصوت جهوري أنه سوف يذهب ليبحث عن خاتم أبيه وأقسم أمام الجميع ألا يعود إلا به. إنتابته حالة من الحزن لفقدان الخاتم وللخوف من ضياع ابنه إلى الأبد في رحلته للإتيان به. وفي المشهد التالي من الحلم رأى سليمان يبارز مجموعة من الرجال الأشداء فوق ربوة رملية وسط صحراء شاسعة وانتصر عليهم الواحد تلو الآخر فكانوا يتساقطون تباعا من علو الربوة متدحرجين فوق الرمال الناعمة – تمامًا كما في الأفلام. ثم بعدها أبصر سليمان

جاثيا في حضرته في حلة بهية وقد مد له يده بالخاتم بعد أن قص عليه قصة البحث المضنية التي أدت به في نهاية الأمر إلى أن تقابل مع صياد شاب كان قد استوقفه لما وجده في الطريق يسير باكيا، إذ كان قد أمضى الليل بطوله بعرض البحر ولم يسعفه الرزق إلا بتلك السمكة الوحيدة التي لن يكفي ثمنها ليسد رمق أسرته الكبيرة، فاشتراها منه سليمان مقابل مبلغا كبيرا من المال، شفقة بحاله ومشاركة منه لإشباع أولاده، ولما شق باطن السمكة بسيفه فإذ به يجد الخاتم في جوفها!. ابتهج داود من جديد، فوقف في وسط البهو وأعلن أمام كل الحاضرين أنه يهدي الخاتم المسحور وكرسي العرش لابنه الذي استحق أن يكون له خلفا.

* * *

لم تتحمل إيلين ثقل الذنب أكثر من ذلك، عذبتها تأنيبات الضمير فهرب النوم من لياليها، ولم تقدر أن تحتوي مشاعرها فقررت أن تتكلم! نعم، فلابد لها أن تبوح بسرها قبل أن يقتلها القلق بشأنه. كيف سمحت لنفسها بأن تكذب على زوجها هكذا وتجلب على أيامه تلك الحسرة واليأس من بعد اكتشاف ضياع الخاتم؟ بل ومن ذا الذي أوكلها هي لأن توقن الفرق ما بين الصواب والخطأ، بين الخير والشر، وبين الحق

والباطل؟ بل وما الذي دعاها أن تتفكر بأن خاتما يمكن أن يجلب السعادة أو الشقاء، إلى درجة أن تخبئه متعمدة عن زوجها وحبيبها، وتكسر قلبه، وتكذب عليه كل تلك الفترة لمجرد أنها اعتقدت أنه خاتم مرصود يحمل الشؤم في طياته، فكان سببًا لتعاستهم. تفكرت فيمن يمكنه أن يساعدها في ورطتها هذه، فتبدى لها "أبونا ميخائيل" الشخص الأمثل لتتحدث إليه في مثل تلك الظروف، فهو رجل الله الذي لا بد وأن تجد عنده الإجابة عن تساؤلاتها والحل لورطتها التي أوقعت نفسها بها.

عند الفجر ذهبت للمقابلته قبل أن يبدأ صلاة القداس، وبعد لقائه في صحن الكنيسة، والحديث المستفيض معه، نصحها القس بألا تعترف لداود بالحقيقة الآن على الأقل، لئلا يغضب منها فيكون غضبه ربما سببًا في خراب البيت، ولكنه أصر على أنها لا بد وأن تعيد إليه الخاتم، بطريقة غير مباشرة، كأن تعلمه مثلا بأنها - أو أحد الأبناء - قد وجده بمكان ما، أو شيء من ذلك القبيل. ولما عقبت بأنها كانت تؤمن بأنها شعرت بأن قوة شيطانية كانت تنبعث من ذلك الخاتم، هدأ القس من نفسها قائلا بأن الشيطان هو روح لا يمكنه أن يسكن خاتما، جمادا لا حياة فيه، فلا يجب أن تخشى

من ذلك على الإطلاق، كما أن روح الله القدوس، فوق ذلك، يحميها هي وأسرتها ويظللهم ضد قوة الشياطين على الدوام. لكنه طلب منها أن تبقى وتصلي القداس معهم ثم تتناول من جسد الرب ودمه، أكبر حماية لها قبال تلك الأفكار الشريرة. إستجابت إيلين – بالطبع – لمشورته بدون تردد، وشعرت فعلا ببعض السلام بعد التناول، ولكنها دأبت خلال رحلة العودة تتفكر في أحسن طريقة تعيد بها الخاتم لداود دون أن تثير شكوكه كما نصحها القسيس.

عند عودتها، وجدت داود نائما بالدور العلوي، إذ كان ما يزال يعاني من نوبة البرد التي أسلمته للفراش، وكانت ليلى ومنى تلعبان بعرائسهما، بينما قبع سليمان على الأريكة يتصفح إحدى مجلات الأطفال الفرنسية المصورة التي كان قد استعارها من مكتبة المدرسة. فلما أبصرها الصبي هب فرحا للقياها، وفي غمار الفرحة كان يتراقص من حولها بينما كان يقص عليها تفاصيل الحلم التي سمعها قبل قليل من أبيه. ابتسمت إيلين ولم تعقب، وإن سرحت بأفكارها نحو السمكة والخاتم، فتفكرت في أن تبتاع سمكة من السوق وتخبئ الخاتم بداخلها ثم تعلن أنها وجدت الخاتم بجوفها، ولكنها طرحت هذه الفكرة عنها فورًا إذ أدركت أن داود لا بد وأن يكتشف اللعبة –

لسذاجتها – ويثور عندها حين يدرك أنها هي التي أخفت الخاتم عنه فلا يسامحها أبدًا على خديعتها إياه.

* * *

تعافى داود بعد أيام قلائل وفي الوقت المناسب ليستقبل ضيوفه القادمين لزيارته. في تمام السابعة مساء دق جرس الباب وأعلنت نرجس عن قدوم عبد الناصر أفندي بصحبة "واحد ضابط" لزيارتهم. إستقبلهم داود بحجرة المكتب التي كانت تحوي مكتبا فخما وأرففا مكتظة بالكتب، بالإضافة لأريكة وثلاث مقاعد من الجلد النيذي الإيطالي الفاخر، الطقم الذي كان نادرا ما يجلس فوقه أحد من أهل البيت، والبيانو الذي كان داود قد استمع لموسيقاه حين جاء لمقابلة "بنيوتي باشا" لأول مرة بصحبة "قمر" – رحمها الله – والذي لم يمس مخلوق مفاتيحه منذ انتقلا للسكنى بالقصر. تبادل واللواء "كامل فياض" نظرات حذرة في حين كانوا يحتسون القهوة التي أسرعت نرجس بإحضارها، بينما آثرت "إيلين" أن تبقى وحيدة بحجرتها في الدور العلوي. إستمر الصمت عالقا من حولهم حتى بادر كامل فياض داود بالسؤال عن صحته متأدبا، ثم انطلق يتحدث عن شدة الن–وَّة وقسوتها ذلك العام، حتى أغلق بوغاز الميناء لثلاثة أيام. ولمّا تبين للجميع بأن تلك

الكلمات المائعة قد اختنقت من شدة التوتر المخيم على المكان، مد اللواء فياض يده إلى جيب سترته العسكرية المنشاة وأخرج ورقة مطوية بعناية. أعطاها لداود صامتا بينما فضها الأخير وتبين له أنها كانت تحوي رسالة بخط الرئيس جمال موجهة لسيادة اللواء.

وضع داود نظارته وشرع يقرأ محتواها بينما تابع – من فوق النظارة – نظرات كامل فياض الفاحصة تدور حول المكان، مستغلا انشغاله بقراءة الخطاب، وكأنه سمسار عقارات جاء ليثمن المكان قبل أن يشرع في تقديم عرضه، فابتسم داود بينه وبين نفسه، مؤكدا انطباعه الأول الذي كان قد كونه عند لقاء المنشية عن هذا الرجل، بأنه شخص فج، وقح، وتعوزه اللياقة.

واستمر داود في القراءة المتأنية، نعم هذا هو خط الرئيس جمال، نفس الخط الذي كتب به يومًا عنوان أبيه فوق أقصوصة صغيرة دفع إليه بها يوم زاره بمكتبه بمنشية البكري. وكان هذا هو نص الرسالة:

عزيزى كامل:

هذه الكلمات أكتبها إليك بخصوص صديق عزيز ورجل وطني ساهم بجهد كبير في العمل الثوري لتحرير مصر من الإستعمار الإنجليزى الذي دام لأكثر من سبعين عاما. والذي أطلب منك أن تتيح له أن يقرأ بنفسه هذه الكلمات.

وأظن يا كامل أنك تعرفه شخصيًّا حيث تقابلنا سويا وإياه ذات ليلة بالإسكندرية، إنه الأستاذ داود عبد الملك.

وحرصا من مجلس قيادة الثورة على إحياء مبدأ العدالة الاجتماعية في توزيع أموال الإقطاعيين وكبار الملاك في شتى أنحاء الجمهورية على بقية أفراد الشعب، فلقد تعين على الجميع الخضوع وتنفيذ ما ينص عليه هذا القانون بدون استثناءات من شأنها أن تعلى قيم المحسوبية التي طالما عانى منها شعبنا.

وبما أن ممتلكات بنيوتى باشا، الثرى السكندري المعروف الذي رحل عن مصر قبل سنوات، تقع تحت طائلة القانون السابق ذكره، فلقد تعين على الجميع تطبيقه، وخصوصًا إنى لا أشك مطلقًا في وطنية واخلاص داود عبد الملك.

ولكن هناك مسألة المبايعة التي تمت بينه وبين بنيوتى باشا فأرجو منك مراعاة هذه الظروف الاستثنائية بالنسبة لداود، وبالمقابل فأطلب منك - طلب شخصى - اعتباره مالكا شرعيا للمصنع والفيللا وبالتالى فاسترجاع تلك الممتلكات ينبغي أن تكون عن طريق شراؤنا لتلك الممتلكات منه في مقابل عائد مادى مناسب بحيث لا يتضرر هو أو أسرته، حيث تعتبر تلك الممتلكات الآن مصدر الدخل الوحيد لديهم. أرجو منك سرعة التنفيذ مع الأخذ في الإعتبار - من جديد - وضع الأستاذ داود عبد الملك كصديق شخصى وواحد من أهل الثقة المناضلين معنا من أجل استقلال مصر.

وأخيرا تقبل مني كل الشكر وبلغ سلامى وتحياتى لداود حين تقابله وتعرض عليه خطابى هذا.

رئيس الجمهورية

جمال عبد الناصر

رفع رأسه من فوق الورقة ثم طواها صامتا وأعادها إلى اللواء فياض بإيماءة مقتضبة، الذي وضعها بدوره من جديد في جيب سترته. وهنا شرع عبد الناصر أفندي يتكلم لأول مرة منذ مجيئه محاولا أن يخفف من حدة الصمت الحذر

الذي اكتنفهم. كعادته كان رجلا رقيق المشاعر، حساس، بالإضافة للإعزاز الشخصي والروح الطيبة التي كان يكنها لداود، فشعر بمقدار تأثره ولا شك من وقع زيارتهم عليه، وتبعات ذلك الخطاب الذي كان قد قرأه في الطريق قبل أن يصلوا. تحسس بيده اللفافة التي كان يحملها معه اللواء فياض عند حضورهما لاسترضاء داود والتي كان قد وضعها على المنضدة أمامهما، وفضها بتأن وأخرج زجاجة نبيذ "چناكليس" ثم نادى داود قائلا:

– "أؤمر لنا بتلات كاسات ياداود ياخويا علشان نتدفى شوية في الليلة الباردة دي". فنظر إليه داود بلفتة ملؤها الحب مستجيبا لطلبه، وقام متجها نحو المطبخ.

انتهز كامل فياض فرصة غياب داود فهب واقفًا يدور بأرجاء الغرفة عاقدا يديه خلفه، متأملا اللوحات على الحوائط والتماثيل والتحف المتناثرة هنا وهناك فوق أرفف المكتبة، ثم علق بصوت خفيض وكأن أفكاره قد هربت منه على شكل كلمات:

– "فلوس الناس الغلابة دي كلها لازم ترجع لهم، والقصر ده هايصبح في يوم وليلة مدرسة يتعلموا فيها ولادهم"

ثم استدار بحركة مسرحية مواجها عبد الناصر أفندي قائلا وهو يشير بيده إلى إحدى اللوحات الزيتية:

– "اللوحة دي لوحدها ممكن تمنها يأكل عيلة كاملة لمدة سنة يا أستاذ عبد الناصر، ولا البيانو.". ابتسم عبد الناصر إفندي غير مصدق لكلمة واحدة قالها، فقد أدرك – مع تراكمات الأيام – ضعف النفس الذي وقع فيه معظم هؤلاء الضباط الشبان وحقيقة ما سوف تؤول إليه تلك الممتلكات، ولكنه قاطعه بلطف وعلق بحنان أبوي على كلماته قائلا:

– "طيب بس بالهداوه شوية يا كامل يابني علشان خاطر داود ما يزعلش"

حينما عاد داود حاملا الصينية والكؤوس الفارغة كانت سحابة من الهم قد عادت تكلل ملامحه. مد صديقه العجوز بزجاجة النبيذ إليه وقال متمازحا:

– "هبوا املأوا كاس المُنى، قبل أن يملأ كاس العُمر كف القدر!"

– "كاس مُنى إيه وكاس عُمر إيه إللي بتتكلم عنهم؟ ويبقوا مين (مُنى) و(عُمر) دول يا أستاذ ناصر؟" تس–اءل كامل فياض متحيرا.

- "ده أصله كلام سر بيني وبين داود.!" أجابه العجوز متخابثا فابتسم داود أخيرا، وشرع عندها يصب النبيذ في الكؤوس، ثم انتابته نوبة من الضحك سرت عدوتها لتشملهم جميعا.

* * *

إنقضت نصف المدة التي حُكم بها عليه، وأدرك محمد البوري أن الفضل الأكبر لسرعة مرور الأيام كان يعود للدكتور رشاد، الذي كان قد ملأ بحضوره الجذاب ومناقشاته الثرية - والمستفزة في أغلب الأحيان - وبنشاطه وهمته الغير محدودة معظم أوقاته، حتى إنه كان أحيانًا لا يجد الوقت الكافي لإنجاز ما كان مزمعا أن يقضيه، تعلم أن يقرأ كثيرا، أدب وتاريخ وفلسفة وفن، كل شيء في مكتبة السجن التي نفحها الدكتور رشاد بكتبه الشخصية، بالإضافة للرسم الذي استغرق ساعاته وايامه. عشرات من اللوحات التشكيلية، بيع منها حوالي نصفها فأدرّت على إدارة السجن دخلا لابأس به، ولكن الأهم كان بسبب ذياع صيته حتى أن جاءهم مندوب "جريدة الجمهورية" مع مصور الجريدة ذات يوم، وأدلى محمد البوري بحديث صحفي ونشر ذلك الحديث ملحقة به صورته وسط اللوحات، بعنوان:

فشعر يومها بانه صار مميزا، وتلقى معاملة فريدة من إدارة السجن وكأنه بات بين ليلة وضحاها من أشهر الفنانين التشكيليين في مصر. ولم يزل يحتفظ بنسخة الجريدة وسط طيات ملابسه، يراجعها عند كل مساء، ويتباهى بها أمام النزلاء المستجدين. ولكنه ومع ذلك كان متوجسا من تلك الفترة القليلة المتبقية إذ كان قد حان موعد خروج الدكتور رشاد فكري بعد أقل من أسبوع، وأدرك بينه وبين نفسه كم سيفتقده وإن أبى على نفسه أن يصارحه بتلك المشاعر إكبارا من ناحية، وخوفا من ناحية أخرى – متسائلا على الأقل إلى الآن – من أن تكون أفكاره الشيوعية تلك قد تسللت إلى عقله وقلبه – والعياذ بالله! كان يهرب إلى الوضوء والصلاة كلما وافته مثل تلك الأفكار.

ليلة خروجه للعالم من جديد، أتاه الدكتور رشاد لزيارته مودعا، فرحب به بل وتلقاه بين أحضانه باكيا رغما منه إذ قد فاضت به المشاعر ولم يفلح في أن يطمسها. قال له الدكتور رشاد إنه بات مقتنعا أن القدر قد جمع بينهما في هذا المكان لسبب، وليس بمحض الصدفة، وأن عليهما أن

يفكرا بجدية متمحصين في كنه ذلك اللقاء ومعناه. أجابه أن الذي جمعهما هو الله سبحانه وتعالى وليس القدر، فضحكا معا. قال إنه يؤمن بأن طريق صداقتهما لم يزل في أوله، وأن العمل البناء الذي بدآه معًا لا بد له أن يكتمل بعد خروجه من المعتقل، فلمصر حق على أبنائها، وقد لزم عليهما كأبناء أن يوفياه. فأجابه بأنه سعيد أنه صار "يؤمن" بشيء! فضحكا ثانية. ثم قال له بأن الثورة الحقيقية لا تقوم بالقوانين فحسب، إذ أن قوتها الحقيقية تكمن في الشعب المنتج الدافع لعجلاتها، والشعب الجاهل لاينتج، لذا فإن مسئوليتهما تكمن في تعليم الشعب وتنويره بما يحمله ذلك من عناء وجهد خارق. كلمات عميقة تركت في نفسه أكبر الأثر، كان يتفوه بها بثقة وايمان يقيني فحفظها محمد البوري في نفسه وأقسم أن يضعها نصب عينيه هدفا يعينه على قضاء المدة الباقية له بدون الدكتور رشاد فكري، وتعاهدا على اللقاء بالإسكندرية، بمجرد أن يطلق سراحه. ولكنه وبمضي الأيام المتعاقبة وجد الكلمات هذه تنفلت تباعا وتهرب من ذاكرته حتى غابت كلية عنه، بل وانمحت تلك العلاقة الوثيقة التي كانت قد ارتبطت بها يومًا بشخصية الدكتور رشاد فكري، الذي احتفظ مع ذلك بمكانة عالية في ذهنه مع مرور الأيام.

* * *

وعده اللواء كامل فياض بمكافأة إن هو ساعده على اقتفاء أثر الشيخ فودة في بيته العتيق. لم تغره المكافأة، وإنما الاستنفار من جبروته وتسلطه على مصائر العباد هو ما دفع داود عبد الملك ذات فجر إلى أن يقود حملة لمداهمة الشيخ واعوانه في عقر داره. وفعلا جلس إلى جانب سيادة اللواء بالمقعد الخلفي لسيارته وكان يعطي تعليماته المتتالية لسائق العربة التي كانت تتقدم الموكب الصامت المحمّل بالجند المسلحين يطوف في شوارع المدينة النائمة.

عبَر الموكب شارع فؤاد ثم مالت السيارتان إلى طريق جانبي مارا بمكتب سمسار العقارات، الذي كان مغلقا بالطبع في تلك الساعة من الفجر، فتأكد داود من أنهم سلكوا الطريق الصحيح على أي حال. ثم عرجوا عند أول الشارع المتفرع حيث البيوت القديمة، وأشار لكامل فياض نحو الفيللا القابعة عند آخره المحاطة بهالة من ضباب الفجر والتي أضفت إليها غموضا فوق ذلك الذي أوحى به تكاثف الأشجار العتيقة المحيطة بها. أمر اللواء بالموكب أن يتوقف، وبإشارة من يده ارتجل الجند بخفة واصطفوا على جانبي الطريق، وفي خلال دقائق كان الركب يتقدم بخطوات بطيئة، حذرة، نحو السور

الحديدي المتغلغل بأفرع وأوراق النباتات المتسلقة. تبدى قفل صدئ يحيط بسلسلة حديدية تعانق ضلفتي الباب الخارجى، فأشار اللواء لأحد العساكر الذي تقدم وبسلاح حاد كسر القفل، وبمنتهى الهدوء سحب السلسال وفتح الباب الذي شرع يزمجر كما فعل يوم أن جاء داود ليتقابل مع الشيخ فودة، فدعا – بينه وبين نفسه – ألا يكون الشاب "ديدو" بعينيه الواسعتين وروحه المرحة موجودا بالمنزل الآن.

شق الجند طريقهم بسرعة وخفة فوق الممر المؤدي للباب الرئيسي، ممهدين الطريق لسيادة اللواء وداود والضابط الآخر الذين كانا يتبعانهم، فارتقوا درجات السلم، ووبكفوفهم القوية وكعوب البنادق دوى طرق الباب المتتابع كقرع طبول الحرب، ولكن لما لم يفتح أحدٌ، كسره الجند بأكتافهم، واقتحم الجميع البيت وبسرعة تفرقوا بجنباته وملأ سكون المكان وقع أحذيتهم العسكرية التي طافت بهم في جلبة بكل أرجائه، ليكتشفوا خلال دقائق قليلة أنه كان خاليا من أي مخلوق.

* * *

الفصل السابع عشر

انتزع دفء الربيع وأريحيته زمام الصدارة من جديد، من قبضة برد الشتاء الفولاذية وسطوتها القاسية التي لا ترحم. وملأت ومضات الحب الكهربية نسمات الهواء، فارتجف بشحنة حب كل مخلوق مسسته، واشتعلت براعم الأزهار بألوانها الأخاذة، وطاردت الطيور بعضها البعض ترفرف عشقا نحو أغصانها المخفية عن الأعين، وخرج أهل الإسكندرية مرة أخرى من بياتهم الشتوي يملأون الشوارع والطرقات، في غير مواعيد العمل، وإلى غير طرق المدارس والأسواق، يتشممون نسمات الهواء النقية المحملة برائحة البحر المتجددة، بعد طول أيام العواصف والأمطار الغاضبة المتلاحقة، وتمسهم تلك الومضات المخفية، فيهيموا بحثا كل عن وليفه.

وفي وسط ذلك الجو البهيج تدحرجت فوق اسفلت الشوارع المغسولة عجلات العربة الكارو يجرها حمار منكس الرأس، متجهة بإصرار قدري إلى حى محرم بك، محملة بثقل منقولات عائلة داود عبد الملك بعد أن تركوا قصر بنيوتي باشا عنوة، عائدين إلى حيث كانوا قد بدأوا الرحلة، إلى الشقة التي كان قد ورثها عن أبيه المرحوم عيسى أفندي عبد الملك. الأصل!. حيث عاشر داود "بدور" ثم "صوفي" ثم "إيلين" وحتى

"قمر"، رحم الله الراحلات منهن وشدد من أزر الباقيات. وعلى ذكر الباقيات طاف ذهنه بصوفي، زوجته التركية الهاربة مع ابنته "مارجو"، متسائلا عما يكون قد صار عليه حالهما اليوم في جنبات هذه الدنيا المجنونة.

وفي صمت هامس بأزيز المحرك قادت الموكب الحزين السيارة البلاكار السوداء يقودها الأسطى وليام وجلس داود واجما بجانبه يتأمل في هذه الأشياء، بينما انحشرت إيلين والأبناء الثلاثة بالمقعد الخلفي وقد بدأت السعادة تزحف نحو وجهها لأول مرة منذ سنوات، أما ليلى وسليمان ومنى فقد انشغلوا بالعراك حول من يجلس بجوار شبابيك السيارة، فلم تكن تشغل فكرة الانتقال الى محرم بك ذهن أي منهم. تفكر "داود" في شأن تلك الدنيا العجيبة التي تأخذك على غرة في طيات جناحاتها فترفعك حينا نحو السماء، ثم تعود وتخفس بقدرك إلى أسفل السافلين وأنت منساق من قفاك لا حول لك ولا قوة ولا شأن لك في أن تعدل مسارها ولو لشبر واحد، بل وعليك أن تتقبل كل هذا بسعة صدر وإلا عاب الناس عليك كونك متمردا أو وصفوك بالعاق الذي لا يتحمل مقادير الأيام. وتساءل متى يعود ويجد ذلك الخاتم الملعون من جديد.

دخل الموكب الواجم إلى الشارع الضيق واستقبله الجيران وأهل الحى بحذر ممزوج بشبه تشف أولا لفشل مشروع الانتقال من وسَط الكادحين المغمورين إلى عالم الأثرياء الموسورين. ولكنهم، وبمجرد أن انفتحت أبواب السيارة السوداء وأطلت وجوههم المتلفتة منها، تسارعوا نحوهم بالأحضان والقبلات بفعل ذلك "الربيع" وما يصنع بالقلوب المرهفة، مرحبين بعودتهم من جديد وسط اهلهم وناسهم، فانسابت دموع الفرح من عيني إيلين، بينما بقى داود ساهما يهز رأسه بحركة تلقائية عفوية كالملاكم المهزوم فور انتهاء المعركة وقد تورمت عيناه وتعامت من فرط اللكمات، ثم تلقفته السلامات والأحضان من أناس غرباء ممسوحة معالم وجوههم من ذاكرته خلف ستار الدمع الذي اغرورقت عيناه به. في حين انطلق الأطفال إلى جنبات الشارع وأهله يتفحصونهم بعيونهم البريئة وقد انمحت كل ذكرياتهم عن البيت والشارع والحى كله، بفعل تلك السنوات القليلة التي قضوها بعيدًا في قصر بنيوتي باشا.

إحتضن داود العود واختلى به في غرفته وأغلق الباب خلفه. جلس إلى حافة السرير ثم بدأت أنامله تداعب الأوتار وانطلق يغني بصوت خفيض موشحا حزينا من مؤلفات داود

حسني. ثم نادى بالأسطى وليام إلى الغرفة وقال له باقتضاب أنه عزم أن يهديه السيارة البلاكار ليحولها إلى سيارة أجرة يسترزق هو ونرجس زوجته من دخلها، ثم طلب منه بعدها بنبرة قاطعة أن يخرج إذ ابتغى أن يختلي بنفسه لينام قليلا. ولكنه لم ينم. بقى في سريره مسطحا بكامل ملابسه وقد تعلقت عيناه بسقف الحجرة بينما غاب ذهنه يسترجع محطات رحلته، ولم تفلح تلك الومضات الكهربية أن تمس قلبه المنكسر.

واعتكف داود من يومها بالغرفة، لا يتركها إلا ليذهب للحمام ثم يعود للغرفة يقرأ ويعزف العود، وحتى الطعام والسجائر كانوا يأتون بهما إليه في عزلته. ثم استفاق يومًا على صوت نابع من داخله، من أعماق أعماق قلبه، يلح عليه أن يأتي بورقة وقلم، صوت مُ-ل-ح قهري لم يجد بدا من أن يستجب له، ثم بدأ لاحقا يملي عليه كلمات وكلمات، وهو يكتب ويكتب صفحات، ثم يقرأها فإذا بها قصائد من الشعر الصوفي الزاهد يتعجب منها!. طلب من إيلين أن تبتاع إياه دفترا أزرق اللون، بلون بحر الإسكندرية، جمع بورقاته كل قصائده، وصارت الكلمات تجيئه بعدها في طفرات متتابعة تجتاحه في كل ساعات الليل والنهار، تدفعه إلى أن يستجيب إليها مرغما لنداءاتها، فيجلس إلى نفسه يكتبها. ثم انتابته

يومًا رغبة ملحة إلى أن يغني أشعاره، فلحنها خلال الشهور التالية وغناها في عزلته، ولكنه أبدًا لم يُغنيها على مسمع من مخلوق وأشعاره لم يُطلع أحدا عليها.

أما إيلين فكأنها قد مستها عصا مسحورة مثل تلك التي تلهب الأغصان اليابسة عند أواخر أيام الشتاء، فإذ بالربيع يمخضها بدفئه فتتبرعم الأغصان حبلى بزهرها وثمارها اليافعة، بالحياة!. انتزعت منها عودتها إلى محرم بك كآبتها وانطوائها، فعادت تبتسم كثيرًا في البداية، ثم بدأت تضحك لدعابات الأبناء، ثم – ولأول مرة منذ سنوات طوال – صارت تغني، نعم! فحين رجعت إيلين لمحرم بك ووجدت الكل من حولها يغني. نعم غنت معهم فرحة بالثورة التي لونت الحي والجيران بصبغة مبهجة لم تدركها حين كانت قد اعتكفت بداخل سجنها الفخيم!. عاد إليها صوتها الطروب المليح فاسترجعت من فيض الذاكرة أغاني الست ثومة والأستاذ عبد الوهاب المدفونة في دهاليزها المخفية، وزادتها بأغان جدت عليها لهؤلاء ولمطربين جدد ظهروا على الساحة يتغنون بأناشيد جديدة ملأت الدنيا، مادحة في الثورة الشعبية، وبمعان أخرى غامضة الدلالة بالنسبة إليها، وتعبيرات ثقيلة تتغنى بها مع بقية الناس كالاشتراكية، والمسئولية، والعضوية باللجنة

الأساسية، كلمات مبهمة لاتفهم لها فحوى! ولكن أسَرَتها ألاحانها، وبالذات المدائح في زعيمها البطل "ناصر" الشهير بأبو خالد واخوانه نوارة البلد!.

فرحت إيلين به، لأنها أحبت والده "عبد الناصر أفندي" صديق "داود" زوجها من جهة، ولحسن علاقاته برئيس الكنيسة البابا "الأنبا كيرلس السادس". أحبته وتطلعت إلى أيام حلوة ما تزال تنتظرهم بمحرم بك. وفي توكيد صامت ذهبت إلى فرع البنك الأهلي ووضعت كل المبلغ الذي دفعته لجنة المصادرة لهم في مقابل البيت والمصنع، سبعة آلاف جنيه، كفيلة بأن يتعيشوا من ريعها مستورين وأن يستمر الأبناء في مدارسهم الخاصة وحتى ينتهوا من تعليمهم الثانوي، وما عليها إلا أن تقتصد قليلا في مصاريف البيت واحتياجاته، وهي قادرة على تدبير ذلك.

* * *

يدور الزمن دوراته المتعاقبة بالدكتور رشاد فكري وبدونه، يدور. وتمضي الأيام والليالي متشابهة وكأنها لا تمضي، وكأن دوران الزمن قد توقف به في سجنه بقنا. ويتساءل محمد البوري عما ألم بالزمن ومتى يجيء الفرج، فلا يجد إجابة. تسلل الملل بأعطافه من جديد فنضبت المشاعر.

توقف عن الرسم وعن الكلام وعن الحياة، ولم يعد يتحسب مرور الأيام فلم يعرها انتباهه كما كان يفعل قبلا. ظن أن المدة قد قاربت على الإنتهاء، ولكن بعد أن شمر عن ساعديه ترقبا ليوم خروجه أدرك أن تتابع الأيام إنما يزيد المسافة التي تفصله عن اللحظة المرتقبة، فيئس من جدوى التطلع نحوها. وبدأت قدماه تغوصان في الأرض من تحته، وكأنه واقف فوق تبة من الرمال المتحركة، بل وكانت كل محاولاته للفرار من كآبة الواقع والنجاة منها إنما تزيد من انغماسه أكثر فأكثر في أحضان الرمال، ورويدًا غاب جسده وروحه كليا واختفيا تحتها. حتى الصلاة فقدت تأثيرها الأول في أن تجعله أكثر اطمئنانا نحو يومه أوغده، بل وزادت محاولاته في التبحر في أمور الدين من سطوة تفكيره فيما بعد الموت، مما عظم من شعوره اليائس تجاه الحياة. فكر يومًا في الإنتحار، ولكنه سرعان ما تراجع مستغفرا بسبب الخوف من العذاب الأبدي الذي كان بانتظاره لو فعلها. وتبدى له الأمل سرابا يختفي عنه كلما شرع هو في أن يحاول أن يقترب.

ولم تكن كلها تهيؤات أو أوهام من ناحيته، فقد امتدت مدة سجنه فعلا لأطول مما كان قد صدر الحكم به، بأمر من

وزارة الداخلية بشأن السجناء من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين.

وبدأت زوجته زينب، وأبناؤه محمد ومصطفى ومي يزورونه في أحلامه إذا نام، وخلال يقظته حين يمضي يومه جالسًا فوق السرير الحديدي وقد سند ظهره للحائط البارد يتجنب برطوبته لسعة الشمس الحارقة بالحوش، حيث يقضي بقية السجناء والسجانة أيامهم، يتسامرون أو يتسلون بلعب كرة القدم. تماهى إليه في إحدى تأملاته مذاق الحرية الذي كان قد افتقده بشدة، وتساءل فعلا ذات يوم إن كان كفاحه المثابر هذا، وبطول كل هذه السنوات، من أجل تمكين رواد حركة الاخوان المسلمين من الوصول إلى كرسي الحكم، يستحق فعلا أن يضحي من أجله كل تلك التضحية.

انتبه فجأة ذات صباح إلى تسلل شعيرات بيضاء إلى فروة رأسه فانتابته موجة من الفزع. العمر تتسرسب أيامه من بين أصابعه، والحياة تمضي من حوله وهو لا يدري عن مرورها شيئًا. إنسابت الدموع الساخنة - أخيرًا - على خديه وهو يتأمل في أن "مي" لن تتعرف عليه يوم يعود إلى بيته بالحض-رة، هذا إن عاد!

وانتشبت أظافر اليأس الحادة في لحمه وانغرست، فلم يستطع أن ينزعها عنه رغم كل المحاولات.

* * *

صارت "ليلى" آنسة جميلة، بل رائعة الجمال في الواقع، مما جعلها محط أنظار الشباب والرجال الزائغي العيون والقلوب، فذكرت الكهول من أهل محرم بك بالمرحومة "قمر" أجمل الجميلات، وخشوا أن تلقى ليلى الجميلة نفس المصير. كانوا يشملونها بعطف وحنان بل واحتواء وعيون رقيبة يحمونها بها عند دخولها وخروجها من البيت، لئلا يعترض طريقها ذئب من الذئاب، فلعله يفتك بها. ولكن تقف النوايا الحسنة دومًا عاجزة أمام بطش يد الأقدار، فقد وقع المحظور بالرغم من كل محاولاتهم. لقد تبعها في طريقها للمدرسة يوما، المهندس "ماجد البارودي"، الشاب الوسيم المعروف في الحي كله بمغامراته النسائية وعصيان الفشل أمامه في الاستحواذ على قلب كل امرأة قرر يومًا ما أن يغازل مشاعرها ويسقطها بمهارة في مصيدته. وكانت "ليلى" صيد سهل ومغري بالنسبة له، فهي طالبة بالثانوي، فيما كان هو في سنة البكالوريوس بكلية الهندسة بجامعة الاسكندرية، صحيح أن كانت تلك ثاني محاولة له بعد رسوبه السنة الماضية، ولكن لم يحرك ذلك من

حجم ثقته بقدراته، بل اعتبر أنه قد ازداد خبرة بشئون الحياة، والناس، وخصوصًا النساء منهم! أما الدافع الأهم لديه – بعد جمالها الفتان – فلكونها يهودية! نعم، ففي عرفه، ولمعرفته الوثيقة بعالم النساء، كانت اليهوديات صيدا ثمينا لا يستهان به، فهن جميلات مرحات ومتحررات، ودوما متشبهات بالأوربيات، وإن كان العثور على واحدة منهن في تلك الأيام قد صار عسيرا بعد أن رحل عن الإسكندرية معظم اليهود وخصوصًا بعد العدوان الثلاثي على مصر. لذا فما أن علم بعودة عائلة الخواجة داود إلى محرم بك، ومعهم الإبنة الشابة اليافعة، حتى شرع يتدارس خطواتها ويرسم بأناة ومهارة خطته للإيقاع بفريسته.

واستجابت ليلى بأسرع مما كان يتوقع، فقد انبهرت بوسامته، كما خارت كل السياجات التي كانت قد أقامتها من حولها لمّا لمحته يتتبعها في ذلك الصباح بوسامته ونضجه المتوج بشارب ذهبي منسق يخط منتصف وجهه، فما أن تمتم محييا ب– "صباح الخير يا آنسة ليلى" حتى ابتسمت إليه متصنعة الخجل، وإن بوغت هو بروعة جمال عينيها العسليتين حين التفتت إليه، فسرت في جسده رجفة حتى أن خارت ركبتيه من تحته فكاد أن يسقط، لولا أنه تدارك الأمر فورًا

وبصعوبة اتخذ بضعة خطوات قصيرة أتاحت له أن يتمالك نفسه، معاتبا ذاته بشدة إزاء تلك الكبوة المشينة في تاريخ صولاته ومغامراته النسائية الحافل. ولكنه بشر! وكان جمالها وتجاوبها المفاجئ بمثابة الصدمة لديه، فلقد اعتاد المراوغة والبرود العنيد المفتعل كرد الفعل الأول لدى نساء وفتيات لا عدد لهن حتى وإن كن عند نصف جمالها فما بالك ما كان يتوقع من صد من فتاة على ذلك القدر من الفتنة. وتنامت علاقة قوية بدأت باعجاب شديد متبادل، وبسرعة تحول الاعجاب إلى حب جارف بوغت بقدومه صاحب الغزوات، وفاجأ مجيئه عديمة الحنكة، فأسهد لياليهما معا، وأسعد أيامهما بلقاءات مسروقة من ساعات النهار، بجوار المدرسة أو على الكورنيش أو عند ميدان المحطة، لدقائق معدودة، خوفا من أن تلمحهما عيون أحد من الجيران أو سليمان أو أي من أصدقائه.

ومع ذلك، فقد حملت النسمات الرقيقة، وأجنحة الطيور المحلقة القادمة من ناحية البحر، خبر العلاقة البريئة بين طياتها فتلقفته إيلين هلعة، ولم تتوان في أن تعلم تفاصيلها لداود المعتزل في حجرته فور وصولها إليها، لأن مسائل الشرف تلك لا يصح التكتم عليها، ولا الصبر على مواجهتها،

بالرغم من مظاهر البرائة التي كانت تحيط بها، ولكنهم يعيشون بحي محرم بك وليسوا في "جليم" أو "سان استفانو"، بالإضافة لحساسية موقفها كزوجة أب للصبية ليلى، مما جعل تصرفها في الأمر بمفردها غير مستحب، بل ومنتقد وخاصة إذا لم يحلو في عيون ليلى أو داود فيما بعد. وبالرغم من اندهاش داود عند سماعه بالخبر وكأنه قد بوغت بنضج الصبية المفاجئ حتى صارت امرأة صغيرة بين ليلة وضحاها كما تبدى له، إلا إنه لم يدر لوهلة كيف يتصرف في ذلك الأمر، فآثر أن يترك لحكمة زوجته الأمر برمته لتفصل فيه كما يحلو لها!

ومع ذلك سويت المشكلة بأسرع مما توقع أي منهما على أي حال، فلقد ظهر فجأة "نبيل يوسف قطاني"، حفيد المليونير المعروف وابن عمة المرحوم والده، في عقر دارهم، ليعلم داود بأنه وعائلته كانوا راحلين إلى أوروبا في غضون أيام، وان والده قد أرسله خصيصا ليسأله لو شاءوا أن يصطحبوا معهم الآنسة ليلى، اليهودية الأخيرة الباقية من أبناء داود، قبل أن يتحول هو للمسيحية عند زواجه من إيلين. وبالرغم من معارضة ليلى بل وانهيارها عند سماعها بالخبر، إلا إنه رُؤي أن رحيلها عن مصر ربما كان الأفضل

بالنسبة لها، فأرغمت على السفر لأوروبا، وخاصة بعد ازدياد اللهجة العدائية بين مصر وإسرائيل في تلك الأيام، وخوف داود وإيلين عليها إزاء ازدياد تنافر المصريين بشكل عام من اليهود، تحت وطأة الهجمة الاعلامية الهائلة التي تبنتها الدولة حينذاك، وكانت بالطبع فرصة للحيلولة دون نمو تلك العاطفة الوليدة دون مجابهتها مباشرة. وكان سفر ليلى وابتعادها عن الإسكندرية صدمة كبيرة بالنسبة لماجد البارودي أدت به لأن يرسب – من جديد – في امتحان البكالوريوس، إلا أنه تخطى المحنة وحصل على البكالوريوس في العام التالي قبل أن يفصل من الكلية. وتغير بسبب تلك العلاقة العاطفية بليلى – وبالرغم من قصرها – مسار حياته فأنهى من بعدها مطارداته النسائية وفاء لها، متفرغا لحب أفلاطوني ما يزال يكنه لمعشوقته "ليلى داود عبد الملك" التي وثق بأن الأيام سوف تجمع فيما بينهما من جديد مهما كانا قد تباعدا.

* * *

أمّا سليمان فقد تبدلت حياته تمامًا منذ عودته لمحرم بك. وقد يسهل الحكم على تأثير تلك العودة على أبيه وأمه، أو حتى على أخته ليلى، لأنهم كانوا قد امضوا فترة طويلة – نسبيًّا على الأقل – بمحرم بك، من قبل أن ينتقلوا لقصر

بنيوتي باشا، وبالتالي فإن تأثير الرجوع للسكنى بالحى الشعبي عليهم، كان متوقعا لأنهم اختبروا شعورهم بالتغيير مرتين متتاليتين، فكانت المرة الثانية بمثابة إعادة الأمور لنصابها بالنسبة إليهم. أما بالنسبة لسليمان، فكان التغيير الوحيد الذي وعاه – ومعه في نفس التجربة أخته الصغيرة منى – هو نتيجة تلك النقلة الأخيرة، من المعيشة الرغدة بالقصر محاطا بنرجس وعم عبده الطباخ والاسطى وليام سائق السيارة السوداء الفارهة التي كان يستقلها كل يوم – بصحبته – إلى المدرسة، ثم ينتظر إطلالها بسوادها اللامع الفخيم عند الظهيرة لتصحبه من جديد إلى البيت. وكان ذلك هو أول تغيير حقيقي ألم به، فقد صار عليه منذ رجوعهم إلى محرم بك، أن يسير للمدرسة كل صباح وإلى البيت عند الظهيرة، منفردا في طرق وأحياء جديدة عليه بالمرة. أما عن الدراسة فقد مرت سنواتها مسرعة به، واستمر يخطو بثقة فوق درجاتها المتوالية بثقة الطالب المتفوق الذي تكلل إنجازاته بشهادة تفوق عند نهاية كل عام.

ولكنه، وبعكس المتوقع، شعر بنوع جديد من السعادة لم يألفه من قبل، تلك السعادة المصاحبة للحرية. نعم، الحرية تضفي السعادة حتى على قلب صبي يخطو بفضول عبر أول

السنة السادسة عشر من عمره، وحتى لو لم يشعر قبلها بان هناك ما ينقصه أو ما يقيده، إلا أن الوقت الذي أصبح يقضيه منفردا بين البيت والمدرسة كل يوم، بدون رقابة وصي يشير إليه بما ينبغي له أن يفعل، كما حدث له طوال حياته، أضفى على حياته مذاقا مبهرا، حتى لو كان ذلك لمجرد مقدرته في أن يغير من مساره فيسير لمدة أطول في شارع السوق أو سكة الحلواني أو شارع فؤاد مثلا بدون الحاجة لأن يستشير أحدا، أو أن يقف عند عودته أمام نافذة أحد المحلات ليتأمل قميصا برتقاليا أو صورة خضراء للاعبي نادي "الإتحاد السكندري"، أو يعرج إلى داخل محل فطاطري ليبتاع قطعة (هريسه) بالقشدة في طريقه للبيت يوم الخميس مثلا، وكل ذلك يمكنه أن يفعله - أو لا يفعله لو أراد - بدون الحاجة إلى أن يرجع في قراره لأحد؛ الحرية! ما أجملها! وصاحب شعوره بالحرية - بالطبع - انطلاقات غير محدودة لخياله تخيل خلالها نفسه يومًا لاعب كرة شهير، ويوما نجم سينمائي، أو طبيب ناجح، حسبما تهديه أفكاره في هذا اليوم أو ذاك. حرية!

واعتادت عيناه كل تفاصيل الطرق المختلفة التي بات يسلكها خلال مسيرته اليومية، من حفراتها لبالوعاتها المتناثرة

بجوار الأرصفة هنا وهناك، والمباني الحجرية الشاهقة وخصوصًا بشارع فؤاد، والجيران وأصحاب الحوانيت وبوابي العمارات، وحتى الكلاب والقطط التي كانت تنبري مسرعة من أمامه عند مدخل بيت، أو منور، أو عند عطفة يمر بها، إنتابه شعور يقيني بأنه يعرفهم كلهم وأنهم صاروا يعرفونه، وأن بوسعه حتى أن يتخاطب معهم فيمنعهم من أن يأذوه بحكم سيطرته على عقولهم الصغيرة. وفوق ذلك فقد اكتسبت رجلاه قوة وتكورت عضلاته فصار شابا يافعا، وارثا ملاحة أمه ونحولة أبيه، وإن فاقه طولا وعرضا وما يزال بعد في السادسة عشرة.

وبالإضافة لمسيرته اليومية، إضطلع سليمان بمشاوير التسوق يوميًّا لصفته المذكرة في العائلة، فاكتسب خلالها "حكمة الشوارع" متعلما الكثير من المهارات في معاملة الباعة وانتقاء الخضروات والفاكهة بل ومفاصلة الأسعار، خبرات لم يكن ليحتك بها حتى ولو كان قد أمضى العمر كله متقوقعا في قصر بنيوتي باشا محاطا بجيش صغير من الخدم. وبالتدريج اكتسب ثقة بعض رفقائه في الحي فسمحوا له بأن يشاركهم في لهوهم بل وفي بعض مباريات كرة القدم التي كانت تجري

ما بين الجيران، ولكن لم ترتفع مستوى تلك العلاقات إلى مستوى الصداقة مع أي منهم وبقى "يوسف" صديقه الوحيد.

* * *

الفصل الثامن عشر

سبع سنوات كاملة أمضاها داود في عزلته، لايعرف مما يجري من أحداث في العالم من حوله سوى ما يصل أذنيه عبر الراديو. وكان لا يكترث بما كان يحدث في معظم الأحيان، ولكن مع إرهاصات صيف العام السابع، جاءته رس–ائل مجنونة واشارات جهنمية، وكأنها واردة من عالم خرافي لا يمس للواقع بصلة. وبالرغم من كونها أصوات بشرية حقيقية تصل إلى أذنيه، فقد كانت تحمل في طياتها معان لامعقولة، وتمنى لو إنها لم تكن أعراض مرض عقلي أو نفسي – على الأقل بالنسبة له – ولكنه أدرك مع مرور الوقت أنها كانت بالفعل رسائل مجنونة تسرسبت فجأة عبر كل أجهزة الراديو في نفس التوقيت بكل أنحاء المدينة. تتابعت في شكل هيستيري هو مزيج من الأغاني الحماسية والموسيقى الحماسية ونشرات اخبارية موجزة في صورة بيانات عسكرية تتوافد في تعاقب مدهش، تتحدث بنبرة جادة وبصوت رخيم عن انتصارات مهولة كانت القوات المسلحة المصرية تحققها، بسرعة خيالية، وبحسم منفرد، إزاء العدو الاسرائيلي، ولكن تعاقبها الخيالي هذا لم تنطل مبالغاته على أحد، وخاصة بعد الساعات الأولى

من انطلاقها. وكأن أيد خفية قد طافت بشتى أنحاء البلد، فلقد تحركت في كل مكان مؤشرات الراديو بعيدًا عن موجة "صوت العرب" ومحطات الإذاعة المصرية، ملتمسين حقيقة ما كان يحدث عبر "صوت لندن" و"راديو إسرائيل". وكالنار المشتعلة في أحد الحقول انتشر الحريق وبسرعة جبارة، حتى احترقت البلدة كلها خلال دقائق معدودة، وتبخرت نفوس المصريين جميعا، وتحولت قلوبهم في غمضة عين إلى حفنات من الرماد الأسود. فلقد انتشرت فجأة الأخبار في كل مكان، الخرافية والحقيقية، المجنونة والعاقلة، معًا في كل حارة وكل شارع وكل بيت، وزرفت الدموع ولطمت الخدود في كل بلكونة وانطلقت الصرخات من كل شباك، وهرعت حشود الناس إلى الشوارع يهيمون باكين بلا وجهة محددة.

وفجأة في غمار الصمت الذي اختار أن يحتذيه، صرخ داود في صومعته:

"ليه كده بس ياجمال؟"

لماذا ترك الزعيم الأمور تتطور إلى هذا الحد؟ لماذا؟. ثم بعصبية وضع قميصا وسروالا وألقى بچاكيت حول جزعه، ثم أحكم الطربوش فوق رأسه بتلقائية، وخرج من البيت – لأول مرة منذ سبعة سنوات – متجها مباشرة نحو البحر.

عند قبو المنزل ناداه الأسطى حافظ الكواء:

- "الخواجة داود! مش معقول! إنت لسه عايش! كنت فين ياخويا طول السنين غايب؟" وعند التقاء الطريق بشارع السوق علق أحد الشبان الواقفين على الناصية:

- "الخواجة داود رجع ياجدعان!" وعقب كهل من الجالسين بالمقهى يحرق غضبه بنيران النارجيلة:

- "طبعا لازم يرجع، أمال ايه؟. العجل لما يقع تكتر سكاكينه!" وتلت تلك الكلمات همهمات من رجال من حوله، تعبيرات حادة غاضبة مبتورة لم يتبين داود لها معنى.

شعر داود بنظرات الناس، الذين اكتظ بهم الطريق من حوله، كالنيران الحارقة تلهب قفاه وتثقب جسده من كل صوب، وكأنه مسئول عما جرى. أما هو فقد استمر في مسيرته لا يبالي بها، فهو قد عقد العزم أن يصل إلى البحر رغم كل شيء. كم تغيرتِ يا شوارع الإسكندرية! وكأنه غاب عنها دهرا وليس بضع سنوات. ما كل هذا الازدحام؟ من أين جاء كل هؤلاء البشر؟ وتذكر هو حلما كان قد رآه في الليلة الماضية وكان قد نسي تفاصيله أولا وإن عادت كلها إليه الآن. كان ما يزال طفلا صغيرًا يسير في نفس الطريق ممسكا

بيد أمه وقد أخذته ليتمشى معها، وابتاعته بعض الآيس كريم، وكان يرفع رأسه ناحيتها بعد كل لعقة متأملا جمال وجهها الأخاذ وأناقتها، في حين تنظر إليه بابتسامة مطمئنة وهما يرفلان في جنبات الشوارع الخالية تمامًا من كل مخلوق. وفجأة اختفت عنه أمه بينما بقي هو وحيدا، يبكي في وسط الطريق المهجور، وذاب باقي الآيس كريم في يده. واستيقظ وهو يمسح دمعا حقيقيا انساب فوق خديه، وشعورا حقيقيا يلازمه بوسخ عالق بيده التي مسحها بتلقائية فوق صدر جلبابه وهو ما يزال ما بين النوم والصحو.

أتاه صوت غريب مختلط بأصوات الطريق:

– "يا خواجة داود". فتعمد تلافيه إذ كان يكره لقب "خواجة" هذا.

أدرك أن قدماه لم تعدا بنفس القوة التي كانتا عليها قبل أن يعتكف، وانتابه شعور مؤكد بأن هناك من يتبعه، مما جعله يشد من خطواته بقدر المستطاع، يشق طريقه بصعوبة في خضم الأجساد المتلاحمة. ولكن لم تستجب للإرادة وحدها مقدرة ساقيه على السير مسرعا، وبالرغم من هذا فقد أبى عليه عناده أن يستسلم. بجهد قطع ميدان المحطة، المكتظ عن آخره بأناس خرجت إلى الطريق تستطلع بتوجس ما حدث

بالبلد، يتدافعون في كل اتجاه وبات من الواضح أنهم لا يقصدون وجهة معينة. والخطوات وراءه ما زالت تتبعه، ولكنه لم يحاول أن يتلفت خلفه وكأنه يدخر كل جهده حتى يصل إلى هدفه المنشود. بقدر ما كان اشتياقه لرؤية البحر يدفعه للتقدم، بقدر ما كان الوهن الذي ألم به بعد طيلة عزلته كالأثقال المكبلة لخطواته، تعوقها عن بلوغ شاطئ البحر الذي اشتاقت قدماه لعناق رماله الساخنة ومداعبة أمواجه المتتابعة. جاءه النداء مجددا:

- "يا خواجة داود" ومرة أخرى تجنبه.

وتعالت دقات قلبه حتى بلغ صوتها إذنيه وتسارعت أنفاسه كلما هم بأن يسرع - ولو قليلا تحسبا لوقع الخطوات الآتية من الخلف تتتبعان أثره بلا هوادة وتلك النداءات تلاحقه. بالإضافة لذلك الحزن الذي كان ما يزال يعتصره منذ الظهيرة من بعد ما سمع ما سمع. وابتدأت الدموع تتكور عند أركان عيونه ثم تنساب فوق خديه متدحرجة، يلحقها هو بظهر كمِّه فيمسحها، بينما هو سائر في طريقه لا يقف ولا يلتفت، حتى لا ينبه متعقبه إلى أنه قد أيقن من دبات خطواته المتلاحقة إنه كان يتبعه. تذكر يوم لقائه الوحيد بالشيخ فودة، وخطوات الشاب الصارم التي كانت تلاحقه يومها أيضًا،

وتساءل مرتعدا من أن تكون تلك هي نفس خطوات الشاب التي تتبعه الآن مضمرا إيذائه في شخصه اليوم بالذات، كيهودي، انتقاما مما فعله الإسرائيليون اليوم. أو ربما ثأرا للشيخ حسنين الذي اتهمه في موته الشيخ فودة عند لقائه به، أو حتى لإنتحار قمر كما لوح به الشيخ يومها أيضا. وناداه الصوت الغريب بنبرة جادة، منذرة:

- "يا خواجة داود!".

أسرع من وقع خطواته لبضعة دقائق، ملتمسا طاقة دفينة مستمدة من ذلك الإحساس الجامح بالخوف الذي كان قد اعتراه، ما يزال يدعوه "خواجة"، أجنبي عنهم، ولو كان لقبا يطلق مجازا من قبل، فكيف يكون الحال الآن؟ ماذا سيفعلون به اليوم بعد أن حدث ما حدث؟ ليس أقل من أن يفترسوه افتراسا، ليس أقل من أن يلتهموه حيا وأن يلوكوا لحمه العجوز بأسنانهم. وهَم بأن يخطو متسارعا لكن حرارة الجو ورطوبته وازدحام الطريق بالبشر بدت وكأنها ساتر قائم يحاول هو أن يخترقه ليمر من خلاله دون طائل، فتباينت المهمة مستحيلة، ولكنه رفع عينيه أمامه، فلمح من بعيد شريط الأفق المشتعل بوهج الشمس يلوح من فوق سور الكورنيش الحجري، وكان يرفع جسده على أطراف قدميه عند نهاية كل خطوة ليعلو

بنظراته فوق الرءوس لعله يلمح مبتدأ مياه البحر الممتدة تحت خط الأفق دون جدوى. كان عليه أن يواصل الإقتراب من طريق الكورنيش حتى يقدر أن يبصر زرقة البحر، وإن كان التعب قد أدرك–ه فعلا.

– "يا خواجة داود". ولكنه لم يرد. ولم يلتفت.

وتسارعت أنفاسه أكثر، وتصاعدت ضربات قلبه أكثر فأكثر، ولكنه ناء بكل حمل واستمر في مسيرته مدركا ألا مناص إلا الوصول إلى شاطئ البحر. ووثبت إلى ذهنة تلك اللحظة التي كان يتتبع فيها – بصعوبة أيضًا – خطوات الشيخ حسنين النافرة، يوم قاده لنفس المكان تقريبًا ليصرعه بذبح علاقتهما الممتدة، بل وليحثه على الرحيل عن بلده، بكل صفاقة! وبين أنفاسه المتلاحقة تمتم مع ذلك داعيا له بالرحمة!. تبلل وجهه وجسمه بالعرق، فرفع عنه الطربوش وأخرج من جيبه منديلا أخذ يجفف به رأسه وجبهته، ثم وضعه مجددًا وهو ما يزال يلهث، وإن لم يمنعه ذلك عن أن يمضي في المسير.

– "يا خواجة داود!". إستحال النداء إلى صراخ، ومع ذلك ذاب وسط باقي الأصوات.

بدأ الألم يعتصر ساقيه كعقدة مربوطة بإحكام، أو كاسطوانتي معصرة تطبقان بلحمه وتفتتان عظامه العتيقة، فتبدى له أن يقف ولو لدقيقة، إلا أن الخوف من صاحب تلك الخطوات التي ما تزال تلاحقه من ناحية، والاشتياق لبلوغ غايته بأسرع وقت ممكن حثاه على أن يستمر. ثم بدأ الألم يتصاعد من ساقيه إلى فخذيه، وحتى لحق بمعدته شعور بالغثيان مقترنا بألم يعتصره عصرا ليرغمه على التوقف فيلتقط بعضا من أنفاسه المتلاحقة، ولكن إحساسه باقتراب الخطوات من ورائه لم تطلق له أي مجال للاختيار، فتابع مسيره مرغما، وإن اضطر إلى أن يبطئ من إيقاع خطواته المستميتة ولو قليلا إذ صار مستحيلا على العجوز أن يكمل بنفس القوة التي كان قد بدأ بها. وتذكر في لحظة خاطفة وكأنها وميض من البرق لمع أمامه فجأة، خاتمه المسحور، ذاك الذي لو لم يكن اختفى عنه في تلك الظروف الغامضة، ما كان ليحدث له أي من هذه المصائب التي حلت به منذ اختفى وإلى الآن. بل وخطر له لحظتها أيضًا إنه لو لم يكن قد استرده من جمال يوم زاره بمنشية البكري لربما حال بقاؤه معه للآن، دون أن يحصل ما حصل بالبلد اليوم!

- "يا خواجة!. يا خواجة!".

لم يرد أن يستجيب للنداء أو يلتفت خوفا من إدراك هوية متتبعه. تفكر بأنه لو كان يريد القضاء عليه لكان قد فعل، ولكنه أبدًا لن يطعنه غدرا، لن يؤذه لو لم يلتفت إليه ويواجهه، بل هو حتما يريده أن يراه ويتعرف عليه أولا، أن يبصره وهو يدفع بسكينه إلى قلبه، ليشهد بعينيه شبح الموت وهو ينقض عليه وينزع عنه روحه تحت ناظريه.

وصل أخيرًا إلى الكورنيش! ولكن سيل من السيارات أرغمه على التوقف! أخيرًا اختلطت بأنفه رائحة الرمال الساخنة ومياه البحر المالحة المتبخرة الممزوجة بعوادم السيارات المارقة! وتحين هو الفرصة السانحة ليلتقت أنفاسه المتلاحقة غير عابئ، بل غير قادر أن يعبأ بصاحب الخطوات وشعر – فعلا بوجوده ورائه مباشرة وكأن أنفاسه تلامس مؤخرة رأسه، وإن انشغل عنه بذلك الألم المميت الذي بات كالجبل القابع فوق صدره يمنعه حتى من أن يملأ رئتيه من هواء البحر الذي اقترب منه أخيرًا حتى صار على بعد خطوات قليلة. نعم هي خطوات قليلة وإن بدت أبعد عنه من قرص الشمس المستعر في عنان السماء، بسبب ذلك الوهن المؤلم الذي اجتاح كيانه! توقفت سيل السيارات عند الإشارة، فانتهز الفرصة واستجمع

ما تبقى لديه من جهد قليل وهم بان يعبر الكورنيش فاستحال الألم إلى وحش مهول افترسه افتراسا.

ولكنه جر قدميه تحت وطئة الجسد المتهاوي بالرغم من كل شيء. وتخضبت ملابسه بأنهار من العرق وملأت مياهها الناضحة صدره وقلبه، ولكنه مضى فيما كان عليه، مصمما لأن يصل للشاطئ بأي ثمن. ولم يعبأ بالخطوات التي باتت الآن وكأنها متلاصقة بخطواته ومع ذلك فلم يعر صاحبها ولو التفاتة! وفوجئ داود بغمامة تنزل أمام عينيه بدون سبب، أفقدته رؤيته فصارت الأشياء أمامه تبدو وكأنها أشباح ترفل متراقصة لا يتبين معالمها، وازدادت آلامه تعتصر روحه منه، ولكن قدماه لا تزال تزحف به حتى عبر الطريق، وفقد إحساسه بالمطاردة فاستراح. وهبطت عليه فجأة صورة أبيه في شبابه النضر، يصطحبه لأول مرة إلى شاطئ البحر، وكما فعل يومها، لم تكد قدماه تنغرس في رمال الشاطئ حتى انكب راكعا، وبتعجل ولهفة صبي في الخامسة خلع عنه حذاءه وجواربه وثنى طرفي سرواله، وتحامل على نفسه وانتصب ومضى نحو الأمواج المتهادية يصاحبه وجه أبيه المتبسم. تلامست قدماه ببرودة المياه فشعر بقشعريرة تغمره، ولكن خفت قبضة الألم عن جسده قليلا. أتاه وجه إيلين الجميل

الهادئ محتضنا ابتسامة سليمان ومنى والطفل الراحل مكاري، وطافت صور ليلى وفؤاد وموسى وبدور أمهم، وصوفي ومارجو الرضيعة.

ولكنه ارتأى عند طرف الأمواج رغوا مزبدا، انبثقت من قلب ثورته الفائرة "قمر". بجسدها المثير الملتف بغلالة ملتصقة بكل ثناياه، نظرت إليه ضاحكة ضحكة خليعة، سمعها بأذنيه، ومدت ذراعها نحوه فشرع فعلا محاولا أن يقترب منها، أن يلمسها، ولكن لم تقو قدماه الهزيلة أن تتحمله أكثر من ذلك، فخر داود ساجيا فوق رمال الشاطئ باستكانة، تداعب جسده أمواج البحر المتعاقبة، وشرع يتغنى لنفسه بأشعاره مدمدما، في حين أحس داخله براحة تنتشر في انبساطة مترامية لم يعهد مثلها من قبل.

* * *

الفصل التاسع عشر

حينما وصلت إلى المستشفى (الفرنساوي) سيارة الإسعاف كان داود عبد الملك قد فارق الحياة. ثم جاء من يستدعي سليمان من البيت ليتعرف على أبيه، وكان قد أمضى اليوم كله بين جدرانه حيث كانت قد أغلقت المدارس أبوابها من بعد نشوب الحرب. أبصره سليمان ساكنا وقد تجمدت ملامحه آخذة تعبيرا مريحا بوجه عام. وبرغم الحيطة التي كان قد تعهد أن يلتزم بها قبل أن يصل، لم يتمالك نفسه فأجهش في البكاء، خج-لا من نفسه أولا إذ كان ينتحب وسط هؤلاء الأغراب، ولكن كل محاولاته بالكف عنه كانت إنما تزيد من توتره فيبكي أكثر فأكثر، حتى قرر – أخيرًا – أن يترك نفسه على سجيتها. انسحب الأغراب بدورهم إلى خارج الغرفة الخالية إلا من جسد أبيه المسجى فوق السرير الأبيض المعدني ذو العجلات الأربع. إندهش حين أدرك الآن وسط دموعه أن أبيه قد رحل عنه إلى الأبد، من قبل أن يتكلم معه عن أشياء كثيرة كان يود لو كان قد أتاح له الزمن فرصة ليسأله عنها أو يتحدث إليه ويشاركه إياها. وتمنى لحظتها لو تسنى له أن يقتنص من العمر ولو دقائق قليلة معه، ولكن هيهات أن يعود به الزمن ولو للحظة، فأمال رأسه فوق صدر

أبيه الجامد وغاب في دهاليز حزنه الغامضة المعالم بالنسبة إليه من جديد. لم يكن يعرف حتى هذه اللحظة أن كل هذا الحزن كان يكمن بداخله، بل والأدهى أنه لم يكن ليدرك أنه يكن لأبيه بالذات كل ذلك القدر من المشاعر، فعلاقتهما – باستثناء فترات متفرقة – لم تكن بمثل ذلك العمق الذي حسبه يكفل كل تلك الدموع التي أراقها. وقد كان دومًا يعزي ذلك لفارق السن الكبير الذي كان يفصلهما، ولكن تبدى له خطأ تفكيره اليوم بعد فوات الأوان للأسف! وتتابعت ومضات في ذاكرته وكأنها صورا فوتوغرافية تتتابع أمام عينيه لمواقف جمعتهما بطول السنين، وتهيأ له أنه كان مجرد متفرج وكأن لا شأن له بها، ولكنه تدارك متفكرا بأن مجرد الحزن الذي يعتريه الآن إنما هو دليل على عمق العلاقة التي امتدت بينهما، دون أن يدرك هو مقدار عمقها، لكنه مع مرور الوقت كان قد بات موقنا أن أبيه كان مدركا لذلك على الدوام، مما أكد له لحظتها أنه كان رجلا عظيما على أي حال. وسرت طمأنينة إلى قلبه عندها، أعادت إليه رباطة جأشه فتوقف عن البكاء.

ولولت إيلين وانكمشت من جديد في عزلتها الحزينة مسترجعة ذكرياتها مع الموت والفراق التي كانت قد لازمتها

مع رحيل طفلها "مكاري". ولكن مسئوليتها هذه المرة تجاه "سليمان" و"منى" انتزعتها سريعا مما كانت عليه. تحيرت هي أولا فيما لو كان ينبغي لها أن تبحث عن الحاخام اليهودي الوحيد الباقي في القاهرة بحسب ما سمعت، ولكنها نحت الخاطر بعيدا، وصلوا على جثمانه في حضن الكنيسة، ومع ذلك فقد أشارت للكاهن إلى رغبته الدائمة في أن يدفن بمقابر اليهود بجوار أبيه وأمه، فكان له ما أراد. وفي اليوم الثالث لموته دخلت إيلين غرفته واقشعرت لثقل سكونها. أبصرت آلة العود الحزينة الرابضة فوق الكومودينو وكأنها تشكو إليها وحدتها لأول مرة. تناولتها إيلين واحتضنتها برفق مارة بأناملها تمسح غلالة ترابية رقيقة كانت قد تجاسرت عليها بعد غياب داود، وتشممت أنفها رائحته المنبعثة من خشب الآلة العتيق فأنَّ–ت في صمت رغما عنها ولكنها عادت وتماسكت. ثم بدأت تعبث بالأدراج بين أوراقه فوجدت مجموعة من الأوراق المتناثرة، مختلفة الأشكال والأحجام خط فوق سطورها أفكاره ومذكراته، مؤرخة بأوقات كتابتها، تتخللها بعض كلمات الأغاني المشهورة، ثم عثرت على الدفتر الأزرق التي كانت قد ابتاعته إياه عند عودتهم لمحرم بك. جلست إيلين عند حافة السرير وفتحت الدفتر متأملة بفضول محتوياته، وتبينت أن

الأوراق باتت ممتلأة عن أخرها بالأشعار، وفي سكون المكان المطبق بدأت تقرأ قصائد داود كالمسحورة. ومن تلك الليلة التي قضتها بطولها ساهرة، وحتى يوم وفاتها لم تنقطع إيلين عن قراءتها خلال مختلف ساعات النهار والليل.

تذكرت إيلين بحسرة الخاتم الفضي الذي كانت قد خبأته عن داود طيلة تلك السنوات، وتماهت إليها رغبته التي كان قد أعلمها بها مرات ومرات في أن يورثه لابنه سليمان من بعده. نعم سليمان، وليس فؤاد أو موسى، حتى من قبل أن يرحلا عن مصر، وهم أبنائه أيضًا بل والأكبر والأولى بوراثته. ولكنه اختار سليمان ابنها هي. وتكفيرا عما ارتكبته بحق داود كل تلك السنوات، همت إيلين إلى الصوان القديم حيث تكدست ملابس المرحوم مكاري قبل أن تلحق بها ملحقات زوجها، ومدت يدها المرتعشة تعرف طريقها بين أكوام متكدسة وأطبقت أصابعها فوقه ثم نادت بصوت متردد:

- "سليمان!. يا سليمان!"

تساءلت إذا ما كانت تفعل الصواب، ولكن إنغماسها في الشعور بالذنب تجاه زوجها حذاها إلى أن تستمر فيما كانت تضمره. ناولته الخاتم الفضي، ثم قصت عليه حكاية الخاتم، كل الحكاية!. وأبدت له أسفها الشديد وندمها على ما اقترفته

تجاه أبيه، حتى بعد أن نصحها القس ميخائيل بأن تعيد الخاتم إليه. ولكنها خافت! نعم ضعفت وخافت، سيطر خوفها من أن يكتشف داود فعلتها، فيعنفها عليها، على حقه هو في أن يستعيد خاتمه، مدى الحياة!

وبينما كانت تقص على ابنها قصتها، إمتلأت إحساسا بالدناءة والأنانية، وتساءلت كيف تسنى لها أن تستغرق بمثل هذه القسوة تجاه زوجها بطول كل تلك السنوات؟ بل وكيف لم تفكر أن تعيده إليه ولو بدافع الشفقة نظرا لما آلت إليه حالته من الإستكانة والعزلة بل والاكتئاب وخاصة أنه قد آمن بأن كل تلك الملمات التي حدثت بهم كانت بسبب ضياع الخاتم عنه، وهو لا يدري بأن ذلك الخاتم عينه كان قابعا طوال الوقت بجواره، على بعد أمتار منه. لم تحاول وهي تقص عليه كل هذا أن تقلل من قيمة الهدية التي أهداها والده الراحل إليه، ولكن مجرد اجترار قصتها بصدق تفصيلاتها هكذا أمام ابنها، كان له تأثير مريح على نفسها غسلها من بعض الشعور بالذنب. أما الشاب الصغير فقد انبهر بالقصة كما يليق بابن السادسة عشر أن يشعر، وما أن انتهت أمه من سردها حتى وضع الخاتم ببنصره الأيمن، وانتابه لحظتها شعورا غريبا

بالقوة، لم يجد له تفسيرا سوى إنه كان من تأثير ذلك الخاتم المسحور!

بطول السنين شعر سليمان بقوة مفعول ذلك الخاتم تشمله. ولكن لم يأت مفعوله غامرا فياضا كما ارتآه أبوه من قبل، في صورة طفرات ساحقة في حياته غيرت من مسارها، ولكنها عند الإبن جاءته كالرذاذ المستمر، وليس كالسيل المنهمر وإن كان متقطعا كما كان اختبار أبيه مع الخاتم المسحور، وفي النهاية تساوى حظهما من مفعوله بحياتهما. فبينما شعر داود بأن قوة سحرية قد أدت به للقاءاته بجمال أو ببنيوتي باشا وهبوط الثروة فوق رأسه، أحس سليمان – على الجانب الآخر – بجدول جار منساب من الحكمة والحذق في التعامل مع الناس من حوله، كل الناس وخصوصًا مع الجنس اللطيف منهم، فلم تستعص عليه فتاة أو امرأة أعجبته! حتى "نجاة" فاتنة الحى التي ذاب في جمالها الجميع والتي عنّ حتى على "ماجد البارودي" الفوز برضائها، وقعت في شباكه! فصار أسطورة بين رفقائه، بل وخاف الجميع من جبروته وتحاشوا حتى التقرب إليه خوفا على أخواتهم البنات منه. تذكر يومًا وكان قد انحرف يمينا إلى شارعهم في طريقه إلى البيت أن مر بالمقهى على الناصية وكان يجلس بها صبي

كواء يدعى "نملة" وإسمه الحقيقي كان "مسعود" ولكن شاع عنه ذاك اللقب إذ كان ضئيل الحجم منمنما، الذي مال على أذن "حودة" العجلاتي رفيقه بالمجلس حين أبصراه قادما، فسمعه يهمس له:

- ". يجعل كلامنا خفيف عليهم! (سليمان) ده خطير يابني! ممكن تلقاه في يوم يعدي من فوق بيتكم كده يهرسك إنت وعيلتك، حرّص منه على اخواتك البنات والنبي!". فابتسم نحوهما ولكنه لم ينبس.

ولكن ذلك لم يمنعه من مواصلة صولاته وجولاته طوال سنوات الدراسة وحتى تخرجه من كلية الآداب، قسم الفلسفة، بتقدير جيد، بالرغم من انشغاله معظم الوقت بمغامراته النسائية. وأعد فشله الوحيد رفض عائلة "مريم دوس" ارتباطه بها حين فاتحتهم الفتاة برغبتها في أن يتقدم لخطبتها، بسبب الفارق الاجتماعي الكبير الذي كان يفصل بين عائلة "دوس" الثرية، وعائلته المتواضعة - على أحسن تقدير. وبالرغم من ولهها الشديد به، واستمرار علاقتهما في السر لعامين كاملين من بعدها، بالرغم من معارضة أهلها، إلا أن تهاونها تجاه موقف أهلها منه وتخليها عن التشبث به حتى النهاية، كان قد ترك أثرا عميقا عليه، لم يقدر أن يتغلب عليه بطول السنين.

ولكنه على كل حال قد أعد تعلقها الشديد به من الهبات التي حباه بها الخاتم المسحور، أما هو فاعتبر علاقته بها نوعا من التحدي، كأنه اختبار لمفعول الخاتم المسحور حيال قوانين المجتمع الصارمة، ولكن الدافع الحقيقي وراء ملاحقته لها كان حبه لذاته أكثر من حبه لها على أي حال.

* * *

وتمر الأيام الرتيبة المتشابهة، وتتجمع في جعبة الزمن سئيمة فارغة لا تحمل في ذاكرتها ما يميزها، فلا تعلق أي من تفصيلاتها بذاكرة "محمد البوري" القابع في سجن قنا ينتظر بصبر – بعد أن صار لا يمتلك سواه – أن يأتي يوم الفرج.

ولم يأت.

انتظره عند كل اشراقة شمس، وليلة مولد كل هلال، وعند قدوم الشتاء بسقيعه وسيوله المنهمرة، وعند هلول كل صيف بسعير نهاره وجفاف رياحه، ولكنه لم يأت.

حتى.

حتى مات الطاغية. أخيرا!

نعم. أخيرًا سقط، بعد أن أودى بأجمل سنوات عمره، مع باقي الإخوان، ما بين جدران السجون وأسقطهم إلى أسفل السافلين. أقزام صاروا خلف تلك الأسوار العالية، ورمال هذه الصحراء المترامية من حولها تحجبهم عن أي أثر لحياة، ومساحة شاسعة من النسيان تفصلهم عن أهلهم، وعن الناس، وعن البلد. ثم – أخيرًا – مات، بعد أن أضاع مع سنين وجوده كل شيء! خَرَب البلد بوجوده، ومعه هؤلاء الملاحدة الشيوعيين من الضباط إخوانه، الذين ابتعدوا بالناس عن العبادة وحكم الله وشريعته، ملتصقين بأمثال خروشوف وماو تسي تونج وتيتو وكاسترو، فسقط البلد بأهله في بالوعة الهزيمة والخراب. لم يستطع أن يغفر له ما فعل أبدا، وظلت سحابة الكراهية تلك تحلق فوق ذكراه، أو أي شيء يحييها من قريب كان أو من بعيد.

وفي النصف الأول من عقده السادس، وبينما كان قد فقد الأمل في الخروج، أمر الرئيس الجديد محمد أنور السادات – أطال الله في عمره – والذي تلى المأفونة ذكراه، بالإفراج عنهم. تلقى الأمر أولا بفرح بالطبع، وإن انتابته رجسة من أن يكون الوقت قد فاته ليتلاقى من جديد مع عجلات الزمن التي دارت طويلا بدونه، ولكنه اقتنع بأن التجربة على صعوبتها

تستحق الخوض خلالها بدون شك، فقرر أن يثب في لجتها وليكن ما يكون، فماذا يتبقى له أن يخسر بعد كل ما خسر. وتمتم عند بوابة السجن الخارجية قائلا:

- " حسبي الله عليه توكلت وهو رب العرش العظيم"

حين وصل إلى محطة "مصر" بالإسكندرية بكى. لم يستطع أن يحتمل كل تلك المشاعر ويبقيها متقوقعة بداخله بعد، ففاضت عنه في هيئة دموع تنزلق على صفحة وجهه المجعدة، وقد ابتسم في سذاجة مريبة وهو يتلفت إلى كل من حوله محتضنا إياهم بعيونه بعد أن كان قد غاب عنهم ثمانية عشر عاما. كان يجب أن يترك القطار في محطة "الحضرة" ولكنه لم يدرك معالمها ففاته أن يدركها قبل أن تتحرك عجلاته، أو لعل القطار لم يقف بها من الأصل، لا يدري، وإن كان الآن قد وصل به إلى المحطة الأخيرة فنزل. ولما خرج إلى الميدان الشاسع فوجئ بالزحام الذي ملأه عن آخره. كمٌ هائل من الباعة الجائلين والمتسولين وباعة ورق اليانصيب، وتعالت صيحات هنا وهناك، وغطت طبقة من الطين الأرض فلم يتمكن من أن يميز البلاط من الأسفلت، وافترشت النسوة باعة الخضروات الميدان بسلالهن القذرة، لا بد أن أمر جليّ قد وقع، لا بد أن يعرف كنهه قبل فوات الأوان، حتى أنه

بفضول طفل هارب من بيت أبويه لزحام المدينة توقف، ونظر إلى المشهد من حوله متعجبا، ثم مد يده وربت على كتف أحد الباعة المارق بصينية عريضة محملة بالسميط والجبن والبيض المسلوق، مشدودة بحزام إلى رقبته متسائلا:

- "هو فيه إيه؟"

- "فيه إيه يعني إيه يا حاج؟ روح. الله يسهل لك"

ونادى بآخر جالس فوق قالبين من الطوب وقد امتدت أمامه كرتونة تحمل مجموعة من أمشاط الشعر والسكاكين والملاعق والمناديل الورقية، مستفسرا:

- "إيه الحكاية يا بني؟ الناس دي كلها بتعمل إيه هنا؟" فنظر إليه باستغراب ولكنه لم يرد، فسأله بعد أن تأكد من أنه في صمته لن يزيد:

- "طب لو سمحت يا ابني أروح الحض–رة ازاي؟"

- "خد الترام اللي رايح النزهة وانزل في الحض–رة، ولا تكونش عاوز حق التذكرة؟. روح يا بويا واتكل على الله وخلينا نشوف شغلنا بقى"

لقد حسبه متسولا فصرفه عنه!. أو ربما ظنه مختلا ؟ أسقط في يده مدركا أن مظهره لا بد وأن يثير الاشمئزاز حتى في عيون ذلك الصعلوك فقرر ألا يتكلم مع أحد حتى يصل بسلام إلى بيته.

حمل لفافة ملابسه المعقودة فوق كتفه ومضى بخطى حذرة نحو الترام المتجه للنزهة لينزل في الحض-رة كما أوصاه الرجل. لم يدر كم سعر التذكرة هذه الأيام، وخجل أن يسأل الكمساري فأعطاه ورقة بعشرة قروش هي كل ما كان يملك بعد أن كان قد اشترى تذكرة القطار من قنا إلى الإسكندرية، وتردد فيما لو كان سيعطيه الباقي فحول نظره إلى اتجاه آخر، نحو صبية جميلة جالسة بجوار أمها وقد عقدت يديها الصغيرتين حول ذراعها ومالت برأسها نحوها قليلا، تفكر في أنها ربما تشبه "مى" إبنته، ولكزته يد الكمساري فأعادته إلى قروشه المتبقية من ثمن التذكرة. وعند محطة "كابو" حمل جعبته ومرق بين الأجساد المتراصة ونزل. وقف متسمرا على الرصيف ورنات الترام الراحل تودعه، وتلفت حوله متسائلا بينه وبين نفسه - عن الطريق إلى بيته، فأدرك كم تغيرت كل الأشياء من حوله حتى أنه لم يعد يدري كيف يعود إلى منزله. وفكر في أن يسأل واحد من الناس المكتظ بهم رصيف المحطة

من حوله، ولكن تجربة محطة مصر أجبرته على العدول عن الخوض في تلك المخاطرة من جديد. لا بد أن شكله قد بات غريبا عندما استمرت وقفته الصامتة هكذا على رصي-ف المحطة، فبدأ المارة من حوله يرمقونه بنظرات مرتابة، وبدأ الأطفال يطوفون من حوله بصمت أولا، ثم حين بدأت أيديهم وأصابعهم وضحكاتهم الشقية تمتد نحوه مستكشفة ما إذا كان عاقلا كالباقين أو مجنونا من المجاذيب هبط إليهم من الترام لغرض تسليتهم وإمتاعهم، تبين له ريبة الجميع في أمره، فرفع جعبته فوق كتفه من جديد، ومشى.

ماذا حدث؟ كيف تغيرت كل المعالم هكذا، ومن هم هؤلاء البشر الذين يملأون الشوارع من حوله ولا يعرف أي منهم ولا يعرفونه. عبر شارع "الحض-رة" بمعجزة بعد أن كادت سيارة مارقة أن تسحقه. إختفت علامات الطريق التي استرشد بها دوما، ولم يجد أي من المحلات التي كان قد اعتاد أن يبصرها، فلم يلمح الأسطى كامل الترزي، أو عم عبده البقال، أو مخزن الحاج الدمنهوري للمانيفاتورة حيث اجتمع بالاخوة بعد خروج الشيخ حسنين من المعتقل. أين ذهب كل هؤلاء ومن أين جاءوا بكل البدلاء ليملأوا الشوارع والطرقات هكذا. لا بد أن يكون هناك سر ما ولابد له أن يعرفه، فلا يمكن أن

تفسر سنوات غيابه تلك كل ذلك التغيير، فشدد من خطاه مسرعًا نحو البيت. عبَر بجانب السور العالي المحيط بمدرسة الصم والبكم، فتذكره وحمد الله أنه كان ما يزال قائما هناك وإلا ما كان ليدرك اقترابه من منزله. ثم انحدر عند أول عطفة متأملا المنازل القديمة على الجانبين، وهاله كم القاذورات المتكومة عند أسفل كل منها وقد تصاعدت منها روائح مقيتة، ولكنه تجاوزها مدركا قبو منزلهم العتيق، فخطى بداخله هاربا من ذلك الشعور بالاغتراب الذي اجتاحه، وارتقى درجات السلم المتآكلة إلى الدور الثاني لامحا الكتابات المدهونة بلون أحمر فوق سطح الحائط الكالح بجانبه:

"الاتحاد: 2 – الأهلي: صفر"

"هانحارب"

وقف برهة أمام الباب ليلتقط بعضا من أنفاسه، وليعد نفسه للقاء أسرته مسترجعا تفاصيل ملامح كل منهم ومحاولا أن يتخيل ما يمكن أن تكون الأيام قد فعلت بها. وبرقة طرق بأصبعه على الزجاج من بين القضبان الحديدية التي كست النصف العلوي لباب الشقة.

❋ ❋ ❋

الفصل العشرون

مهما تصاعد ومهما بلغ الأسى، فلابد مع مرور الوقت أن تذوب الأحزان ثم تتلاشى في أنهار النسيان السيَّارة، وخاصة حين تحملها إليها وتلقيها بها خطى الإنسان المستسلمة لمسيرة الحياة ولمقدراتها. وبالرغم من طول باعها مع الأحزان ومع فراق الأحبة، فلقد استسلمت "إيلين" أخيرًا لقدرها، وألقت عنها بثقل أحمالها فتباعدت عنها أحزانها على رحيل زوجها بأسرع مما توقعت، حتى أن شكت في أن تحول مشاعرها هكذا قد يعَب-ر في نظر البعض عن عدم وفائها لذكرى زوجها الراحل. ففي أقل من ستة أشهر كانت قد تخلصت من كل كآبة وعزلة كانت ما تزال عالقة بأيامها، وكانت لتعتقد أن الزوجة المخلصة إنما لا بد أن تكتسي حياتها بتلك المشاعر الحزينة المنكسرة وحتى يوم لقائها بروح زوجها، أو على الأقل لسنين ممتدة من بعد رحيله عنها، وليس لستة أشهر!. ولكن وبالرغم من عمق محبتها لداود إلا أنها وجدت نفسها توجه مشاعرها تجاه ذكراه إلى مجرى آخر، جديد حتى عليها هي، جانحة نحو الإعتناء بأبنائه كأفضل ما تستطيع، إجلالا لذكراه بدلا من البكاء والحزن، وكأنها تحمل على عاتقها أن تستمر وصايته على أبنائه من بعد رحيله،

عن طريقها هي، من خلالها فلا يشعر أيهما بأي نقص لغيابه.

بل وكانت قد شعرت أن داود لم يمت ويتركها، حيث بقى دائمًا طيفه يحوم حولها وتعينها ذكراه على مواصلة الطريق، وتفهمت أنه دائمًا ما كان يقودها بطريقته الخاصة إلى ذلك السبيل، حين ترك لها ثمن المصنع والقصر تحت تصرفها من قبل، وحين أوصى بأن يؤول الخاتم المسحور – في نظره – إلى إبنها سليمان دونا عن بقية أبنائه، وشعرت بعد رحيله بوجوده السرمدي في وسطهم حين قرأت أشعاره التي أخذت بلبها منذ قرأتها في الليلة الأولى فتبينت من خلالها أفكاره ووصاياه وعصارة قلبه وروحه.

إستمرت في عطائها المتدفق الذي استغربه الجميع، وحتى هي نفسها تعجبت من طاقتها المتدفقة تلك، حتى تخرَّج "سليمان" من كلية الآداب ومن بعده "منى" من كلية التجارة بجامعة الإسكندرية. ولحسن تدبيرها فلقد استطاعت أن توفر لمنى مستلزمات عرسها وتجهيز شقة مناسبة لها حين تقدم لخطبتها زميلها بالكلية "نادر عبد المسيح"، والذي انتقل بها إلى القاهرة بعد زواجهما ليتبديا مشوارهما في الحياة سويا، بدون مساعدة من أبيه الذي كان مديرا لأحد أفرع بنك

الإسكندرية. إنكسر قلبها أولا لفراق ابنتها بالطبع، ولكن التحول الذي كان قد طرأ عليها منذ رجوعهم إلى محرم بك كان قد أكسبها صلابة صعبت على تغيرات الأيام أن تغير من قوتها.

وفيما عدا قليلا من (السُك-ري) الذي كان ثمنا لزيادة وزنها المفرط والذي نصحها بأن تنقصه الدكتور "رياض شكري" الطبيب الوسيم الذي تمنته لابنتها من قبل أن ترتبط ب-"نادر"، إلا أن شيخوختها كانت مريحة نسبيا. فقد قسمت وقتها بين صلوات القداس المنتظمة واجتماعات درس الكتاب المقدس يومين في الأسبوع بالكنيسة، وبين زيارتها لملجأ العذراء مرة في الشهر، واكتفت بزيارة ابنتها "منى" بالقاهرة خلال الأعياد والمناسبات بمعدل مرتين أو ثلاث مرات في السنة، ولكنها لم تكن تشعر براحة لوجودها في بيت "نادر" وحضرته مع أنه كان دائمًا ما يعاملها - والشهادة لله - أحسن معاملة، إلا أنها لم تتغلب عن إحساسها بأنه كان قد اختطف ابنتها من بين أحضانها ومن الإسكندرية كلها ونزح بها بعيدًا عن عينيها إلى القاهرة. وفيما عدا ذلك فقد اكتفت بالإستماع إلى الراديو أثناء النهار، وقراءة الكتب الدينية وأشعار داود بالليل. أما سليمان فكان يعيش معها كنزلاء

الفنادق، فلا تراه إلا نادرا لحظة قدومه أو خروجه، وإن كان نادرا ما يقضي وقتا معها، فيتيح لها أن تتحدث إليه عما يجري بالدنيا من حولهما. ولكنها مع ذلك كانت راضية كل الرضى بمسيرة حياتها المطمئنة المنعزلة عن العالم ومشاغله المتعددة.

وفي شهر أبريل من عام 1968 كان قد حدث أمر جليّ غير من رتابة حياتها وأدخل إليها بهجة وترقب كانت الأيام العادية قد طمستها منذ زمن طويل. فلقد أعلنت الكنيسة بمحرم بك عن قيامها برحلة إلى القاهرة لزيارة كنيسة العذراء بالزيتون هناك حيث اندلعت أخبار مؤكدة بظهورات معجزية للسيدة العذراء مريم فوق قبابها، شهدها أول من شاهدها عمال بسطاء كانوا ساهرين بموقف للحافلات بجوار الكنيسة هناك، فوجئوا بخيال لامرأة تمشى فوق سطح مبنى الكنيسة من حول قبابها فأسرعوا بإبلاغ الحارس، وسرعان ما جاء القسيس وجمع من الناس وانبهر الجميع بالضياء المنبعثة من جسم المرأة التي تبين للقس أنها السيدة العذراء، واعتقدوا هم أنها امرأة تحاول الانتحار، وفجأة اختفت المرأة بضيائها. انتشر الخبر بسرعة مذهلة بعد أن تكررت الظهورات التي أبصرها المئات ثم الآلاف من سكان المنطقة ومن النازحين من

الأحياء المجاورة أولا، ثم من شتى الأنحاء فيما بعد، حتى أن "منى" ابنتها كانت قد ذهبت بصحبة زوجها ذات ليلة وشهدتها بنفسها وأبلغتها تليفونيا في اليوم التالي. وبعد الحاح وافق "سليمان" أن يصحبها إلى هناك مع باقي شعب الكنيسة، وفي الحافلة التي أقلتهما كان قلبها يكاد يرقض قبلها ليشهد نور السيدة العذراء هناك.

في وسط شارع "طومان باي" الممتد تجمعت الآلاف وقد افترشوا الأسفلت والأكلمة والجرائد أحيانا، أو جلسوا بمقاعد الشاطئ التي جلبوها معهم، أو وقفوا الليل بطوله متسمرين شاخصين برهبة واشتياق نحو القباب الصامتة، تحيط بدائرتهم المجتمعة الحافلات المصطفة بالموقف حيث رآها العاملين بها لأول مرة. وفي الواحدة والنصف صباحا تبدى نور وضّاء فوق القبة القبلية وسط صياح الجموع بقى لدقائق ثم اختفى، ثم نحو الثانية صباحا ظهرت السيدة العذراء فوق القبة بنور أثيري لم تشهد لمثله بهاء، وتصاعدت الهتافات كهدير نابع من آلاف المجتمعين وانتشرت في المكان رائحة البخور والورود بسرعة فائقة، ثم بعد حوالي عشرين دقيقة غاب النور واختفت السيدة العذراء وانقطعت روائح الأطياب، وكأن أحد قد ضغط زرارا كهربي فانقشعت ثم ضغطه

مجددًا فغابت. وامتلأ الميدان بعدها بهتاف وصراخ هنا وهناك تشي بمعجزات وقعت، أو بغبطة سماوية طاغية سرت، أو بحسرة من أناس كانوا موجودين طوال الوقت وإن لم يبصروا شيئًا مما شهده الباقون. ولدهشتها، علمت إيلين أن الكثيرين ممن شهدوا الظهورات وأدركوا تلك المعجزات كانوا من المسلمين الذين توافدوا الى المكان بعد أن بدأت الجرائد تكتب عن المعجزة. أما عنها هي فلقد حظت بفرحة وسلام لم يسبق لها أن اختبرت من قبل، وفوق ذلك فقد حبتها العذراء مريم بمعجزة الشفاء من مرض السُك–ري كما أعلمها الدكتور رياض فيما بعد.

* * *

أما "سليمان" فلقد امتلأت أيامه بمغامراته العاطفية، وبعمله الجديد كمدرس للفلسفة لطلاب القسم الأدبي بمدرسة "سان مارك" التي كان قد تخرج منها، ولكن في مكان خفي، متوار من الأحداث التي امتلأت بها حياته، كان فكره دائمًا مشغولا بفكرة المعجزات، وإذا ما كانت تتعارض مع نظريات العلم والمنطق. كان لرؤيته لنور العذراء فوق قبة الكنيسة بالزيتون السبب الأكبر في طرح مثل هذه التساؤلات أول الأمر. فلقد كان قبلها لفظ "معجزة" إنما يعتريه أو أن يستخدمه

مجازا، كأن يتفكر يومًا في أنها كانت "معجزة" مثلا أن يصل إلى الجامعة في المي-عاد قبل أن يغلق الدكتور "سعد مدكور" الباب، ويبدأ في تقريع الطلبة المتأخرين عن موعد بدء محاضرته، وكأنه لا يعيش في نفس البلد التي يحيون بها، ويدرك أزمات المواصلات، والمرور، التي تحيط بتفصيلات كل أيامهم. أو أنها "معجزة" أن يفوز هو بقلب "نجاة" دونا عن أي ممن حولها من الشباب، بل وحتى المهندس المرموق والشاب الوسيم "ماجد البارودي". ولكن "المعجزة" التي ارتآها بكنيس-ة العذراء كانت مختلفة، فقد كانت المعجزات من النوع الأول تخضع كلية لقوانين العلم والطبيعة المعروفة وما كان استخدامه للفظ المعجزة عند حدوثها إلا على سبيل المبالغة، ولكن ظهور العذراء فوق قبة الكنيسة ورؤيتها لها من قبل الآلاف من المسيحين والمسلمين معا، يومًا بعد يوم بحي الزيتون وبمشاهدته هو شخصيًّا لها بشارع طومان باي، لم يكن ليخضع لميزان الطبيعة ولا العلم، وإن لم يناهضهم في الوقت ذاته أو يتعارض معهم، وإنما يقع في إطار "خارج" مفاهيم العلم والمنطق وقواعدهما. فقوانين الطبيعة تحتم ألا تتدخل في تطبيقاتها قوى أخرى مؤثرة، حتى لو كانت فوق الطبيعية كما درس في قسم الفلسفة بالكلية، فمثلا قانون

الجاذبية لم يبطل حين امتدت يده بالأمس والتقطت كرة كانت في طريقها إلى السقوط إلى الشارع بعد أن وقعت من طفل كان يلعب بالبلكونة، حين كان سائرا تحت البيت، ولكن تدخل يده منعت الجاذبية - الخاضعة للقوانين الطبيعية - من أن تسقط الكرة إلى سطح الأرض، كما كانت قد سمحت يد الله - فوق الطبيعية - ليلتها، وأمام عيون الآلاف من البشر، بأن تتحدى قوانين الطبيعة التي كانت تحتم بسريان الظلام فوق القباب إذ لم تكن هناك شمس لتضيئها مثلا، وتدفع بالمعجزة لأن تحدث، بل وكان الدليل على حدوثها إجماع الغالبية المجتمعة على وقائعها بالرغم من اختلاف عقائدهم وأسباب حضورهم إلى ذلك المكان بالذات، فقد كان هو مثلا أحد الذين حضروا خصيصا لتفنيد ذلك الحدث "غير العلمي" من الأساس!. وما أن تشارك سليمان بهذه الجدالات الفلسفية مع أساتذته في الكلية وصديق دراسته "يوسف طاهر" وبالرغم من غرابة الفكرة إلا إنه فوجئ باستحسانها في عيونهم حتى أنه اقترح عليهم أن يتقابلوا دوريا للمناقشة، نقاش مواضيع عامة وخاصة وأفكار فلسفية وفكرية، على أن تكون اجتماعاتهم لمناقشتها، بجوار أي أفكار أخرى قد تجِّد مستقبلا، في إطار "جماعة الفكر الحر" التي أرساها. إستحسنوا الفكرة، بل وتبرع

أحد الأساتذة بقسم الفلسفة بشقة بالدور الأول بعمارة شاهقة بالإبراهيمية كان أبوه يتخذها مكتبا للمحاماه له قبل وفاته، لتكون مقرا لاجتماعاتهم. وكان الدور الأرضي عبارة عن مقهى يرتاده الشباب حتى مطلع الفجر، إشتراه صاحبه من رجل يوناني كان يديره كحانة تستقبل مريديها حتى مطلع الفجر! ولكن ما لم يعرفه "سليمان" أبدًا هو أن صاحب تلك الحانة كان "الخواجة أنطونيللي".

* * *

انفتح الباب ووقفت شابة جميلة سمراء البشرة فارعة الطول تسد فتحته متحلية بابتسامة عريضة، فيما وقف "محمد البوري" وقد عقدت المفاجأة لسانه حين أدرك أنها ربما تكون رحلة عودته قد انتهت أخيرًا وأن تكون هذه الشابة اليافعة الواقفة أمامه هي ابنته "ميّ". وتعجبت هي من ذلك العجوز الذي طرق بابهم ثم بقى صامتا هكذا أمامها فتساءلت فيما لو كان ربما أدرك أنه أخطأ العنوان، وازداد الموقف تعقيدا في عينيها حين بدأ العجوز الغريب ذاك يزرف الدمع صامتا. ومع ذلك فلقد مرت دقائق لم تقو خلالها أن تصرفه وتغلق الباب، بل بقت هي الأخرى متجمدة أمامه منتظرة أن يبادئها هو

بالحديث، بينما اندحرت عن وجهها تلك البسمة. ثم تكلم العجوز أخيرًا متلعثما:

- "إنتِ ميمي؟".

دقت رنات نبرات صوته في مكان عميق من قلبها وعقلها، لم تتبين موضعها من نفسها أولا ولكنها أدركت رغم كل شيء ألفتها لديها بل وحميميتها، وبالذات فإن لقب "ميمي" كان مقتصرا على الدائرة الضيقة جدًّا من معارفها، فاستثار ندائها به من قِبل ذلك الغريب فضولها، مما دعاها إلى أن تستجمع شجاعتها وتجيب في ثقة:

- "أيوه أنا ميمي. مين حضرتك؟"

- "أنا ابوكي يابنتي" قالها بصوت متهدج، ثم اندفع نحوها فاتحا ذراعيه ليحتويها إلى حضنه بينما بقت هي متجمدة في مكانها من هول المفاجأة. ثم رفع ذراعاه عنها ودار حولها بينما بقت هي متسمرة وقد وضعت راحتها أمام فمها غير مصدقة، ودخل "محمد البوري" الشقة متسائلا:

- "فين زينب؟ فين محمد ومصطفى؟ يا زينب! ياحاجة زينب!"

بدأ يصيح بصوت ملؤه الفرح وهو يجوب أنحاء الشقة البسيطة الأثاث المتراص بداخلها بنفس الأماكن التي تركها عليه منذ ثمانية عشر عاما، وإن اكتست جدرانها الآن بطبقة جديدة من الجير الفستقي. جاءت زينب مهرولة من الداخل وهي لا تصدق أنها سمعت صوت رجلها يملأ البيت من جديد، تسبقها فرحتها الغامرة حتى أنها دخلت إلى الصالة، وقد بسطت يدها أمام أنفها وقد غطى كفها أعلى فتحة فمها ولسانها المتراقص بداخله، مزغردة زغرودة متصلة وصلت بها إلى أن وقفت بين يديه.

– "ألف حمد الله ع السلامة ياخويا. نوّرت بيتك، ألف حمد الله على سلامتك". وأشياء أخرى مماثلة تفوهت بها أحيانا، وتفكرت بها أحيانًا أخرى وإن لم تتِح لها الفرحة التي اجتاحتها الفرصة لأن تنطق بها. هاله منظرها وفوجئ بما فعل الزمن بها ولكنه تعمد أن يحتفظ بمشاعره لنفسه. وفجعت هي أيضًا، مندهشة من كل تلك الشيخوخة والوهن التي رجع مكللا بهما، مثلما حدث له تماما، وإن تجنبت بدورها التعليق لئلا تخدش مشاعره.

– "أمال فين الولاد؟ قصدي أقول الرجالة، ولاد إيه بقى بعد ما شفتك يا ميمي!" تساءل محمد ناظرا نحو ابنته "ميّ"،

التي ابتسمت لأول مرة بينما كان يهم بأن يعتلي مكانه المفضل على الأريكة المركون ظهرها للحائط أسفل النافذة المطلة على منور البيت وقد قبعت صينية محملة بقلتين من الفخار عند أحد جانبيها، تمامًا كما تركها منذ ثمانية عشر عاما، فنظر حوله متفحصا بأرجاء المكان وحمد ربه أن مايزل هناك شيء واحد لم يتغير بعد في هذه الدنيا الجديدة. إنكسرت رأس زينب فوق صدرها قليلا وإن أبقت عينيها مثبته نحو عينيه وهي تقول بحسرة:

- "(الإسِّيس) طفش على أمريكا، يابو محمد، بس (مصطفى) بخير، شغال في مصنع (باتا) وزمانه قرب يرجع عالغدا." قالتها وصمتت، مديرة وجهها للناحية البعيدة لئلا يلمح الدمع الذي كان قد بدأ يترقرق في مقلتيها. لاحظ هو ذلك فتساءل مغيرا اتجاه الحديث:

- "أمريكا مرة واحدة! يا مرسي يابو العباس! إنما إيه حكاية (الإسِّيس) دي؟" تساءل مقهقها. فلقد جرى العرف أن يدعى الشخص الخبيث بلقب "القسيس" بلغة الاس-كندرانية أولاد البلد، كناية عن جبنه ومكره بطريقة ساخرة. ونجح فعلا في إضفاء جو مرح فردت زينب مدركة أن زوجها غاب عن بيته كل تلك السنوات:

- "أصل ياسي (محمد) الست (أم جابر) صاحبة البيت كانت واقفة في يوم ع السلم بتتفرج على(عَاركة) ما بين (جابر) إبنها وأخوه (حسين) وبين ولاد الأسطى (حسونة)، وكان - بعيد عنك - الدم للرُك-ب. في مجية إبنك (محمد) إللي طل-ع السلم لا بيه ولا عليه حاضن كتبه يا حبة عيني، وعدًّا من وسطهم كده ولا كأن فيه حاجة خالص، ماهو مالوش في العراك والكلام ده يا خويا. فالست أم جابر زعقت في عيالها وقالت حاسب يا وله إنت وهو لحسن الدم يوسخ قميص الإسِّيس. ومن يومها طلع الإسم ده عليه".

تفكر في الأمر وابتسم إذ أمضى ثمانية عشر سنة في السجن لانتمائه لجماعة الإخوان المسلمين، ثم يخرج بعدها ليشهد أن ابنه الأكبر قد هاجر إلى "أمريكا"، بعد أن صيرته "الست أم جابر" قسيسًا!.

*** * ***

الفصل الحادي والعشرون

كمثل جراب الحاوي المليء بالأعاجيب، يُخرج منه تباعا ثعبانا أرقط فيسيطر على حركاته المتمايلة بمزماره، أو حمامة وديعة يطلقها راقصة مرفرفة عاليا في الهواء، أو مناديلا ملونة بألوان الحياة، أو وطواطا أسودا مذعورا ممزوجة ملامحه بسحنة الموت يخفق بجناحيه، بينما يعرج متخبطا فوق رءوس المشاهدين، هكذا أيضًا الأيام تأتينا متأنية متخابثة، تتبسم إلينا متخابثة بينما تقبض من جرابها وتلقي في وجوهنا بغرائب ومصائب أحيانا، ومنح وجبايات في أحيان أخر. فبينما كان سليمان يرفل في سنوات دراسته مطمئنا إلى مسيرتها الهادئة، متنقلا كالفراشة بين زهرة وأخرى، كانت البلد تغلي من حوله متقدة بنار القهر والاحباط الذي لازم الهزيمة والانكسار والاحتلال الذي أطاح بالجانب الشرقي لقناة السويس وحتى الحدود المصرية الإسرائيلية، بالإضافة إلى تخبط السلطة بين ربط الأحزمة، والصبر، و"عام الحسم" الذي لانتظروه ولم يجيء أبدا، مهما قيل إنه على الأبواب، حتى بدا وكأنه السراب الذي لن يناله التائه في الصحراء المقفرة، فيخفقه كلما أسرع مندفعا نحوه.

وحدث ذات عصر في أواخر الصيف وكان قد استيقظ لتوه من قيلولته، وبينما كان يحتسي الشاي في البلكونة جالسًا فوق نفس المقعد الذي اعتاد أبوه أن يجلس به، وبينما يتفكر فيما سيفعل بنفسه في تلك الأمسية، إذا بالباب يطرق، وتجيئه أمه لتعلمه بحضور شاب طلب مقابلته فأجلسته بحجرة الضيوف منتظرا له. بسرعة غير بيچامته بقميص وبنطلون وأسرع خارجا يشمله الفضول فيمن يكون ذاك الضيف. أدار مقبض الباب ودخل فإذا بالمهندس "ماجد البارودي" الشاب الوسيم يجلس مستكينا بوجهه الأحمر وشاربه الذهبي، وابتسم إليه حين دخل إلى الغرفة، فمد يده إليه مصافحا ومرحبا بقدومه، وإن انشغل فكره محاولا استنباط ما تحمله تلك الزيارة من أسباب.

– "تشرب شاى؟" سأله بحميمية، فابتسم ماجد البارودي وأحنى راسه قليلا ثم أجابه متلعثما:

– "مافيش مانع، يعني لو مافيش تعب، ياريت!" وابتسم ثانية وأعدل مجلسه بالكرسي المذهب ذو المقعد المنبعج غير المريح. إنصرف سليمان لوهلة طالبا من أمه أن تعد الشاي ولمّا عاد بدا على الشاب الوسيم الذي تقدم

بمجلسه إلى حافة المقعد، الإستعداد للدخول في الموضوع. لم يستطع هو أن يخمن السر وراء زيارته، حتى بادره ماجد قائلا:

- "في الحقيقة يا سليمان - تسمح لي أقول سليمان كده بدون ألقاب؟" أومأ إليه سليمان، واستمر يهز رأسه لأعلى وأسفل مشجعا إياه طوال الحديث، فأكمل:

- "في الواقع أنا مش عارف أبدًا إزاى. أنا أصلي متوتر جدًّا في الحقيقة. أنا مكسوف جدًّا إني جاي كده من غير ميعاد، بس الموضوع مهم، قصدي يعني مهم بالنسبة لي. مش عاوز أطول عليك يا سليمان، إنت أكيد عارف إني دلوقت ضابط في سلاح المهندسين، يعني أصل أنا دخلت الجيش بعد البكالوريوس، من كام شهر بس، وجندوني برتبة ضابط وعلشان مؤهلي ألحقوني بفرقة في سلاح المهندسين، أنا آسف باعيد الكلام، وباضايقك، أنا آسف والله. أصلي متوتر شوية، لأ مش حكاية توتر، في الحقيقة أنا خايف! أنا آسف إني باقول لك الكلام ده. طيب وانت ما لك؟ آجي وأزعجك في بيتك. آسف يا سليمان! والله ما قصدت أزعجك!" خرجت كلماته مبتورة، متناثرة، كقطع الزجاج الصغيرة عندما يسقط الكوب المصقول على الأرض فيتحطم. قاطعه سليمان مهدئا إياه بعبارات عامة مثل "لا داع للإعتذار" و"نحن أخوة"

و"لا كلفة بيننا" فهدأ قليلا، ولكن لم يحسم الموقف ويعيد الإتزان للغرفة إلا دخول "إيلين" – أمه – حاملة لصينية الشاي.

– "إتفضل. إشرب يا ماجد باشا". دعاه محاولا أن يكسر حدة التوتر. مد يدا مترددة نحو الصينية وحمل الكوب واقترب به من شفتيه بسرعة، بهزة خفيفة تكاد ألا تكون ملحوظة، من قبل أن ينسكب الشاي من حافة الكوب المرتعشة ما بين أصابعه. إرتشف مرتين ثم وضع الكوب فوق الصينية من جديد. ثم أعلن فجأة:

– "بصراحة يا سليمان أنا مرعوب من الحرب". لم يفهم مكنون هذه الجملة وماذا يقصد بها بالضبط، خائف من اندلاع الحرب؟ من خسارة الحرب؟ من الموت في الحرب؟ ماذا يعني بالضبط؟

– "حرب إيه؟" تساءل سليمان، فارتفع صوته وكأنه ينهره:

– "يعني إيه حرب إيه؟ حربنا مع إسرائيل طبعا!" يقصد الحرب القادمة! فاستلقى بظهره مستكينا إلى مسند كرسيه، وقال وهو يشير بيده نافضا الفكرة بعيدًا:

– "يا راجل إنت بتصدق الكلام ده؟ مافيش لا حرب ولا حاجة!". علق سليمان مبتسمًا محاولا لأن يضفي نوعا من السكينة إلى قلبه.

– "لأ. فيه ياسليمان!" أجابه ماجد وأطرق، عاصرا رأسه ما بين كفيه، وقد ارتكز بمرفقيه على فخذيه دافنا نظراته فوق السجادة الكالحة بحجرة الصالون. وساد صمت للحظات. ثم استكمل الحديث قائلا:

– "فيه استعدادات مكثفة وحاجات بتحصل حوالينا، مش هاقدر أقول لك على تفاصيلها طبعا، بس الموضوع جد!" وساد صمت جديد.

– "يا سيدي ما هم كل شوية بيعملوا الحركات دي علشان يفهموا الناس إنهم مش ساكتين!" أجابه سليمان محاولا من جديد أن يشيع بعض الاطمئنان إليه دون جدوى.

– "يوسف طاهر صاحبك معايا في الوحدة، إتكلمت وياه عن الرعب إللي أنا فيه ده، لقيته هو هادي جدًّا وواخد الموضوع بمنتهى البساطة، مع إنه متأكد زيي تمام إن الموضوع جد جدا". وهنا ضحك بهيستيرية وانتفض واقفًا ثم أخذ يخطو حثيثا بأرجاء الغرفة وقد عقد ذراعيه خلف ظهره

يقطع الغرفة ذهابا وإيابا، وما يزال يطلق تلك الضحكات العصبية المبتورة. وتماما، كما كان قد وقف فجأة، جلس فجأة، واعتدل عند حافة كرسيه ثم فرك كفيه معًا وتكلم مجددا:

- "يوسف طاهر قال لي عن الخاتم بتاعك، قال إنه خاتم مسحور، ومفعوله أكيد من أيام الشيخ سيد الله يرحمه، ولحد دلوقت." وهنا بدأ صوته يتهدج من شدة التأثر ولكنه تمالك نفسه وأضاف:

- "أرجوك يا سليمان. أتوسل إليك. أنا عاوز أستلف الخاتم بتاعك إللي ورثته من المرحوم أبوك. أرجوك! سلف بس لحد مارجع مش أكتر. والله العظيم ما هايفضل معايا ولا ساعة زيادة! أنا حاسس إني هاموت لو سافرت للجبهة من غيره. والسفر بكرة الفجر!. أنا عارف إنه طلب صعب لكن أنا خايف يا سليمان!. أنا مرعوب!. أرجوك!".

لم يجد سليمان بدا من أن يستجيب لطلب "ماجد البارودي" عالما أن الموضوع برمته لن يتعدى بضعة أيام يعود بعدها مدركا أنه كان يبالغ في استقرائه للأمور.

وعندما تحدث بعدها مع أمه في هذا الشأن تعجبت من تهاونه في صون ممتلكاته وخاصة ذلك الخاتم الذي كان قد ورثه عن المرحوم والده، فقالت:

- "ما لكش حق يا سليمان. وتعرف منين بس إنه هايرجعه من تاني؟ مش ده برضه ماجد إللي كان عاوز يلطش أختك (ليلى) من وسطنا، لولا ما سافرت لبلاد برة!" وأضافت بتأثر:

- "ياترى عاملة إيه دلوقت يا ليلى يابنتي؟".

هكذا كان سليمان دائما، يتصرف في كل أموره بتلقائية قد تصل إلى حد السذاجة، ولكن رغبته الملحة في اجترار رضى الآخرين عنه كانت تدفعه دفعا على الدوام في ذلك الإتجاه.

ولكن بعد مرور أقل من يومين فوجئ الجميع وهو بالذات حين تبين له صحة توقعات "ماجد الباودي"، إندلعت الحرب بين مصر وإسرائيل وكان لسلاح المهندسين دورا بارزا في عبور القوات المصرية لقناة السويس، واجتياز "سد بارليف" الترابي والتغلغل من جديد إلى أرض سيناء من ورائه، تلك الأرض التي غاب المصريون عنها لأكثر من ستة أعوام. ثم بعد ثلاثة أشهر من بداية الحرب عاد المهندس "ماجد

البارودي" يطرق باب سليمان، وأخذه بين أحضانه ثم أعاد إليه الخاتم المسحور كما كان قد وعده، وإعلمه أن باستثنائهما، هو و"يوسف طاهر" الذي أصيب بشظية بسيطة جرحته بفخذه، فلقد استشهد كل فرد من أفراد وحدته من الجند وصف الضباط.

* * *

عاد من جديد للصلاة بانتظام.

بل وشرع "محمد البوري" إلى المسجد القريب ليصلي العشاء ذات مساء فلقيه المصلون به، وخاصة المسنون منهم، بعد أن تعرفوا عليه بفرحة عارمة واستقبلوه أيما استقبال. بات يصلي كل الفروض بالجامع من بعدها لما وجد منهم كل ذلك الترحاب، ثم ازداد تلهف الشباب عليه والتفافهم من حوله وخاصة عندما بدأ يكلمهم عن تجربته في السجن. دب النشاط في جسده من جديد، وكأنما كان الزمن قد عاد به عشرة أعوام للوراء وخاصة من بعد زيارة "ديدو" له.

كان قد تلقاه في منزله ذات ليلة وكانت "ميّ" قد ذهبت لعملها المسائي بمكتب الآلة الكاتبة المجاور، بينما خرج "مصطفى" مع جماعة من الأصدقاء في سيارة أحدهم وكان

أبوه يعمل بالكويت وقد ابتاعه تلك ال- "فيات 124" تعويضا له عن سنين عمره التي أمضاها بدون أب يرعاه. قال له ديدو أن صديقا له يدعى "عبد الحميد مصطفى" يعمل بالمخابرات، قد لاقاه وقال له أن النظام قرر إطلاق الجماعات الإسلامية لتعمل بكل حرية حتى تحتوي الحركة الإشتراكية الشيوعية التي انتشرت كالوباء وخاصة بين طلاب الجامعة. وإن ذلك الصديق هو الذي أخبره عن إفراجهم عنه، بل وحثه على المجيء إليه ليزف إليه بنفسه تلك الأخبار السارة. أعلمه أيضًا عن وفاة "الشيخ فودة" منذ عامين تقريبًا بعد نحو عام من عودته إلى منزله بمحرم بك بعد أن كان يحيا هاربا عن عيون الأمن متنقلا بين مختلف المحافظات. وعن الحاج "سيد الدمنهوري" تاجر المانيفاتورة والإخوانجي القديم، أعلمه ديدو أنه قد أصيب بالشلل وأنه يمضي أيامه راقدا على سريره بلا حراك تخدمه خادمة عجوز، بعد أن تركته زوجته المسنة لتعيش مع أحد بناتها في سيدي بشر، حيث لم تقو على خدمته بل احتاجت إلى من يخدمها، وأنه لا يبدو عليه أنه يتعرف على أي ممن حوله حتى أن أبناءه قد انقطعوا عن زيارته منشغلين عنه بحياتهم الجديدة، بعد تصفية تجارته وتقسيم أمواله فيما بينهم، بحسب الشرع، وكأنه مات فعلا.

تبين له أن "ديدو" ذلك الشاب الغض الذي كان قد تركه قبل ثمانية عشر عامًا قد صار اليوم زعيما مسئولا عن الحركة يقصده رجال المخابرات للاضطلاع بمهامهم السياسية، وبأنه جاءه قاصدا إدراجه بتولي القيادة عنه من جديد. إقتنع يومها بأن على عاتقه وقعت الآن مسئولية العمل بعد أن غابت عن الساحة كل القيادات، ولم يتبقى سواه وحده من الرعيل الأول، فحمد ربه على سنوات السجن الطويلة التي حفظته حيّا استعدادا لهذا اليوم الذي تعين عليه فيه أن يحيي حركة الإخوان المسلمين بالإسكندرية، وبأمر مباشر من النظام، وتحت مظلة رعايته.

لم تكن المهمة بالصعوبة التي كانت عليها في الخمسينيات حين كانوا يلتقون في جنح الظلام، ويلتفتون من حولهم ذعرا لمجرد نباح كلب قد يمر في طريقهم، فلقد صارت مسألة تجنيد الأعضاء الجدد غاية في السهولة بسبب انتشار الإحباط بين الشباب، وخصوصًا نصف المتعلمين منهم. كان كالصياد بالماء العكر، كما يقولون، فلا توقن الفريسة من أين يأتيها الخطر. فلقد كانت الرؤية بين الناس شبه منعدمة فعلا، حتى أن الرئيس السادات نفسه أطلق على سنة 1972 "عام الضباب". وفي المقابل كانت منابر المساجد والزوايا منتشرة

في كل مكان بحيث ما كان عليه إلا أن ينشر دعوته بين حفنة من المريدين أولا، ثم يطلقهم من بعدها بين جموع المصلين ليتمموا نيابة عنه باقي العمل، فازدادت أعداد جماعتهم وبالتالي عزوتها بسرعة مضطردة أذهلته هو شخصيا، وانتشر الشباب الملتحي المحفوف الشوارب يخطرون في جلابيبهم في شوارع الحضرة والماكس والدخيلة، في تلك المناطق العمالية أول الأمر، ثم فاضت عنها إلى باقي الأحياء القريبة بداية، ثم البعيدة منها حتى وصلوا إلى "أبوقير" و"المنتزة". ولكن مقدار تعجبه الأشد كان لتجمعهم هكذا بالمساجد الكبرى كالشبراويشى والمرسي أبو العباس، بدون أدنى حذر أو خوف، تحت سمع وبصر عساكر الحراسة، الرسميين منهم وحتى المخبرين، وهو الأمر الذي لم يكن إعتاده من قبل.

وبعد نشوب الحرب انتشرت ما بين الناس مقولة أن جندا من السماء (لابسون أبيض في أبيض) كانوا يحاربون إلى جانب الجيش المصري، وأن صيحة "الله أكبر" المدوية كانت السبب الحقيقي في نجاح خطة العبور. وللحق فقد فرح "محمد البوري" أيما فرح لنجاحه فيما كان قد شرع فيه، وإن لم يكن يتوقع أن يصل لدرجة التأثير هذه فتنتشر مقولاته وأفكاره هكذا في كل مكان حتى يعتنقها الغالبية فتشكل الرأي العام بكل

أنحاء البلد، ولكنه مع ذلك التزم بالاتضاع، فكان دائمًا ما يقول لنفسه:

– "وما توفيقي إلا بالله"

وبعد رحلته الشهيرة إلى "القدس" وتبعاتها المدوية في مصر وباقي البلدان العربية، سأله "ديدو" ذات مرة عما يكنه للرئيس "السادات" – الذي كان قد أمر بالإفراج عنه – من مشاعر، فأجاب أنه ليس بناكر للجميل، ولكن صاحب اليد التي تصافح يد اليهودي، حتى ولو سعيا للسلام كما يدعي، هو حتما ليس منا، هكذا علمنا رسولنا الكريم، عليه أفضل الصلوات.

*** * ***

مع تقدم الأيام والسنون بها بدأت تلحظ تغييرا طفيفا في ملاقاة جيرانها لها، ولكنها كانت في البداية تعزيه لتحفظها هي ولإنعزالها، ولكنها مع الوقت شعرت بازدياد الجفاء والبرودة في معاملة التجار بالسوق، وصاحباتها بالعمارة وفي الحيّ بوجه عام، كف الجميع في نفس الوقت تقريبًا عن تحيتها بالحوانيت أو الطرقات، بل وبالغ البعض حتى أنهم كانوا يديرون وجوههم بعيدًا إذا ماقابلوها. وانتشرت ظاهرة

الس-فر للعمل بالسعودية والكويت وباقي دول البترول، وغاب من الجيران تباعا عدد لا بأس به من الرجال تاركين ورائهم النساء والأولاد. ولما عاد النازحون في أجازاتهم أو عند انتهاء عقودهم جاءوا متشبعين بثقافات جديدة وفكر غريب عن أهل البلد، وقامت زاوية أو جامع في كل شارع، وبدون سابق انذار ظهر وعاظ ورجال دين يدعون بمبادئ إسلامية جديدة عند كل ركن، فمثلا تبدلت خواتم الزفاف من الذهب إلى الفضة، ولبس الرجال ساعات اليد حول المعصم الأيمن بدلا من الأيسر، وتسربلوا بالقفطان العربي في الشوارع، وبالتدريج ولكن خلال فترة وجيزة تغطت رءوس وأعناق معظم النساء من حولها، حتى بات سفور شعر النسوة في الشوارع يشير إلى ديانتهن، وغطت الأردية أجسادهن برمتها حتى لم يعد يظهر منهن سوى العينين أحيانا، فازداد تقوقعها على نفسها وانعزالها منخرطة فيما كانت قد اضطلعت به من ممارسات دينية صرفة مقابلة لتلك، ملأت أيامها أو كادت.

وفي سكون العزلة وتحت كنف الظلام المحيط، جلست "إيلين" عند حافة سريرها تقرأ في صمت في الكتاب المقدس، ذات أمسية. لم تكن جائعة لذا فلم تترك سريرها منذ قبعت به نحو الثالثة بعد الظهر وحتى تلك اللحظة التي رفعت فيها

رأسها للأمام ناحية صورة السيدة العذراء المعلقة فوق الحائط المقابل، فتبدت لها العذراء في الصورة تبتسم إليها. إنتفضت في مكانها، ثم بسرعة طرحت عنها الغطاء وهبت من فوق السرير واقفة تنتوي أن تقترب من الصورة أكثر لتتبين حقيقة ما تراه، وبينما هي واقفة وقد سمرت عينيها فوق الصورة، في حين تعبث قدماها باحثتان عن الشبشب أسفل السرير، إذا بنور يشع فجأة من وجه العذراء ويعبر الغرفة حتى يصل إلى موضعها فيحيط بها كلها، بينما رائحة ورود وأزهار لم تشتم لها مثيلا من قبل، تحيط بها. لم تستطع أن تقدر الوقت الذي استغرقه كل ذلك وإن بدا لها إنه امتد لأكثر من عشرة دقائق إختفت من بعدها الرائحة وبهت النور.

وتوالت تلك الظهورات السماوية في غرفتها من بعدها مرارا، ولم تعد تشعر بالرهبة والخوف الذي شعرت به أولا. ولكنها لم تفض عن حدوثها لمخلوق، ولا حتى لأبنائها خوفا من أن يشككوا في سلامة عقلها، ثم يرغموها على الإنتقال للمعيشة خوفا عليها في بيت واحد منهما. ولكنها واصلت الصلاة وقراءة الكتب الدينية وأشعار داود طوال الوقت، واستمتعت بتلك الإطلالات من العالم الآخر تطوف بحياتها وتؤنس وحدتها، فصارت تترقب حدوثها بشغف، فتكتفي بأن

تتأملها في أول الأمر وتتلذذ بذلك الضيّ البهيّ وتلك الرائحة السماوية، ثم بعد أن اعتادتها أكثر بدأت تتفاعل معها، فتخاطبها، وكأنها في حالة صلاة، تسألها فتسمع إجاباتها كلمات ترن في داخلها، في أعماق روحها وقلبها، وكأنها خواطر ولكنها كلمات واضحة المعالم تسمعها نفسها وتعيها تماما، وكأنها حديث شخص حقيقي ملموس يقف قبالها ويتكلم معها.

قالت لسليمان يومًا أنه ينبغي له أن يتزوج، فتساءل هو عن الحكمة من وراء التعجل، في حين أنه كان مستمتعا بحياته، وكان وقتها ما يزال يحلم بالزواج من "مريم دوس". ولكنه تقابل في نفس الأسبوع مع "أماني سعد" وتزوجها في عجلة تعجب لها الجميع وحتى هي أيضًا، ولكنها شعرت بأنه كان أمرا محسوما من "فوق". وحلمت في مرة أخرى أن "منى" ستأتي لها بأول حفيد، وإذا بها تتصل بها في مساء ذلك اليوم لتبلغها أنها حامل. وفي مرة ثالثة بعدها بمدة طويلة حلمت بالعذراء مريم تبكي، وفي غضون أيام قلائل أعلن الرئيس السادات عن عزله للبابا شنودة الثالث عن كرس–يه وتحديد إقامته بالدير، الأمر الذي أحزنها إلى حد أنها لم تستطع أن تغفر له فعلته أبدًا وإلى يوم مماته. وأمضت كل أيامها الباقية

مكرسة تمامًا للصلاة والتعبد ولتلك اللقاءات النورانية التي ملأت أيامها ولياليها.

لم تكن حتى تخرج من شقتها ولا حتى للتسوق، إذ تكفل بذلك "عم حمدي" البواب، وكان "الأسطى وليام" قد حرص على أن يبتاع اللحوم والدواجن لها كل فترة، ويجيء بها إلى ش–قتها بمحرم بك، في مقابل مبلغ زهيد كان يدَّعي إنه ثمنها، بينما يدفع هو الفارق من جيبه عرفانا منه لجميل "داود عبد الملك" وفضله عليه. وكانت زوجته "نرجس" تأتي لزيارتها مرة بالشهر، وتنتهز الفرصة لتنظف لها الشقة فتفتح الشبابيك وتغسل الملابس وتطبخ لها عددا من الأطباق، تحفظها لها بالثلاجة التي كان سليمان قد ابتاعها إياها كهدية لها بأحد الأعياد.

وهكذا عاشت "إيلين" بمعزل عن المجتمع الخارجي، متقوقعة على نفسها في عالمها الخاص جدًّا الذي رسمته لها الأيام بين جدران شقتها العتيقة الساكنة الهادئة، المطلة على أحد الشوارع الجانبية في قلب حي "محرم بك" الذي لا يهدأ نهارا أو ليلا، قانعة بترقب ممارساتها "فوق الطبيعية" التي تغنيها غالبًا عن مجابهة تلك التغييرات "الطبيعية" المحيطة بحياتها.

الفصل الثاني والعشرون

نـهض سليمان من سجدته وقد ترقرقت بالدمع عيناه من فرط حرارة صلاتـه. ثم مد ساعده أمام وجـهه ومسح بقماش قميصه فوق عينيه، مزيحا عن خياله بقايا الأفكار التي كانت تعتريه. ثم استدار بجزعه إستدارة بطيئة، متأنية، لي-بصر زوجته "أمانـي" وقد دلفت بـهدوء إلى الغرفة أثناء صلاته. وقفت خلفه ترتب الملابس النظيفة التـي جمعتها من فوق الحبال الممدودة أمام سور البلكونـة إلى غرفة النوم وكومتـها عند أسفل السرير. كانت واقفة في قميص النوم الوردي الكالح، تنظر نحوه وقد اعتلت شفتيها تلك الابتسامة الغامضة، التي كانت تحملها فوق وجهها على الدوام، حتى أنـها قد أضحت جزءًا لا يتجزأ من ملامحها. لفت الغرفة سكينـة وهدوء، وقد تقي-ل أغلب سكان الحى من جيرانـهم، فيما عدا أصوات واهية قادمة من حجرة المعيشة التي تتوسط الشقة

حيث الأولاد يتابعون برامج التليفزيون. ابتسم سليمان لأماني زوجته ابتسامة فارغة مماثلة لبسمتها، وإن لم ي-بادلها النظرات بل ثبت عينيه نحو المرآة المعلقة على الحائط خلفها، متفحصا وجهه وهندامه البسيط فوق جسده الذي ما يزال ممشوقا، ثم لم يلبث أن قارن رشاقته بمؤخرة أماني زوجته، المنعكسة أمامه في المرآة وتألم من ترهلها، وتحسس بسبابته وإبهامه اليمنى الخاتم الفضي الذي كان يحيط بأصبعه الأوسط بجوار خاتم الزواج الذهبي في يسراه، وخطا بجانبها صامتا متجها نحو باب الغرفة وخرج فتبعته قطتة السمينة ذات الفروة الناعمة الصفراء.

ما أحلى الصلاة الخاشعة الصامتة التي اعتاد أن يختتمها بالسجدات المتتالية التي تعلمها في صباه من أمه، والتي أخذتها بدورها من الأم إيريني خلال نشأتها في ملجأ العذراء، حبا في الله والتماسا لعفوه ورضاه. ما أعذب حنان الله ورحمته وغفرانه المتناهي. ما أجملك يارب الأرباب!. بتلك الخواطر امتلأ رأسه الكبير الذي احتفظ بوسامته التي ورثها - مع السجدات - عن أمه، ببشرته البيضاء المكللة بشعر أسود فاحم السواد، أطلقه على سجيته طويلا مسترسلا - بحسب موضة هذه الأيام - فإزداد به نحول وجهه المنمنم القسمات،

المعتلي بإمارات حسن لم تنل منها السنين، وهو يقطع الردهة المؤدية إلى حجرته المفضلة، حجرة الضيوف - صومعته - وتلفت يمينا ونظر أبنائه الثلاثة وقد تبعثروا راقدين حول أرضية غرفة المعيشة، ولما كان قد استغرقهم برنامج التليفزيون تماما، لم يعره أيهم التفاتة. وبالصعوبة المعتادة دلف إلى غرفة الصالون تتبعه قطته القرطاء، حيث أعاقت فتحة الباب قطع الأثاث الضخمة المتلاصقة في شكل مربع يلتف حول كل سنتيمتر بمحيط الغرفة، اللهم إلا من المكتب الضئيل الذي إحتل ركنا صغيرًا بجوار النافذة الوحيدة المغطاة دائمًا بستائر مسدلة، كانت يومًا ما بيضاء هفهافة. وسحب سيجارة من جيب قميصه ثم أغلق الباب خلفه وجلس على الكرسي الخشبي خلف المكتب، المفروش بالوسادة الصفراء القديمة تبَطِّن سطح مقعده، عند الجانب الأيسر من الغرفة التي اعتاد أن يركن إليه في مثل ذلك الوقت من كل يوم. أشعل سيجارته وكان لم يزل يحمل فوق شفتيه تلك البسمة التي اتخذها منذ لمح أماني في غرفة النوم، وإن كانت أفكاره قد ساقته الآن بعيدًا عن أماني، بل وعن تأملاته عن رحمة الله وغفرانه، وما أن أغلق باب الغرفة من ورائه، حتى وجد

ذهنه منغمسا من جديد يعيد تفاصيل آخر لقاء بينه وبين مدام "بنهار".

وعلى الرغم من خروج سليمان من الغرفة، فإن أماني كانت لا تزال تحتفظ بابتسامتها متفكرة في كم تحب زوجها سليمان. جميلة، كانت يومًا، وإن كانت بقايا الحسن لم تزل عالقة بقدها بالرغم من زحف السنين، واعتصارها رحيق الشباب النضر من بين عروقها. ولم تزل تطوي الملابس وتكوِّمها فوق بعضها في تلال صغيرة حول ملاءة السرير، بحسب النظام الذي ستحملها بمقتضاه إلى الأرفف الخاصة بكل أفراد الأسرة الخمسة. كانت في حركاتها بطيئة مثابرة، وإن كانت دقيقة جدًّا في طيها لكل قطعة على حدة بإتقان المحترفين، كما كانت عادتها في التعامل مع كل شئون منزلها التي تعهدت بكل صغيرة وكبيرة فيه منذ زواجهما وعلى مدار السنوات الخمس الماضية. ولا تزال تذكر دقائق أول لقاء بينهما وكأنه بالأمس.

كانت كعادتها تزور صديقتها "مني" في منزلها بالقاهرة في حي "دار السلام" الشعبي المكتظ بأهله على الدوام، وكان يوم جمعة في أواخر شتاء عام 1974، كان يومًا جميلا لم يزل دفء شمسه يلامس جسدها حتى الآن، وهي تسير

بحرص فوق نتوءات الطريق الممتد بحذاء شريط مترو حلوان وقد تكومت مياه المطر الذي تساقط متقطعًا في اليوم السابق، صانعًا ب–رَكًا صغيرة تتخللها جزر يابسة، طبيعية في معظمها تبعًا لطبيعة الأرض غير الممهدة من تحتها، وإن صنعتها أيادي أولاد الحلال أحيانًا بقطعة من الطوب، أو بلوح من الخشب هنا أو هناك، تقرب من تلك الجزر لو تباعدت، فتتصل خطوات المارة ولا تغوص الأقدام في وحل البرك القادمة من السماء. وكانت أماني تخطو فوق تلك المحطات على أطراف حذائها الوحيد، بسرعة ومهارة راقصات الباليه، لطول ما اعتادت الخوض في طرقات القاهرة الشتوية، بطول أعوامها الستة والعشرين التي ثقل كاهلها فوق أكتافها منتظرة قدوم عريسها المرتقب، ولشوقها لزيارة صديقتها في بيت زوجيَّتِها الجديد، خاصةً أنها لمّحت إليها باحتمال قدوم أخيها سليمان (الأعزب) من الإسكندرية لزيارتها في اليوم نفسه ليقضي معها يوم العطلة. لم تنجح تلك الرائحة العطنة التي عبقت بطول الطريق في أن تنتزع تلك البسمة من فوق شفتيها. وامتلأ الطريق بضجيج مستعر لا يخفت، كطنين عش دبابير، وإن ارتفعت حدته بدويٍّ كالانفجار عند مرور قطار حلوان شمالا أو جنوبا كل بضع دقائق سابقا قدومه بسارينة تعوي تملأ الطريق

منذرة بقدوم الثعبان الحديدي وعبوره المخيف بجنبات الحي مرجرجًا بيوته المتحاملة الواحدة على الأخرى، والمطلة بحزن على رقاقة الحال وسكونه كشواهد قبور في جبانة مكتظة بالأموات. وبالرغم من ابتسامة أماني المرسومة دومًا فوق شفتيها؛ فإنها في صميم قلبها كانت تكره تلك الحياة الفقيرة المحتاجة بكل جوانحها.

تم التعارف بينهما في نفس اليوم، وفي غضون أسابيع قليلة كان سليمان يقف في صحن الكنيسة ويوقِّع عقد الزواج، وهي جالسة بجانبه مستكينة بداخل فستانها الأبيض، مبتسمة، وممنية نفسها بحياة رغدة كانت تنتظرها.

سحب نَفَسًا من السيجارة وكتمه في صدره يبخل بأن يطلقه خارجًا، أو لعله نسي أن يخلِّيَ سبيله، في حين كان يتفكر في تفاصيل لقائه الأخير بمدام "بنهار". تسحره اليوم بمفاتنها كما سحرته عند أول لقاء له بها منذ أربعة أعوام تقريبًا، وبالتحديد في السادس من أبريل عام 1976 في ڤ-ي-لا زوجها بالعجمي، بعد أن كان قد تعرف به في منزل "الحاج مراد العويقي" قبلها بنحو أسبوع، فهل يمكن أن ينسى هذا التاريخ، ولو عاش مائة عام!.

كان قد ذهب كالمعتاد ليمضي بعض الوقت بصحبة التاجر المعروف الذي في خضم ذلك الغنى الفاحش الذي كان قد هبط عليه من السماء من حيث لا يدري، أظهرت له الدنيا وجهًا غير الوجه، وامتلأت خزائنه من جراء "قرارات الانفتاح" فابتاع المرسيدس (التمساحة)، وأتم بناء وتشطي-ب تلك العمارة الشاهقة بحي "سان استفانو" الراقي، حيث يقيم الآن بالطابقين العلويين اللذين احتفظ بهما لنفسه ولأسرته. فقد ركب موجة الانفتاح الذي عادت خيراته على تجارته بالملايين، فتحول في غضون سنوات قليلة من تاجر مانيفاتورة صغير ب-"زنقة الستات" إلى ما هو عليه اليوم، فأصبح من أكبر تجار القماش بالإسكندرية، يمتلك محلا أنيقا بشارع "سعد زغلول"، وآخر بشارع "فؤاد"، أو "طريق الحرية" كما يدعونه اليوم، فيما عدا المخازن المتفرقة، وتجارة الجملة التي كانت تدر عليه أرباحًا لا بأس بها.

كان الحاج مراد قد اعتاد أن يدعو إلى بيته تقريبًا عند كل مساء شلة الأنس من أصدقائه ومريديه ما بين تاجر بالماكس، ومحاسب قانوني، وطبيب أسنان مشهور، والأستاذ سليمان داود مدرس الفلسفة ورئيس جماعة الفكر الحر التي ينتمي إليها معظم الموجودين، يجتمعون حول مناقشات ساخرة

وقفشات وأحاديث في السياسة، وحوارات ثقافية يبتغي الحاج مراد أن تكتمل من خلالها الصورة، من جاه وعز من ناحية، إلى فكر وشكل حضاري يليق به كعضو بارز من أعضاء المجتمع الجديد من ناحية أخرى. وتكتمل السهرة بسجائر ملفوفة بأفخر أنواع الحشيش وزجاجة ويسكي معتق يجلبها أحد الأصدقاء من العاملين بمصلحة الجمارك، والذي قابله سليمان في تلك الليلة لأول مرة وتعرف بأنه "لطفي حسنين" متعهد الويسكي النظيف في سهرة الحاج مراد العويقي والذي جاء الليلة ليشاركهم السهرة لأول مرة. وبالرغم من إصراره على أن يدعوه الجميع بالحاج فإنه كان لا يتوانى عن مباراتهم بل والتفوق عليهم في معاقرة الويسكي. انبهر سليمان بشخصية لطفي حسنين المرحة، وأمارات النجاح الطالّة من كل كيانه. الشعر الكالح السواد، والنظارة الذهبية، والشارب المنمق، والضحكة الواثقة المجلجلة، والسترة الزرقاء اللامعة، والكرافـ-ـات الحريري القاني الحُمرة، ثم يداه اللتان لا تكفان عن الحركة لأعلى ولأسفل، ولليمين تارة ثم اليسار، وأصابعهما الغلاظ المحليات بخواتم ذهبية -ثلاثة على أقل تقدير- تنثني وتنفرد تباعًا مع حركات يديه المحسوبة والمتناغمة مع كلماته وضحكاته، وكأنها أصابع ساحر محترف يحوم بها مختالا فوق

رءوس الجميع قبل أن يقول "جلا جلا" الشهيرة فتنقلب الوردة إلى حمامة تحلق من فوقهم. سحر جميع الموجودين بنوادره وحكاياته وضحكاته المتتالية فتأكد سليمان ليلتها من أنه نصاب محترف.

فاجأه لطفي ليلتها بعد فترة وجيزة من تعارفهما بسؤاله عما لو كان قرأ آخر كتاب للدكتور "رشاد فكري" فاندهش من كونه كان قد سمع أساسًا بالدكتور رشاد، ولكنه أجابه بأن الدكتور رشاد صديق مقرب إليه، وهو محاضر مستديم بجماعة الفكر الحر التي ينتمي إليها. لم يشأ أن يقول له الجماعة التي يرأسها، ليس من باب التواضع، بل من واجب الحيطة من ناحيته، لشكه المزمن في جميع الناس، حتى بعد أن يثبت العكس، ذلك الشك الموسوس الذي كان ربما قد ورثه عن أمه، ولطريقة الرجل المريبة التي اقتحم بها موضوع "الدكتور رشاد فكري" بدون سبب واضح، والرجل معروف بمناهضته للسلطة واتجاهها الرأسمالي الغربي الجديد، ولرجال الإعلام المرموقين الذين لم يتوانَ عن مهاجمة تملقهم المفضوح لرجال الحكومة ورموزها، وبانتقاده اللاذع للقيادات الدينية وللجماعات الإسلامية التي ملأت الدنيا في هذه الأيام بأفكارها التكفيرية للمجتمع كله، وبالذات للدكتور رشاد فكري ومؤلفاته

الناقدة لنزعتهم الأصولية، وأمثاله من الاشتراكيين القدامى، مخلفات عهد عبد الناصر عدوهم اللدود.

فالخطر إذن كان يُحيط بالموضوع من كل الجهات، وإن كان لتأثير الويسكي الفاخر وسيجارة عالية المستوى كان قد أنهاها لتوه، مفعولٌ أكيدٌ في رخرخة أعصابه إلى درجة معقولة أكمل معها مناقشته مع ذلك الرجل المريب بدون الوقوع في المحظور. استكمالا للتعارف، وإمعانًا في مجاراته في التلاطف انتحى به جانبًا، وسأله:

- "انت منين أصلا يا لطفي بك؟"

- "من محرم بك. وانت؟"

- "من محرم بك برضه"

ثم تُبودلت أسماء الأصدقاء والجيران والمعارف والمدارس، حتى أدرك سليمان أنه لم يكن سوى لطفي ابن الشيخ حسنين البصري صديق والده، وحتى أدرك لطفي أنه سليمان ابن الخواجة داود عبد الملك الذي يعرف الجميع عن قصة ضلوعه في الأحداث التي أدت إلى مقتل أبيه بالمعتقل، واستغربا معًا تلك الصدفة التي جمعت بينهما في هذه الليلة.

استكمالا للغرابة، وقف الرجل في وسط القاعة عند نهاية السهرة وقد انتشى الحاضرون ووصلوا إلى ذروة السطل، وأعلن "لطفي حسنين" بفرحة صبيانية وبكلام مضموغ بفعل السكر وتأثير الخدر، عن دعوته لكل الموجودين بأن يشرفوه بحضورهم لقضاء ليلة شم النسيم في ڤيلته المتواضعة بشاطئ "العجمي" ليسهروا حتى الفجر مع غناء العندليب عبد الحليم حافظ، والذي ربما يفاجئهم بحضوره شخصيًّا بعد انتهاء حفله بالقاهرة، حيث وعده المطرب المشهور شخصيًّا بذلك منذ شهر تقريبًا حين كان قد جاء للاستجمام بال-ڤ-ي-لا المجاورة له. ثم مضى بخطوات مترنحة ومال على أذن سليمان وطلب منه أن يدعو الدكتور رشاد فكري، حتى يتسنى له أن يتعرف شخصيًّا بذلك الرجل الفذ الذي يكنُّ له كل احترام.

* * *

ارتفعت أس-همه عالية في سماء العمل السياسي كممثل للجماعة، وفوجئ بالدعوات تنهال عليه للحديث في الجمعيات والمؤتمرات، واجتماعات مختلف النقابات والاتحادات العمالية. ثم بدأت صِلاته برجال أعمال من كل مكان تتبدى هنا وهناك، واستجاب الكثيرون لدعوته إياهم بالمساهمة في تمويل الحركة، فتحول رأسمالها إلى ثروة صغيرة اضطر أن

يكلف لجنة من ثلاثة رجال متخصصين في الاقتصاد والتجارة، من بينهم أستاذ جامعي، ليقوموا بإدارة شئونها. تضخم حجم مريديه وأتباعه بصورة خيالية، خصوصًا لما بدأ العائدون من البلدان العربية يبذخون عليهم بزكاتهم الموجهة لرفعة شأن دينهم الحنيف، فينصلح حال البلد أسوة بالبلاد العربية التي كانوا قد عادوا منها بعد أن نزحوا إليها في طلب الرزق.

فاتحه "ديدو" ذات يوم بموضوع غريب. قال له إنه ينبغي له أن يتزوج من جديد، وإنه يبتغي أن يزوجه من شقيقته الصغرى "مروة"، إذ كان قد تفكر فيما كان لا بد من أنه يُعاني منه بعد أن أمضى كل تلك السنوات بالسجن، ليجد ال-"حاجة زينب" بعد خروجه وقد شاخت وزهدت في أمور العلاقات الزوجية. وبالرغم من عمله الدءوب وانشغاله غير المنقطع في رعاية شئون الجماعة، فإن لبدنه عليه حقًّا، وأنه -أي ديدو- قد لاحظ نظراته المتطلعة، التي كان سرعان ما يخفيها تأدبًا عند لقائه بالشابات المنضمات للحركة. ثم قال له ديدو بانفعال حقيقي إنه تفكر فيمن كانت تستحق أن تنال مثل ذلك الشرف، وفي نفس الوقت تكون سرًّا له وحافظة لخصوصياته، فلم يجد أفضل ولا أغلى من أخته ليهديها إليه، وأنهى كلماته تلك بابتسامة واثقة علت وجهه، فلقد كان يعلم

تمامًا ومتأكدًا من وقع كلماته على الشيخ. ومن ناحيته نظر الشيخ محمد البوري إليه بعطف، وربت بحب فوق كتفه قائلا له: "دعني أتفكر في الأمر".

في إحدى خطب الجمعة وكان جالسًا بجوار الخطيب الثائر يستمع إليه وهو يشحذ همم المسلمين لأن يهبوا دفاعًا عن دينهم الحنيف ضد الكفرة والملاحدة والمنحلين، مناديًا بردتهم جميعًا عن سبيل الجهاد الإسلامي، وفوجئ "محمد البوري" بالشيخ "عبد الرحمن الدمنهوري" الذي كان يتبع جماعة تدعو لتكفير المجتمع برمته يستبيح دماءهم هكذا على الملأ وسط همهمة المصلين، بل ونفخ في النار أكثر ليشتد سعيرها، فاشتعلت أخيرًا في انفجارة مدوية حين قام بإدراج اسم "الدكتور رشاد فكري" صاحب كتاب "ما بين التنوير والتكفير" على رأس قائمة أعداء الإسلام المستحلة دماؤهم، فتعالت الهتافات: "الله أكبر. الله أكبر" هنا وهناك.

الفصل الثالث والعشرون

كانت "أماني" لا تزال منشغلة باللا شيء الذي اعتادت على أن تنشغل به منذ عودتهم من زيارة أمه "إيلين" بمحرم بك ليهنئوها بعيد القيامة كما كانت عادتهم في كل عيد للقيامة. كانا قد انتقلا للسكنى بحي "كليوباترة الحمامات" بعد

أن أمضيا شهورًا قليلة يشاركان إيلين شقتها بمحرم بك، ولكنها لم تسترح للحياة مع حماتها، وكانت خلافات صغيرة قد بدأت تدب بين المرأتين، حين قرر سليمان أن ينتقلا للمعيشة بعيدًا حتى يحفظ العلاقة الودية التي كانت ما تزال تجمع بينهما، وكان المرتب الذي يحصل عليه في أول كل شهر يكفي للحياة المستقلة، بعد أن دله "يوسف" على شقة بإيجار مغرٍ، بل ولأقساط سيارة نصر 128 حمراء تحمله للمدرسة في صباح كل يوم، وتجمع الأسرة كل يوم جمعة لزيارة أمه أو لقضاء يوم العطلة بإحدى الحدائق أو المتنزهات. عند عودتهم من بيت أمه، دعاها للذهاب معه لقضاء ليلة شم النسيم بالعجمي، ولكنها اعتذرت بحجة الإجهاد، مفضلة أن تنام مبكرة بعد ذلك اليوم الحافل عن أن تتقابل مع أغراب من طبقة الأثرياء، يُشعِرُونها بضآلة موقعها في المجتمع فتتذكر معهم أيام الفقر الحقيقية التي باتت تبذل كل ما في وسعها لتتناساها. هكذا انحصرت أيامها في ملاحقة سراب من السعادة لم تتضح معالمه أمامها أبدًا، فكانت تظن أن انتقالها من السكنى بعمارات الإسكان الشعبي إلى الأحياء الراقية نسبيًّا، أو العناية ببيتها وبأولادها إلى حد المبالغة، أو امتداح سليمان زوجها بمناسبة وبدون مناسبة؛ سيضفي على حياتها

ولو بادرة ابتهاج، ولكن هيهات أن تجد ثمار السعادة من حولها لو افتقدت بذورها بداخلها أولا. أما هو فوثب تحت مياه الدُش المنعشة، استعاد بها طاقته، ووضع قميصًا أزرق سماويًّا وسروالا أبيض، وملأ كفه بالعطر ومسحه بكفه المقابل أولا ثم فوق وجهه وقميصه عند الرقبة وأعلى الصدر، وصفف شعره باعتناء شديد وكأنه ذاهب لموعد غرامي.

لم يتمكن أبدًا من التغلب على ولعه بالنساء، وبطول الأيام، بالرغم من شتى المحاولات، والقرارات الباترة هنا وهناك التي باءت دومًا بالفشل، حتى إنه قد عزاه إلى مفعول الخاتم المسحور الذي لا إرادة له في ما يجري لحياته بسببه. وبالرغم من التدين الذي كان ظاهره قويًّا راسخًا فإن مجرد رؤيته لامرأة جذابة، حتى ولو كانت بصحن الكنيسة، يجعله يبدأ على الفور في ممارسة لعبته المفضلة، ويتحول إلى صياد محترف يسعى لنصب فخاخه للإيقاع بفريسته. وبعد أن ينتهي من لعبه، كان دائمًا ما يسقط بدوره فريسةً لنوبة شديدة من عذابات الضمير، فيقع على وجهه راكعًا، مصليًا أن يشمله الخالق الأوحد بالتوبة والغفران، ولا يهبُّ من سجدته إلا بعد أن يشمله ذلك الشعور المتناهي بالسلام والاطمئنان، فيعرف أن طِلْبَتَه قد باتت مستجابة. وهكذا حتى تمر أمام عينيه الفريسة التالية

فيؤسر مجددًا بذات السلوك عنوة، وكأن لا حول له أو قوة، فيسقط من جديد، ثم يقوم. وهكذا صارت حياته خليطا متلاحقا لا يمتزج من السقوط والقيام، من العبث والجدية، من العربدة والنسك، لم يفهم المحيطون به، من الدائرة القريبة التي كان قد سمح لها بالاقتراب من تفصيلات حياته، كيف يُقيِّمونه أو يتعاملون معه؛ كناسك متصوف يجول بصحراء الحياة ملتمسًا الذات الإلهية فيلتحم بها، أم كذئب يطوف بنفس الصحراء باحثًا عن أول فريسة تقع عليها عيناه المدربة فينهش لحمها. أما هو فكان دائمًا ما يردُّ على تساؤلاتهم بابتسامة منكسرة، أو يهز كتفيه مستكينا أحيانًا ويقول "إن الكل باطل"!.

في طريقه إلى "العجمي" اتخذ طريق الكورنيش، يقود السيارة بسرعة عالية متخطيًا العربات من حوله بمهارة وحذق. يعشق قيادة السيارة بسرعة، خاصة في الربيع قبل أن تملأ الشوارع عربات المصطافين. كان هواء البحر يلفح وجهه عبر نافذة السيارة المفتوحة، وكان يغني بصوت مرتفع أغنية "مذنب" لچان فرانسوا ميكاييل، تلك التي حولها الرحبانية فيما بعد لرائعة فيروز "حبيتك بالصيف"، وكانت رائحة الربيع بأزهاره الوليدة المطلة بعناد من أسوار ال–ڤيلات القليلة المتبقية

بحذاء طريق الكورنيش قد ملأت الجو بعطر الحب. صرخ مغنيًا بالفرنسية:

مذنب أنا إذ علَّمتك الحب

وأشعلت في جسدك جذوة الشهوة

وأصبحت خيالا يقف بينك وبينه

مذنب أنا عندما نسيتك

ومضى بالسيارة بطول الكورنيش حتى عبر الماكس إلى الطريق الساحلي الممتد غربًا حتى مدينة السلوم عند حدود ليبيا. مد عنقه للأمام نحو زجاج العربة رافعًا عينيه نحو السماء، متأملا البدر الوليد، وجاءته لسعة الصقيع الصحراوي فأغلق زجاج السيارة متفكرًا فيما ستئول إليه الليلة في صحبة لطفي حسنين وأصدقائه الذين لن يتعجب مطلقًا لو وجدهم أغرب منه هو شخصيًّا.

* * *

لم يستطع أن ينبس بكلمة حين سمع استجابة الحاضرين المدوية عندما أهدر الشيخ "عبد الرحمن الدمنهوري" دم "الدكتور رشاد فكري" هكذا عند نهاية خطبته

العصماء. تحرج من موقفه لو فكر في الدفاع عنه لمّا قابلت الفكرة كل ذلك الاستحسان من تلك الحشود الغفيرة من الشباب الذين عمل هو شخصيًّا على جمعهم تحت لواء الإسلام ليتحقق حلمه الذي ضحى من أجله بأحلى سنين عمره، فتعود من جديد الدولة الإسلامية الرشيدة إلى أرض بلاده الحبيبة. وعلى كل حال: ماذا كان يمكنه أن يقول لهم؟ أيطلب العفو عن الدكتور رشاد لأنه شجعه أيام الاعتقال على الرسم!؟ أو لكونه يؤمن بالإنسان أكثر من الله عز وجل، يؤمن بالمخلوق دون الخالق!.

- لا. أعوذ بالله!

هو حتمًا يستحق ما يضمرون له، ولو كان لا يستحق -والله أعلم ببواطن الأمور- فسيصير شهيد الحركة الإسلامية التي بدأت عجلاتها في الدوران، ويكون مصيره الجنة من حيث لا يدري هو!.

تزوج بالفعل من "مروة" سرًّا، واكتشف طاقات كامنة لم يكن يحلم أن يُقَ-دَّر لشيخٍ مثله أن يحظى بها. جاءه "ديدو" بعد صلاة العشاء ذات ليلة ليحتسيا كوب شاي ويتحدثا. بات يأنس لصحبته، وصار صديقًا لأفكاره، ومشيرًا لقراراته. قال له إن "سليمان داود عبد الملك" يمتلك خاتمًا مسحورًا كان أبوه قد

أطلعه بنفسه على سره قبل أن يموت، وقد حاول هو شخصيًّا أن يحصل عليه منه -ولو عنوة- عندما لقيه ذات يوم سائرًا إلى غير هدى فتبعه حتى وصل إلى شاطئ البحر. ولكن حدث أن سقط العجوز مغشيًّا عليه يومها فاقترب منه وتفحص أصابعه وجيوبه، ولكنه لم يجد الخاتم، فتركه قابعًا فوق الرمال، ومضى مسرعًا وطلب رقم الإسعاف، ولكنه علم فيما بعد أنه مات، ولا بد أنه قد أورث الخاتم المسحور لابنه سليمان من بعده. بصعوبة تذكر البوري ملامح الخواجة داود هذا، والذي كان قد لقيه مرة أو اثنتين بصحبة الشيخ حسنين -رحمه الله- بينما قص عليه ديدو تلك الحكاية الغريبة. زعم أن الخاتم به قوة كامنة تدفع بصاحبه للسطوة والمجد، وتذكر هو كيف أن الخواجة داود كان قد ذهب إلى القاهرة، وفي يوم واحد كان قد استطاع أن يخرج الشيخ حسنين من المعتقل ويعود به للإسكندرية، وكيف أنه في مشوار مماثل للقاهرة أفلح في أن يطبق ذراع الموت حول عنق صديقه الشيخ فلم يتركه إلا وقد سقط صريعًا، جثة هامدة أمام عينيه. وتذكر كيف أنه قد صار بين ليلة وضحاها ثريًّا يمتلك مصنعًا وڤيللا وسيارة بلاكار بسواق. لا بد أن كلام "ديدو" صحيح إذن، وأن

تكون للخاتم ذاك تلك القوة المسحورة التي تدفع بصاحبها ليحلق بها إلى ما فوق السحاب. وقال له ديدو:

- "تخيل يا شيخ محمد لو عندنا الخاتم ده، شكل (الإخوان) ساعتها هايبقى إيه؟".

وما يزالان يحتسيان الشاي بينما غاب فكر "محمد البوري" سارحًا يرف فوق بحر من الخيال.

*** * ***

فضَّل أن يَصُفَّ السيارة بعيدًا، وأن يترجل نحو مدخل الڤيللا حتى لا تنحشر سيارته بين بقية السيارات فلا يستطيع أن يمضي بها لو أصابته الصحبة بالضجر وشاء أن يرحل مبكرًا. ألقى نظرة أخيرة على وجهه وصفف شعره بأصابعه في المرآة الخلفية أمامه، ثم خرج من السيارة. انبهر بنقاء الجو ورائحته المعطرة التي تنبعث من شجيرات الياسمين والفل المتفتحة بالحدائق المنمنمة المحيطة بالڤيللات المتناثرة، الممزوجة بهواء البحر الذي سمع أمواجه تتكسر في تتابع فوق الشاطئ القريب. أدرك من كمّ الأنوار المنبعثة هدفه المنشود، فدلف من البوابة الخارجية التي انتفض حارسها الشاب الأسمر واقفًا برأسه الحليق وقميصه وسرواله

البسيطين، وليس بالجلباب المعهود، محييًا إياه ومؤديًا التحية العسكرية.

مبنى حجري أنيق ذو تصميم حديث يتميز بالخطوط المستقيمة والزوايا الحادة، تُحيط به حديقة صغيرة مزروعة بأشجار التين وبضعة شجيرات الورد الأحمر. كان الباب الرئيسي المحاط بتعريشة من زهر الياسمين مفتوحًا فاستقبلته الضوضاء الآتية من الداخل، وفي المدخل المؤدي إلى البهو قبع تمثالٌ لڤينوس في صدر الأرضية الرخامية، تخطاه إلى حيث المدعوين، تجمعوا رجالا ونساء، اكتظت بهم الصالة الفس-يحة، والتف معظمهم حول مائدة مستطيلة حملت مختلف الأطباق المملوءة بأشهى الأطعمة. تصاعدت رائحة الشواء الممتزجة بعبق الويسكي ودخان السيجار وعطور النسوة هنا وهناك. عند الطرف المقابل كانت الواجهة الزجاجية مفتوحة لنسائم البحر الذي كان يبعد مسافة أمتار، وفي أقصى اليمين قبعت منضدة مرتفعة نسبيًّا اصطفت فوقها مختلف الزجاجات الملونة تحتوي على مختلف أصناف الخمور بألوانها المتباينة، ووقف خلفها رجل نحيل لامع الشعر بقميص أبيض وبابيون أحمر يعد المشروبات ويقدمها للمدعوين عند الطلب. ارتفعت الأصوات وتعالت الضحكاتُ هنا وهناك، ومكث سليمان

وحيدًا لدقائق كانت كافية ليمسح المكان بعينيه الفاحصتين، فأبصر اللوحة الزيتية المعلقة على الحائط لتلك الحورية الحسناء الراقدة باستسلام فوق رمال الشاطئ وقد برز نهداها العاريان يستفزان الناظرين، ولوحتين من النحاس المطروق متجانبتين لامرأتين تتحممان، والتماثيل العارية من البرونز والخشب والمرمر بمختلف الأحجام المتناثرة هنا وهناك، وجاءته بغتة ضحكة لطفي حسنين المجلجلة، فلم يستطع أن يُنحي عنه خاطرًا عصف به فجأة بأن لطفي هذا ليس رجلا بمعنى الكلمة، نعم بالرغم من كل مظاهر الفحولة التي يلف نفسه بها، لقد شعر بأنها مجرد ستار يُخفي من ورائه ضعفًا وعجزًا. لم تستطع كل تلك الدعايات المكشوفة أن تخفي تلك الريبة في رجولته عن عينيه، مثل إعلانات الأفلام الرخيصة، وكتب الجنس الملقاة فوق الأرصفة، تعدك أغلفتها بالكثير حتى تبتلع الطعم بس-ذاجة، تُفاجأ بعدها بمقدار ما كانت فارغة من كل وعودها. هكذا فشلت هذه المحاولات المسطحة في أن تمحو عن نظرة سليمان الفاحصة تلك الحقيقة التي شهدها الآن ببصيرته التي منحها إياه ذلك الخاتم المسحور، واندهش لمعرفته شِبْه اليقينية بأن لطفي حسنين مدعي الفحولة هذا، ليس في واقع الأمر سوى رجل يعاني من

الضعف الجنسي، ويحاول مستبسلا أن يتخفى وراء كل تلك الأكاذيب المفضوحة. رفع ظهر يسراه ونفخ برفق فوق الحجارة الأربع الحمراء التي كانت تعتلي فص الخاتم ثم مسحه بكم القميص. ابتسم بانتصار من جراء تلك الفكرة الخبيثة التي طرأت له بغتة هكذا، فانفرجت أساريره، واستراح ذهنه، ومضى يجول بين المدعوين محاولا أن يجد نديمه الليلة، وفجأة رآها.

حسناء لم تقع عيناه على جمال يقترب من حسنها، العينان العسليتان المحروسة برموش منسابة كاحلة السواد، والجفنان ناعسان مستلقيان فوقهما في هدوء، وإن غلب عليهما مسحة من الحزن لم يخطئها بخبراته النسائية العريقة، والبشرة الصافية المشوبة بحمرة خفيفة وكأنها لسعة شمس. لمحها هناك على الجانب المقابل من البهو وشعر بأنها هي أيضًا ترمقه عبر الغرفة بين جموع الحاضرين بنظرات متسائلة. أفاق من استغراقه في إعداد الخطة لاقتحام ذلك التحدي الجديد، حين ربتت على كتفه يد مضيفه القادم من خلفه قائلا:

- "أهلا أهلا بصديق الطفولة!

استدار نحوه مداريًا ابتسامة ساخرة كادت أن تطفو على السطح وتشي بأفكاره، خاصة لمّا وجده محتضنًا خصري جميلتين كانتا تصطحباه، وأجاب:

- "أهلا بيك يا لطفي باشا.. إيه الجمال والروعة دي كلها يا راجل!" وضغط بقوة على مخرج اللفظ الأخير وكأنه يترقب ردة فعله تجاهه. قهقه الأخير متفاخرًا بتصنع، ثم سأله:

- "أمّال فين المدام؟ مش كنت تجيبها وياك علشان نتعرف عليها؟" وقهقه ثانية وهو يدير وجهه متلفتا بإعجاب –بذاته– للمرأتين وكأنه جاء بآخر نكتة!

- "معلش ماقدرتش تيجي معايا الليلة علشان تعب العيد والسهر ليلة امبارح في الكنيسة حل عليها، وعلى العموم الأيام جاية كتير".

- "آه طبعا طبعا الأيام جاية طبعا!" وقهقه مجددا. بدا له أنه لا بد من أن يكون قد بدأ الشرب مبكرًا. وفعلا، وكأنه قرأ أفكاره أضاف لطفي:

- "إيه يا راجل؟ إنت عاوز عزومة ولا إيه؟ البيت بيتك، يللا هات لك حاجة تشربها وتعال علشان أعرفك بالمدام بتاعتي".

وفعلا مضى به ناحية البار، وأمر الرجل ذا البابيون الأحمر أن يعد له كأسًا من الويسكي، ثم التفت نحوه وما يزال يحتضن المرأتين اللتين بدتا وكأنهما كمالتان لملابسه، أو داعٍ من دواعي الأناقة، وتساءل:

- "ثلج؟"

أومأ إليه وهو يتأمل المرأتين إلى جانبيه وقد استسلمتا تمامًا لدورهما وكأنهما تدركان -كما يدرك هو- أن صاحبهما أليف، منزوع الأظافر ولا خطر منه. ناوله الكأس واتخذ لنفسه كأسًا رفعه أمامه وصاح فجأة:

- "في صحة الشم! شم النسيم!" وضحك مقهقهًا كعادته، فضحك سليمان مجاملا له، والمرأتان انطلقتا بضحكات خليعة ملأت الصالة، فالتفت المدعوون مستكشفين مصدر الضحكات. وبحركة مسرحية أطلق خصري المرأتين دافعًا إياهما بعيدًا عن ذراعيه قائلا:

- "يللا يا حلوين روحوا شموا بعيد عني. ها ها ها" والتفت ناحية سليمان ولف ذراعه فوق كتفه، ثم مضى به عبر القاعة إلى الناحية البحرية، حيث الحسناء صاحبة العينين

الناعستين ما تزال ترمقه، وملأت أنفه رائحة الخمر المنبعثة من فمه حين سأله:

- "أمال الدكتور رشاد فكري جاي إمتى؟" فتذكر سليمان أنه كان من المفروض أن يدعو الدكتور رشاد، ولكنه نسيَ، أو بالأحرى تناسى، فلم يجد مناسبًا على الإطلاق أن يدعو المفكر المرموق لقضاء سهرة في بيت رجل غريب حتى ولو كانت معرفتهما قد بدأت من ثلاثين سنة، فهو حتى هذه اللحظة لم يزل في طور تكوين فكرة مبدئية عن الرجل. ولكنه أجاب قائلا:

- "تلاقيه نزل مصر، ولا راح عند حد من معارفه يقضي شم النسيم في عزبة ولا حاجة، أصلي ما عرفتش أعتر فيه خالص". ما يزال يتقدم معه بخطوات بطيئة بسبب ازدحام الصالة بالمدعوين الذين كانوا يرمقونه بعيون فاحصة حين شقَّا طريقهما مارين في وسطهم، يخترقان أجسادهم وقد وضع لطفي باشا (المضيف) ذراعه حول كتفه، وتفكر سليمان مذعورًا فيما لو كان قد أصاب الهدف أو أخطأه عند تحليله لميول لطفي حسنين الجنسية، فاحمر وجهه خجلا من نظرات الحاضرين إليهما، وتساءل عن مغزى تلك الابتسامات.

وما يزالان يقتربان حتى وجد نفسه يقف وجهًا لوجه أمام الحسناء ذات العيون الناعسة!

- "أقدم لك مراتي (بنهار)"، قال بنبرة ملؤها الافتخار.

- "بن. مين؟" أسقط في يده. إذن فالحسناء زوجته!. حاول أن يغلف ارتباكه بتصنع المرح.

- "بنهار. بنهار يا أخي. مراتي! ده اسم تركي".

- "آه! تركي!. أهلا وسهلا يا مدام بنهار، معلهش أصلي. أصل حضرتك أول بنهار أقابلها في حياتي!" فضحكت. ومن ثم تشجع هو، وأضاف:

- "أنا سليمان داود عبد الملك، مدرس فلسفة!".

- "فلسفة مرة واحدة!"

- "مرة واحدة!" وتأمل جمالها غير مصدق أنه يتحدث مع صاحبة تلك العيون الأخاذة.

- "طيب إيه رأي الفيلسوف بقى في اللي يعدي البحر وما يتبلش؟" وضحكت ضحكة مجلجلة، ثم رمقت زوجها بنظرة خليعة، واستأذنت منصرفة عنهما. تفكر سليمان فيما كانت المرأة تقصده بسؤالها، وراحت عيناه تتابع شعرها الكستنائي

وهو يتمايل فوق ظهرها العاري في حين كانت قد تركتهما متجهة ناحية الشرفة المطلة على شاطئ البحر. يا للجمال! ولكن موضوع تعدية البحر من دون البلل هذه، أتكون قد قصدت؟. قطع لطفي استرسال أفكاره بقوله:

- "المدام أصلا من القاهرة أبوها من البكوات بتوع زمان وجِدها خورشيد باشا من أعيان الأقصر، وأمها يا سيدي تركية! آه والله تركية، وما بتتكلمش ولا كلمة عربي!".

- "ما شاء الله! حاجة جميلة جدًّا! إنما تفتكر إيه حكاية تعدية البحر من غير ما تتبل دي؟" تساءل سليمان متخابث-ا. وفعلا تلعثم لطفي مُنكرًا أنه يفهم نصف ما تقوله "بنهار" عادة! ثم أضاف ضاحكا:

- "مش الحال من بعضه برضك؟ يعني إنت بتفهم نص كلام مراتك؟"

- "لأ طبعًا. وعموما أنا مراتي ما بتتكلمش خالص! بتبتسم وبس!" وضحكا هذه المرة معًا لأول مرة.

جاءهما أحد المدعوين مقتحمًا:

- "إيه يا جماعة ما تضحكونا معاكم!" رجل في منتصف العمر، منتصف الذكاء، منتصف الأناقة، وثلاثة أضعاف الوزن الطبيعي!

- "أقدم لك الأستاذ حمدي مراد صاحب مزارع الدواجن المشهور" قال لطفي مقدمًا صديقه الممتلئ.

- "تشرفنا! وأنا سليمان داود بتاع البيضة هي الأصل ولا الفرخة؟" تضاحك سليمان.

- "سليمان باشا عنده مزارع تفريخ؟"

- "لأ. سليمان (أفندي) ما عندوش إلا الفلسفة".

- "فلسفة؟ يعني هاتتفلسف علينا الليلة دي على كده!" وانفجر الرجلان ضاحكين، وجاراهما سليمان مجاملة. قطع حديثهم صوت من وسط الصالة يعلن صائحًا:

- "يا جماعة! يا جماعة. تعالوا! عبد الحليم هايغني!" فتحرك الجمع ناحية التلفزيون مشدودين إلى عزف الفرقة الماسية لمقدمة الأغنية. تلفت "سليمان" حوله باحثًا عن "بنهار" فلمحها جالسة بمفردها على مقعد بالشرفة متجهة برمتها إلى ناحية البحر. فهمس إلى أذن مضيفه:

– "المدام". إنما قاطعه الرجل السمين قائلا:

– "تعرف سعادتك أحمد فؤاد حسن ده"، فقال سليمان متأففا:

– "مين أحمد فؤاد حسن ده؟"

– "حضرتك يا سليمان بك، ده يبقى رئيس الفرقة الماسية اللي بتعزف دي، ماهو أصله كان متجوز نجوى فؤاد". قاطعه ثانية:

– "نجوى فؤاد؟.. هي الحكاية إيه بالضبط؟"

– "الحكاية يا سيدي إن بنته بقى من الفنانة نجوى فؤاد، بنت زي القمر، وكانت زميلة لبنتي في المدرسة، فكانت دايمًا بتيجي تزورنا، وف يوم".. كف عن الاستماع إذ لم يستطع أن ينصت له أكثر من ذلك، فكان يومئ برأسه في حين انشغل ذهنه بإعداد خطة الاختراق. وأخيرًا فوجئ به يقول:

– ".. ومن ساعتها واحنا ما بنشوفهاش".

– "يإسلام! ما شاء الله! حاجة عظيمة!".

وما زالت الفرقة تعزف في حين كان ذهنه متجهًا لناحية الشرفة إلى حيث كانت "بنهار" جالسة، في حين أصابه

ذلك الرجل بالتوتر بحكاياته الغريبة. فالتفت ثانية نحو لطفي وهو يعبث بخاتمه حول إصبعه، ملتمسًا مخرجًا من ذلك الخازوق الذي شعر أنه قد اقتحمه، وقال:

- "أنا شايف المدام قاعدة لوحدها في التراس، مش واجب برضه تروح".. قاطعه لطفي وكان مستغرقا مع الموسيقى المنبعثة من التلفزيون:

- "طب وحياتك يا سليمان تروح تشوف مالها، على بال ما اوضب لك سيجارة فاخرة!". فانطلق سليمان ناحية الشرفة بغير حتى أن يعقب على كلامه، خوفا من أن يعود صاحب الدواجن فيتحفه بتعليقاته السخيفة.

هاله منظر القمر وقد أرسل بغلالة فضية براقة احتضنت صفحة المياه المنسابة إلى ما لا نهاية من وراء مجلس "بنهار"، فبدا ظهرها وكأنها جالسة أمام مرآة تتجمل. التف بخفة حول مقعدها فواجهها، ولكنه فوجئ بها تُشيح بوجهها بعيدًا عنه، وشك لو أنها ربما كانت تبكي. رفع عينيه نحو الصالة فلاحظ انشغال الكل بمتابعة الحفل، فتشجع وركع فوق إحدى ركبتيه أمامها في حين أمسك بمسندي الكرسي الذي كانت جالسة عليه.

- "ليه قاعدة لوحدك يا مدام بنهار وسايبه ضيوفك؟".

التفتت نحوه بتردد، وهمت بأن تجيب، ولكن الكلمات انحشرت بداخلها رغمًا عنها، فآثرت أن تظل محتفظة بصمتها، والتفتت مجددًا تتأمل تتابع الأمواج المنكسرة فوق رمال الشاطئ المفضضة. استمر في انكساره أمامها وما زالت هي غارقة في صمتها وعادت قطرات الدمع تنساب مجددًا فوق وجنتيها الورديتين، وهلت رائحتها العطرة فملأت أنفه. استجمع كل ما أوتي من جسارة ومد يده ناحيتها، وبرفق مسح بأطراف أنامله صفحة وجهها بحنان.

ابتسامة وليدة تبدت، ثم غزت كل صفحة وجهها، فأشرقت بضحكة طفولية، وانبعثت قائمة من مجلسها، فوقف بدوره في مواجهتها. اشتعل قلبه نارًا، وَهَمَّ بأن يطبع قبلة فوق شفتيها، غير عابئ بالعواقب، ولكنها تنحت عنه في الوقت المناسب كأنها قرأت أفكاره، منقذة إياه من السقوط في شر أعماله، واستدارت ناظرةً للداخل حيث المدعوون وقد التفوا حول غناء "حليم". بقي هو واقفًا خلفها يتأمل جمال قدها الملتف في حبكة فستان فيروزي براق يبدأ من حيث تنتهي أطراف شعرها المنساب، ثم يلتف بجسدها فيحتضن مفاتنها

احتضانًا، ويمتد حتى يكاد يتلامس مع الأرضية المبلطة من تحتها. فاجأته بقولها بدون حتى أن تنظر إليه:

– "ما ردتش على سؤالي" وأدرك على الفور ما كانت ترمي إليه، فهمس:

– "آه. إللي يعدي البحر ولا يتبلش، زي الجعان إللي يفضل جعان لو يقضي عمره كله في مطعم، الأكل رايح جاي قدامه وهو بينضَّف الترابيزات، أو اللي بتروح السينما علشان تبيع تذاكر، وهيّ عمرها ما شافت فيلم، أو مثلا الست المتجوزة من راجل ما بيعرفش!" انفجرت ضاحكة، ضحكة ممتدة مجلجلة، حتى انتبه إليها بعض الحاضرين الذين التفتوا ناحيتهما مبتسمين بفضول، ثم انصرفوا عنهما من جديد إلى الشجن العاطفي المسافر عبر صوت العندليب.

– " ما تيجي نتمشى شوية ع البحر".

خلعا أحذيتهما عند طرف الشرفة واتخذا بضع درجات أفضت بهما إلى رمال شاطئ العجمي البيضاء الناعمة. سارا متجانبين حتى وصلا إلى مياه البحر الفضية وقد انسابت فوقها ضياء القمر. تبدى بدرٌ برتقالي شبه مكتمل وأكبر من المعتاد، بل وبدا وكأنه يذوب شوقًا إلى مياه البحر فيجذبها

نحوه تارة، ويميل نحوها ويسكب من رحيقه المفضض فوق سطحها تارة أخرى. وخشيت "بنهار" أن يبتل ذيل فستانها فمدت يدها، ورفعت طرفه إلى فوق ركبتيها وهي تخطو برشاقة فوق أمواجه الماسية المندحرة، فتبدى ساقاها المرمريان لسليمان في وسط المياه كعمودين من نور، انعكس ضيهما أمام عينيه فانبهر، وتراجع للوراء خطوتين من فرط المفاجأة، حتى كاد أن ينقلب على ظهره.

الفصل الرابع والعشرون

لم يزل موضوع "الدكتور رشاد فكري" يؤرقه ويشغله ليلا ونهارًا، فمحمد البوري رجلُ دَيِّن، ورجل المبادئ لا ينسى الصنيع الحسن، وما فعله الدكتور رشاد حياله في أشد أيام حياته ألمًا هو جميل يحمله حول عنقه مدى الحياة. فكما يقولون "إن العشرة لا تهون إلا على أبناء الحرام"، وهو ليس منهم، ولكن ولاءه للإسلام ولحركة الإخوان المسلمين أهم وأقوى، وأغلب وأبقى، فماذا يمكنه أن يفعل كفرد واحد –حتى

لو كان من قادتهم- إزاء رغبة الجميع! لم يبقّ له سوى حلٍّ واحد يُوفِّق بين رغبته الأصيلة في إنقاذه من موت محقق، وبين الإذعان لمشيئة أعضاء الجماعات الإسلامية المتشددة الذين يدبرون الآن لاغتياله. فرصة أخيرة يمكنه معها أن يمنع بعدها مقتله، بدون معاندة باقي الإخوة، والوقوف في صفه حيال رغبتهم في تصفيته.

جلسة استتابة!

نعم فلو كان قد كفر من وجهة نظرهم، فالشريعة تحتم عليه أن يستتيب الرجل قبل أن يُعلنه مرتدًّا عن الدين الحنيف ويُقتص منه، وما أهون عليه أن يتحدث معه -بالمنطق- فيقنعه بالتراجع عن مواقفه المتشددة تلك تجاه الإسلام من ناحية فيكتب له عمر جديد، ويكون إعلان توبته على الملأ -وهو الكاتب والمفكر المشهور- بمثابة نصر مبين يرفع من شأن الحركة إلى آفاق أعلى من ناحية أخرى، تكسبها شعبية أوسع. راقت له الفكرة، فطرحها على "ديدو" -عملا بمبدأ الشورى- فاستحسنها الرجل بدوره، وتعهد إليه بأن يسعى بنفسه لتدبير اللقاء معه.

وافق الدكتور رشاد بشرط أن تُجرَى المناقشة في مكان عام يشهد فيه آخرون وقائعها، فلا يتركون في الأمر أي لبس

أو شك فيما يصلون إليه من نتائج، واقترح هو أن يتم اللقاء في مقر "جماعة الفكر الحر" بالإبراهيمية يوم الخميس القادم الموافق الثاني عشر من يونيو 1981، موعد محاضرته الشهرية بالمركز، والتي سيخصص موضوعها عن قيام الدولة الدينية بهذه المناسبة، بل وسيقلص حجم المحاضرة إلى مجرد بيان يُعبِّر من خلاله عن وجهة نظره في الموضوع، ويفتح بعده باب المناقشة لمن يريد، وعلى رأسهم طبعًا "الشيخ محمد البوري". عرض عليه "ديدو" رد الدكتور، فتفكر قليلا، ثم أومأ برأسه قائلا:

– "فإذا عزمت فتوكل على الله".

بعدها بيومين، وبالتحديد يوم الأربعاء الحادي عشر من يونيو، وبينما كان محمد البوري يرتدي جلبابه الإسلامي الواصل إلى ما تحت الركبتين، وسرواله الهفهاف، والطاقية المشغولة، البِيض اللون، الزي الجديد الذي كان قد اتخذه لنفسه وتبعه في ارتدائه قادة الحركة ونخبتها، استعدادًا للخروج لزيارة "مروة" زوجته الشابة التي أعادت إليه شبابه الضائع بين جدران سجن قنا، إذا بجرس باب الشقة يدوي بإصرار غير مألوف، فتوجس هو على غير عادته. الوقت كان بعد الظهر، وقد انصرف الكل إلى أشغالهم، وحتى الحاجَّة

"زينب" كانت قد ذهبت لقضاء أمر ما، فلم يتبقَّ غيره بالشقة، لذا فقد مضى متباطئًا نحو الباب ليجيب طارقه، وقد تسارعت دقات قلبه، وهو يتفكر فيمن يمكن أن يكون الطارق. "ديدو" يزوره في العادة بعد صلاة العشاء ليشرب معه الشاي، والحاجة والأولاد معهم مفتاح الشقة فلا يدقون جرس الباب، وعند ذاك الخاطر بالذات دق الجرس ثانية بإصرار أشد. "خير ان شاء الله".

مد يده وفتح الباب فإذا بشاب طويل كثيف الشعر والحاجبين يرتدي قميصًا ملونًا واقف أمامه صامتًا، وبجانبه على أرضية عتبة السلم قبعت حقيبة سفر. بدا مرتبكًا وكأنه لم يتوقع أن يفتح له هو الباب، عملاق عجوز أسمر ذو لحية بيضاء، يرتدي ملابس بيضاء غريبة، ويضع منديلا أبيض فوق رأسه، تُرى من يكون؟

– "أيوه يا ابني مين حضرتك؟ عاوز مين يعني؟" سأله العجوز. لما سمعه الشاب لم يصدق أذنيه! هذا الصوت، تلك النبرة اخترقت تجاعيد الزمن وندوبه، وحتى هذه الملابس الغريبة، ففتح ذراعيه، وانقض عليه عاصرًا إياه في حضنه هامسًا بتأثر:

– "بابا. بابا. بابا".

أجلسه بجواره على الأريكة المفضلة، وأنصت بشغف إليه غير مصدق أنه يجلس أمام بِكره "محمد"، وهو يقص عليه كيف تخبط بين مختلف الولايات في "أمريكا" حتى استقر في ولاية "كاليفورنيا"؛ حيث حصل على منحة دراسية أنهى بمقتضاها درجة البكالوريوس في العلوم السياسية من جامعة "بيركلي"، وحيث يستعد الآن لدراسة الماچستير في حقوق الإنسان من نفس الجامعة في الخريف القادم، لذا انتهز الفرصة ليزور العائلة بالإسكندرية قبل أن ينشغل مجددًا بالدراسة والعمل. شعر بفخر لا يُماثله شيء، وإن غلبه وجله على ابنه أن يضيع منه في غمار ذلك العالم العجيب. ثم سأله ابنه بدوره عن سنوات السجن مشفقًا، وعن "مصطفى" و"مي" وعن أمه فاطمأن عليهم جميعًا، ثم تساءل بفضول عن ملبسه الغريب، فقهقه ضاحكًا وأجاب إنها "سُنة" أن يلبس ما كان الرسول -عليه الصلاة والسلام- والصحابة يلبسون، فهز رأسه.

تكلما عن كل شيء، ومضت الساعات بهما وهما قابعان على الأريكة حتى نسيَ الشيخ محمد موعده مع "مروة".

* * *

سحب "سليمان" نفسًا أخيرًا من السيجارة قبل أن يطحنها في المنفضة أمامه على المكتب، وهو ما يزال جالسًا في حجرة الصالون يدخن ويتفكر في تفاصيل آخر لقاء كان قد جمع بينه وبين مدام "بنهار". ففي مدار علاقته بها كانت درجة الحميمية بينهما وقربها إلى قلبه قد فاق إحساسه بأماني زوجته التي عاشرها خمس سنوات طوال، وأنجبت له خلالها أبناءه الثلاثة. كانا يلتقيان بعد الظهر من كل يوم ثلاثاء تقريبًا، بفندق "سويس هوتيل" الصغير بمحطة الرمل الذي كانت تديره مدام "سوزانا"؛ عجوز سويسرية من بقايا الجاليات الأجنبية التي كانت قد استوطنت الإسكندرية قبل قيام الثورة، وكان "سليمان" زبونًا قديمًا عندها منذ أيام الجامعة، وكان صديقًا لزوجها "روبير" قبل أن يفتك به سرطان الرئة في أوائل السبعينيات، وقد أصبحت "سوزانا" بدورها صديقة لهما فيما بعد بحكم تجدد لقاءاتهما عندها.

مزيج غريب من الرقي والسوقية، من الرومانتيكية والشهوانية، من التعالي والتدني، كان يفاجأ به في شخصيتها، ولكنه مع ذلك لم يقابل امرأة مثلها! تعرف ما تريده بالضبط، ولا يهدأ لها بال حتى تحصل عليه، ومن دواعي الفضول بل والريبة، أنهما كلما تقاربا فيما بينهما ونمت العلاقة أكثر، كان

يلاحظ ازدياد اهتمام زوجها به، وإكثاره من السؤال عنه، ودعوته لسهرة هنا أو غَدَاء هناك. صارحها بأفكاره ذات يوم، طارحًا تساؤلات فيما لو كان ربما يشك زوجها في علاقتهما، فاستنكرتها بشدة قائلة إن لطفي مجنون، ولو كان شك -مجرد شك- فيما لو كان بينهما ولو مجرد استلطاف فهي لا تستبعد أن يأتيه ببلطجي يؤدبه أو حتى يقتله بدم بارد، وختمت بقولها:

- "إنت ماتعرفش لطفي. ده واصل لفوق قوي!"

ولكنه لم يرتح أبدًا لعلاقته بلطفي حسنين البصري، فلقد شعر دائمًا بأنه يخفي الكثير تحت ستار تلك البسمة المرسومة والشعر المصفف والخواتم الذهبية حول أصابع الساحر التي كان يلاعبها أمام عينيه عند كل لقاء به، أيكون أحد الحرامية الذين امتلأت بهم البلد هذه الأيام، جمع كل هذا المال والجاه بطرق غير مشروعة؟ أم تراه يعمل لحساب المخابرات مثلا، وإلا فكيف وصل به الحال إلى ما هو عليه من يسر في الحال؟ وذلك التوتر الذي يشمل تواجده في أي مكان يظهر به، وأسئلته المتواصلة عن أشياء مثيرة للشكوك؟. ولكنه لم يجعل ذلك التوتر يؤثر أبدًا في تلك العلاقة التي كانت قد جمعته ببنهار والتي وثقت وتنامت مع الأيام. وفي مساء

الأربعاء الحادي عشر من يونيو، تحققت شكوكه في صدق سريرة لطفي عندما كانا ساهرين معًا في بار فندق "سيسيل" بمحطة الرمل حين لعبت الخمر برأسه، وبدأ صوته يعلو، وكانا يتحدثان عن تظاهرات الطلبة في الجامعات واعتصامهم بها، وعن رد فعل الحكومة في المقابل، ووصف الرئيس لحركتهم بأنها (انتفاضة الحرامية)، فصرخ لطفي:

– "دول ولاد كلب يا سليمان! دول إحنا إللي جايبينهم وحطينهم في وسط الطلبة، ودافعين لهم أكوام فلوس علشان يقفوا قصاد الشيوعيين في الجامعة، يقوموا هم اللي يعضوا الإيد إللي بتوكلهم؟" فتساءل سليمان ببراءة مفضوحة:

– "إحنا مين يا لطفي؟" فرد على الفور وقد رفع نحوه عينين مسبلتين.

– "إنت هاتستعبط؟" فضحك سليمان من أعماق قلبه، وهو يفرك الخاتم بأصبعه في حركة لا إرادية. ثم تساءل بجدية هذه المرة:

– "طب وانتم سايبينهم ليه لما يكبروا بالشكل ده؟". أجابه لطفي بدوره بلسان أثقله السُكر:

– "مين بس إللي قال إننا سايبينهم؟ بس هي الديمقراطية الله يلعن أبوها هي كمان! كل ما نعوز نعمل حاجة جامدة، يطلعولنا بحكاية الديمقراطية، نقوم نسكت. كان مالنا ومال الديمقراطية؟ وهم دول ينفع معاهم ديمقراطية والنبي؟ دول ما يجوش إلا بضرب الجزم!" فضحكا معًا حتى عقّب سليمان:

– "ماهو انتوا إللي خرجتم الجن من مصباح علاء الدين! مش انتوا إللي فضلتوا تلمَّعوه لحد ما صحيتوا العفريت إللي كان حبسه عبد الناصر جوَّا القمقم؟ خلاص بقى إتصرفوا!".

– "هانتصرف. أكيد!. إحنا مش نايمين على ودانّا، لأ طبعًا!" وكان مفعول الخمر قد وصل بهما إلى منتهاه، أو هكذا تفكر سليمان الذي بدأ النعاس يراوده بدوره، فأشار إلى أن الوقت قد تأخر. ولكن لطفي بادره بقوله إن لقاء الغد بين الدكتور رشاد فكري وبين الشيخ محمد البوري بصالون جماعة الفكر الحر محفوف بخطر جم على حياة الدكتور رشاد، فاندهش سليمان حين ظهر له مدى معرفته بتفاصيل الأحداث من حوله؛ حيث إنه لم يعلم شخصيًّا بحضور الشيخ للاجتماع

إلا بالأمس فقط حين اتصل به الدكتور رشاد وأعلمه بشأنه. تجرأ وقال له:

- "إنت عرفت ازاي يا لطفي؟ أقصد أقول مين بالضبط اللي قال لك؟ الدكتور رشاد مثلا؟ بس انت قلت لي إن نفسك تتعرف عليه، أمال مين اللي قال لك؟" ضحك لطفي ثانية وأجاب:

- "شغلنا بقى يا سليمان ياخويا، وماقدرش أقول لك مين إللي قال لي، بس تأكد يا سليمان إني عارف كل حاجة عن كل واحد في البلد، كل واحد وكل واحدة يا سليمان!". قالها بلهجة جديدة، لهجة واثقة حاسمة ومخيفة، لهجة انسابت إلى قلبه فالتوى بداخله، أيقصد أنه يعلم بتفاصيل علاقته ببنهار زوجته؟ وإلا فما الداعي لأن يقول "كل واحد وكل واحدة" ماذا يقصد؟ ولو كان حقيقة يعرف كل شيء، فلماذا يتركهما يستمران في اللقاءات شبه الأسبوعية بفندق مدام سوزانا؟ ثم ماذا قصدت بنهار يوم قالت له إن لطفي غيور، ولو علم شيئًا لكان قتله؟ انتزعه لطفي بقوله:

- "إنت رحت على فين؟ فوق يا سليمان واسمع كلامي كويس، أنا عايزك تروح بكره الصبح، وتحاول تمنع الدكتور

رشاد يروح الاجتماع ده بأي شكل، لأن فيه خطر على حياته. فاهم أنا باقول لك إيه؟ فيه خطر مؤكد على حياته".

* * *

إذا كانت هذه هي حرارة شهر يونيو، فكيف تكون في يوليو وأغسطس؟ تفكر بذلك سليمان وهو يَصُفُّ بصعوبة سيارته بشارع جانبي بقرب ميدان المحطة وهو يتصبب عرقًا، ثم ترجل إلى مقر جريدة "الوطن" حيث مكتب الدكتور "رشاد فكري". كان قد انتهى لتوه من تدريس فصول الفلسفة بالمدرسة بالشاطبي، ثم طار إلى هنا لمقابلة صديقه المفكر المعروف من قبل أن ينصرف عن مكتبه بالجريدة ليحاول أن يثنيه عن الحضور الليلة لإلقاء محاضرته الشهرية، وكلمات لطفي حسنين لا تزال أصداؤها تطن برأسه. وسط أكوام القاذورات وباعة الجرجير والبطيخ والملابس الداخلية المفترشين الرصيف، شق طريقه وهو يحاول أن يركز تفكيره فيما دار بينهما من حديث، وبدون أن يتعثر في أحد هؤلاء الأطفال حاملي تذاكر اليانصيب، والمناديل الورقية، أو لفافات النعناع واللبان، بوجوههم المطلية بطبقة سوداء من هباب عوادم السيارات والعرق وتراب الطريق، وهؤلاء الذين يتقافزون بأجسادهم أمامه بحجة البيع والشراء في حين أنهم في

الحقيقة يتسولون، أو ينتهزون الفرصة لنشل محفظة، أو خطف حقيبة يد، أو سلسلة متدلية فوق صدر امرأة.

بلطف طرق الباب بالدور الثاني بمبنى الجريدة المتواضع، فأذن له صوت الدكتور بالدخول.

– "أهلا أهلا يا سليمان. إيه المفاجأة الحلوة دي؟ وتاعب نفسك وجاي لحد هنا ليه يا راجل؟ ما أنا هاشوفك الليلة في الصالون ولا إيه؟" استقبله كالعادة بوجهه البشوش ونظارته الغليظة الساقطة فوق منتصف أنفه، وبصوته الجهوري الرخيم. أخرج آخر منديل ورق من جيبه وطبطب به فوق جبهته ووجنتيه وهو يجيب:

– "أهلا يا دكتورنا العظيم، ما هو أنا جاي برضه علشان نفس الموضوع".

– "موضوع إيه؟ طب في الأول تشرب إيه" وضغط على الزر الكهربائي الشهير الذي يأتي بعده الساعي المعتل بداء الكهولة وسوء التغذية، فيأمره صاحب الزر بإحضار فنجان القهوة المضبوط، أو عصير الليمون الطازج، أو في ظروف محدودة زجاجة مياه غازية، التي غالبًا ما تكون فاترة.

دار بينهما حديث أفاده خلاله سليمان بمعلوماته التي وصلته من مصدر موثوق به، لم يكن في حِلٍّ لأن يُخبر عن اسم صاحبه، وأن حياته الليلة في خطر إذا ما حضر وألقى بمحاضرته الشهرية عن الدولة الدينية في حضور الشيخ محمد البوري. قهقه في النهاية الدكتور رشاد، ومال بظهره للوراء حتى كاد أن ينقلب به ظهر مقعده، وفي الحقيقة احتار سليمان فيما يفعل بنفسه؛ إذ لم يكن يفهم السر من وراء تلك السعادة المباغتة أو السخرية التي كانت قد حلت بصاحبه. انتظر حتى انتهى وسأله:

- "إيه الحكاية بالضبط يا دكتور؟"

- "الحكاية إنك ساذج يا سليمان! مش فاهم لسه قواعد اللعبة، يمكن علشان انت مسالم حبتين. الراجل بتاعك ده عاوز يشتريني يا سليمان، عاوز يعمل معاك صفقة يدفع فيها بحمايته ليّ الليلة دي الثمن، في مقابل إني أشتغل لحسابهم، وبالتالي أبطل من هنا ورايح أتكلم، أبطل أفضح انتهاكاتهم المستمرة لحقوق المرأة والأقباط، وأشتغل لهم مطبلاتي. يرضيك إني أبقى كده؟ يرضيك أبطل أدافع عن حقوقكم يا سليمان علشان الظلم والتفرقة دي تزيد كمان وكمان؟ وبعدين لو الإسلاميين عاوزين يموتوني –وأنا متأكد

إنهم في يوم هايعملوها- لازم يعني يجوني في مركز "جماعة الفكر الحر" علشان يموتوني وأنا ألقي المحاضرة؟ طب ما ييجو يموتوني هنا في المكتب، ولا في الشارع وسط المولد اللي إحنا عايشين جواه ده، ولا مين شاف ولا مين دري!"، وما يزال مبتسمًا في حين سبح سليمان بفكره بين أمواج أفكاره المتلاحقة. وأخيرًا عقَّب:

- "يظهر إني فعلا ساذج يا دكتور، بس ممكن أطلب منك طلب، يمكن يكون بالنسبة لك أكثر سذاجة من طلبي الأول بإنك ما تجيش للمركز الليلة؟ ممكن تقبل إنك تاخد الخاتم ده وتلبسه لغاية ما تخلص المحاضرة، وبعدين ترجّعهولي بكرة ولا بعده؟" قال ذلك في حين خلع الخاتم عن إصبعه ومد يده به نحو صديقه. مد الدكتور رشاد يده بدوره وأخذ منه الخاتم متعجبًا، ثم شرع يقلبه فوق راحة يده وكأنه يحاول أن يقدر وزنه ليخمن قيمته، ثم قهقه من جديد وقال بكلمات تتخللها ضحكاته:

- "إيه ده يا سليمان؟ هاها.. ده خاتم ده؟ هاها.. ولا حجاب؟.. هاهاهايييييي!"

- "حجاب إيه بس يا دكتور، هو أنا برضه بتاع حجاب وحاجات من دي؟".

- "أمال إيه الحكاية يا بتاع الفلسفة، يا رئيس جماعة (الفكر) الحر؟"

لم يجد بُدًّا، فقص سليمان عليه قصة الخاتم العجيب الذي بدا وكأنه القاسم المشترك في النجاح المبهر الذي حققه "سيد درويش" في مجال الفن، ووالده "داود عبد الملك" في الصيت والشهرة والثروة، و"جمال عبد الناصر" فنجت ثورته من الفشل بطريقة شبه إعجازية وبشهادة الجميع، و"ماجد البارودي" الذي خاض الحرب وعاد منها بدون خدش واحد، في حين استشهد وأصيب كل أفراد وحدته، ثم حياته هو شخصيًّا بنجاحاته وصولاته وجولاته التي حسده عليها أقرانه.

ولكن العجيب أن الدكتور "رشاد فكري" رجل الفكر وصاحب المؤلفات العديدة، الداعي لترجيح سطوة العقل قبل كل شيء، تردد في الرفض القاطع لليد التي مدها إليه "سليمان"، ومن دواعي الغرابة، أنه وإن لم يُبدِ قناعةً بأيٍّ مما قاله، قَبِلَ في نهاية الأمر أن يضع الخاتم حول إصبعه من أجل خاطر صديقه، وإذعانًا لوسوسته غير المنطقية، بالرغم من اقتناعه بأن الخاتم المزعوم مجرد من أي فضل على أي من هؤلاء الذين سرد سليمان قصص بطولاتهم ونجاحاتهم المنسوبة أفضالها لقطعة من الفضة وفصوص من الأحجار

الحمراء التي لا تساوي عنده أكثر من قيمتها كقطعة من الحليّ، قُدِّر له أن يتحلى بها الليلة وهو يتبارز بعقله مع صديقه اللدود "محمد البوري" في منتدى جماعة الفكر الحر.

الفصل الخامس والعشرون

اقتصرت حياة "إيلين" على بضع خطوات تتخذها يوميًّا ما بين السرير والحمام والمطبخ كانت قد أحصتها ذات يوم فوجدتها اثنتين وسبعين خطوة، ومن يومها صارت تتشاغل بعدد الخطوات التي خطتها عند أية ساعة من اليوم، والعدد المتبقي لها لتخطوه حتى تنام. لا يكسر رتابة الزمن الذي بات ملتصقًا بأيامها لا يريد أن يمر سوى زيارات أحفادها لها يوم الجمعة أو في المناسبات والأعياد، وكانت تتساءل أحيانًا: أيٌّ من أولاد سليمان كان ينتوي أن يورِّثَه خاتمه من بعده؟. تدرك يقينًا أن "منى" ابنتها سعيدة في زواجها، وقد شقت طريقها مع زوجها "نادر" -الذي لم تزل لا تميل له- وانتقلا للعيش بحي "المعادي" الراقي ورُزِقَا بـ"مينا" و"ماري". ولكن تعاسة "سليمان" التي حاول إخفاءها دومًا تحت السطح، رأتها هي دائمًا جلية أمامها بعيون الأم التي تلمح خفقات القلوب فلا تنطلي عليها مساومات التصرفات المهادنة. لم تكن "أماني" بالزوجة المناسبة له، ولكنه القدر، و"ما جمعه الله لا يفرقه إنسان". هكذا كانت تقول لنفسها كلما لاح لها ذلك الخاطر.

استيقظت ذات يوم عند الفجر، وشعرت بأن هناك غشاوة ما تزال تغطي عيونها بشبه ظلام، ولكنها أرجعتها إلى

أن تكون من آثار النوم. قامت وخطت بصعوبة نحو الحمام، وهي ترتكن على قطع الأثاث لكي لا ترتطم بها، "واحد. اثنين. ثلاثة. أربعة. خمسة." تتوالى الأرقام في ذهنها تُحصيها في صمت، ثم فتحت صنبور المياه وراحت تغسل وجهها وعينيها عدة مرات، بدون أن تدرك النتيجة المرجوة. لم تزل تلك الغشاوة تتراقص أمام عينيها لا تستطيع أن تصنع شيئًا حيالها، وهي مسكينة، وحيدة، ولا تدري ماذا ينبغي لها أن تفعل. جففت وجهها، ورجعت بمشقة إلى غرفتها، "خمستاشر. ستَّاشر" ثم جلست عند حافة السرير، وشخصت نحو صورة العذراء المعلقة بمواجهتها، ولكنها لم تقدر أن تبصرها. أدركت أن الأمر خطير فانسكبت دموع ساخنة من مقلتيها، ورقدت على ظهرها مستسلمة، وبدأت تصلي بمخدعها. ساعات وساعات من الوحدة القاتلة والصلاة العميقة، تقوم بعدها لتجلس بالسرير، وتحاول أن تتبين الأشياء من حولها بدون جدوى. وبالصدفة جاءت "نرجس" لتطمئن عليها.

فحصها الطبيب الاختصاصي الذي اصطحبها إليه سليمان، ولكنه قال آسفًا إن هناك نزيفًا بقاع العين نتيجة انفصال الشبكية، وإنها سوف تحتاج إلى معجزة حتى يعود إليها بصرها لو لم تسافر للخارج لتجري عملية بأشعة الليزر.

أما هي فأبت أن تسافر، بل اختارت -وملؤها الإيمان- أن تنتظر وسط ظلامها حتى تحدث تلك المعجزة التي تكلم عنها الطبيب.

*** * ***

بعد مغيب الشمس تنكسر حدة الحرارة قليلا، وتطير النسائم المحملة برائحة البحر وتحط فوق كل شباك وكل شرفة بمدينة الإسكندرية، فيكون وصولها لأهلها بمثابة الإشارة التي قبعوا ببيوتهم يقيلون انتظارا لمجيئها، فينطلق الرجال نحو المقاهي والكازينوهات المنتشرة عند كل ناصية شارع، والنساء إلى النوافذ والشرفات للتزاور مع قريناتهن من الجارات عبر الشوارع والطرقات، وليبدأ زحف قلة من الرجال أيضًا، في مدى الأعوام القليلة الماضية، تتزايد أعدادهم باضطراد عند كل مساء، يسعون إلى المساجد المنتشرة في كل أنحاء المدينة بلحاهم الكثة، وطواقيهم البيضاء، وجلابيبهم القصار، وسراويلهم الفضفاضة، تحف شباشبهم بأسفلت الطريق في حفيف يصل بهم إلى صلاة العشاء.

ولكن في ذلك المساء بالذات لم يخطُ "محمد البوري" مع باقي الإخوة نحو مسجد العطارين كما اعتاد، ولم يقضِ أمسيته يستكمل أحاديثه مع ابنه "محمد" العائد من بلاد الكفر

والعربدة، والذي كان قد خرج بصحبة أخيه مصطفى. وتعجب من ابنه هذا بنظرته الغربية وأفكاره المريبة حول المساواة بين المسلم وغير المسلم، وبين الرجل والمرأة، التي عاد بها من هناك، وكأن "أمريكا" هي التي ابتدعت العدل والمساواة بين الناس، وليس كتاب الله وأقوال الرسول الكريم. وعلى العموم فهو لم يفعل هذا ولا ذاك، وإنما وضع هندامه وخضب لحيته واستعد لقدوم "ديدو" ليصحبه في سيارة التاكسي التي يمتلكها للقاء الدكتور رشاد بالإبراهيمية عند "جماعة الفكر الحر"! جماعة الملاحدة وأعداء الإسلام التي يتزعمها نصراني من أب يهودي نجس!.

"آه يا بلد يستحق الحرق!".

في الطريق ذكره "ديدو" بخاتم سليمان، مؤكدًا له مجددًا حلمه في أن يحصل الإخوة عليه فيكون لهم ما شاءوا من تحقيق الآمال وينالون المراد بإذن الله. فابتسم الشيخ وسأله عما يرتئي تحقيقه لو امتلك ذلك الخاتم، فأجابه الرجل ونظره منطلق نحو الأفق، بأن لا نهاية لما يمكن أن يصلوا إليه لو تزاوجت الإرادة الحديدية مع إيمانهم بصدق مطلبهم وقوة إيمانهم بهدفهم في إرساء حكم الله -جل جلاله- على الأرض، مع تلك القوة الكامنة التي يشهد عنها أصحاب الخاتم

المسحور، فلن يكون لمرادهم حدود، ولن يقف في طريق تحقيقه واقف، وكل شيء بإذن الله تعالى. انفرجت أساريره لما شهد بنفسه مدى إيمان "ديدو" بنبل مقصدهم وحماسته المتفانية في سبيل تحقيقه. أما عن الدكتور رشاد فلقد طلب الشيخ منه المهادنة في حواره معه؛ إذ كان الرجل مشهودًا له بالبراعة والحذق في تسديد ضرباته، بل وحذره أيما تحذير من استخدام العنف بأنواعه، مذكرًا إياه بأن الغرض من اللقاء لا يعدو أن يكون بمثابة دعوة للرجل للعودة إلى الإيمان الصحيح، ولا يتأتى ذلك بغير المحاورة بالتي هي أحسن، وعلى أية حال فعيون الإعلام ورجاله المبتاعين لحساب السلطة مسلطة عليهم في هذه الأيام، وبات عليهم إذن أن يتلمسوا كل الحذر فيما يقترفون لئلا يخسروا الخطوات التي كانوا قد نجحوا بالفعل في الوصول إليها. ابتسم "ديدو" له وهز رأسه ولكنه لم يجب.

لما وصلا إلى هناك استقبلهما أولا صاحب القهوة التي تحتل الدور الأرضي محييًا، ثم في قاعة الندوة المرتقبة لاقاهما سليمان مرحبًا، وعرفهما بنفسه وببقية الحاضرين الذين أدركا لقلة عددهم أنهما قد وصلا مبكرًا. وطافت أعينهم بأنحاء المكان وبالموجودين، شقة عادية عالية السقف تتدلى

من وسطه لمبة كهربائية وحيدة تهتز برفق بحركة بندولية رقيقة بفعل نسائم الهواء القادمة من الشرفة المفتوحة على الناحية الأخرى من المنبر المرتفع المعد للمحاضر، في مقابلة عدد كبير من الكراسي الخشبية تُشبه تلك التي امتلأ بها المقهى من تحتهما بالدور الأرضي. قاعة بسيطة لا تزينها صور أو شعارات مكتوبة، مطلية حوائطها بلون باهت يميل للبياض، وتفوح من المكان رائحة هي مزيج من الرطوبة ومبيد للحشرات تتميز به الشقق المغلقة أغلب الوقت.

استأذن الشيخ ليذهب إلى دورة المياه قبل أن تبدأ المحاضرة، بينما استمر الحضور في التسرسب إلى القاعة، ولما عاد وجد "محمد" و"مصطفى" ابنيه جالسين بصحبة شاب ثالث، فاندهش لمجيئهما كما فوجئا أيضًا به لمّا لمحاه خارجًا من باب الحمام، فهبا لتحيته معًا هبةً مباغتةً وقفت بهما متسمرين وكأنهما جنديان فُوجئا بقدوم قائدهما للمكان، فلم تنقصهما سوى التحية العسكرية.

- "إيه إللي جابكم هنا؟" تساءل مكفهرًا.

- "أبدًا. جايين مع (مراد) صاحبي نسمع محاضرة (الدكتور رشاد) الشهرية، علشان (محمد) أخويا يشوف بنفسه إن بلدنا فيها ناس بتعرف تفكر برضه. وحضرتك؟ أنا أول مرة

أشوف حضرتك هنا!" أجابه "مصطفى" متلعثمًا وقد رسم فوق شفتيه ابتسامة متزنة محايدة. انتهز الشيخ المناسبة فنادى سليمان مقدمًا إياهما:

– "محمد ومصطفى ولادي، وصاحبهم مراد" قال الشيخ متبسمًا بلهجة واثقة معبرًا عن صدق نواياه في الحضور الليلة، ومرسلا برسالة لديدو بأن يلتزم ما كان قد كلمه به في الطريق.

– "آه أهلا وسهلا، أهلا بيك يا أستاذ مراد، أهلا بكم يا جماعة شرفتونا، الدكتور رشاد في الطريق، وزمانه على وصول في أي لحظة" أجاب سليمان الذي بدا وكأنه يعرف "مراد" و"مصطفى" من قبل.

كانت المقاعد قد امتلأت كلها تقريبًا حين دخل إلى القاعة الدكتور "رشاد فكري" الذي حيًّا الحاضرين جميعًا، وتقدم إلى المنبر، ثم أخرج عددًا من الأوراق من حقيبة جلدية كان يحملها، ورتبها مستعينًا بنظارة للقراءة سحبها من جيب قميصه. تنحنح وبدا أنه يستعد لبدء المحاضرة حين دلف إلى القاعة أربعة أو خمسة رجال يتقدمهم الرجل المتأنق دائمًا بشاربه المرسوم ونظارته الذهبية "لطفي حسنين" الذي ملأ المكان فجأة بضحكته الواسعة، وتقدم مباشرة نحو المنبر

وسلم على الدكتور رشاد، ثم اتجه ناحية الشيخ محمد وديدو ومر على سليمان مصافحًا إياهم بكِلتا يديه في حميمية مصطنعة. ارتبك "سليمان" قليلا لمّا رآه، ولكنه عالج ارتباكه فورًا بأن أرسل طالبًا مددًا من المقاعد من المقهى، وفي خلال دقائق قليلة كانت العيون بالقاعة الممتلئة عن آخرها شاخصة بترقب إلى الدكتور رشاد فكري.

مال "ديدو" على أذن الشيخ هامسًا:

- "الدكتور رشاد هو إللي لابس الخاتم الليلة!". فهز الشيخ رأسه مؤمنًا على كلامه.

في كلماتٍ موجزةٍ قدَّم الدكتور محاضرته عن (الدولة الدينية) مقدمًا إياها بالقول المأثور: "حكمتَ فعدلت فأمنت فنمت يا عمر" معلقًا بعدها مباشرة بأن "عمر" نفسه مات مقتولا بالمسجد بينما كان يصلي، ناقضًا بمصرعه مبدأ أن العدل في الحكم كان كافيًا لأن يسود الأمان. ثم ذهب يقول إن ثلاثة من الخلفاء الراشدين الأربعة -المضروب المثل بعهدهم كأروع عهود للدولة الإسلامية- قد اغتِيلوا لسبب أو لآخر من قبل أن يمر ثلاثون عامًا على موت الرسول، وفي أزهى عصور الإسلام. وهنا تململ الشيخ محمد في مقعده، الأمر الذي لاحظه المحاضر المتمرس، فأضاف أن ما يعرضه اليوم

إنما هو حديث عن الإسلام السياسي، وليس عن الدين الإسلامي، والصحابة بشر غير معصومين من الخطأ. ولأن البشر جميعًا خطاءون بطبعهم، فلقد قصد أن يُبين أنه كما أخطأ القادة من قبلهم وأخطأ من بعدهم أيضًا بتمحيص صفحات التاريخ، فلم يتحقق المجتمع المثالي الذي تُنادي به جميع الأديان السماوية، على مدى التاريخ الإنساني عامة، لا في عصر سيطرة الكنيسة في أوروبا، ولا على عهد الخلافة الإسلامية وحتى في أوج عهودها، على الرغم مما يروج له قادة الحركة الإسلامية بمصر وشتى البلدان الإسلامية بين أتباعهم من الشباب اليوم. ثم أقر ثانية بأنه لم يقصد سوءًا تجاه الإسلام كدين يدعو إلى العدل والتسامح وينظم أمور التعايش ما بين الناس، ولكنه يدحض الدعوة لأن يتداخل هذا الدين في شئون السياسة والحكم اللذين من المفترض أن تتحكم فيهما قواعد سياسية مدنية، قابلة للتغيير بحسب الظروف المحلية والدولية، وأن مثل هذه الدعوة لحكم الدين وأهله لا تعدو أن تكون خدعة يضحكون بها على عقول الدهماء والسذج، بل وأكثر من ذلك إساءة لحرمة الدين الإسلامي وتعاليمه السامية حينما يجرونه إلى مزبلة السياسة وألاعيب السياسيين.

ثم لملم أوراقه في صمت بينما صفق له بعض المتحمسين لكلماته، ومن بينهم الشاب "محمد محمد البوري"، فيما انبرى أبوه ينظر إليه شزرًا. ولكن الأب لم يكتفِ برد الفعل ذاك فحسب، بل وقف وقال مستنكرًا:

– "يا دكتور رشاد كلامك ده خطير! أولا لأنه مليء بالمغالطات، فيبقى انت إللي بتضحك على عقول السذج والدهماء" ونظر نحو ابنه، ثم أكمل:

– "وثانيًا لأنك تنكر ضمنًا الأحاديث الصحيحة إللي بتقول لنا عن سيدنا عُمَر وإزاي كان فيه حادثتين مشهورتين لما اتكلم بداخل المسجد مع امرأة عن المهور، ومع رجل عن طول ثوبه بالنسبة لأثواب باقي المؤمنين. يعني سيدنا عُمَر كان بيجمع بين المسجد كدار للعبادة، ومكان لإدارة شؤون الحكم! إيه رأي حضرتك بقى يا دكتور؟". وهنا قام محمد ابنه وقال مدافعًا:

– "بس الدكتور قال فعلا إن الكلام ده ممكن يكون حصل، ولكن ده ما يمنعش إن سيدنا عُمَر برضه مات مقتول. يعني النظام ده ما نفعش حتى أيام زمان وقت عصر الخلفاء الراشدين، فبالطبع مش ممكن ينفع دلوقت!".

- "ما نفعش ازاي يا أستاذ محمد يا مثقف؟ إنت برضه مصدق الكلام ده؟ طيب لمّا هو مانفعش أمال الدولة الإسلامية والحضارة المهولة إللي امتدت من الصين لإسبانيا دي كانت إيه؟ صُدفة يعني ولا غلطة مطبعية؟" وهنا انتهز الفرصة الدكتور رشاد ليعقب:

- "يا شيخ محمد الإمبراطورية الإسلامية واقع تاريخي ما ينكرهوش حد، ولكن دعامة الإمبراطورية دي كانت جيش قوي ومنظم وقادة عسكريين مش أئمة ولا ملالي. ومع ذلك إيه رأيك في إللي عمله الخليفة (المنصور) مع (الإمام أبي حنيفة) من سجنه وضربه بالكرابيج وقتله بالسم وهو شيخ عنده سبعين سنة علشان رفض إنه يكون قاضي من رجالة الخليفة، وبعدين مع (الإمام مالك) لمّا أمر رجالته بضربه بالكرابيج وجره لمّا انخلع كتفه. و(الإمام الشافعي) اللي مات من الضرب بالنبابيت هنا في مصر في المسجد يا شيخ محمد. وأخيرا (الإمام ابن حنبل) إللي إختلف مع الخليفة (المأمون) ومن بعده (المعتصم) عن كون القرآن مخلوق ولا مُنزل، فاتجرجر على ضهر حمار لحد بغداد وبعدين إتسجن وانضرب واتهان، وبعدين حطوه في حبس منفرد سنتين ونص، وده في عز مجد الدولة العباسية إللي كنت بتحكي عن أمجادها لابنك

يا شيخ محمد. وده إللي حصل للأئمة الأربعة الكبار، ولغيرهم من المفكرين وللشعراء، وفي العصر الممجد العظيم، فما بالك باللي ممكن يحصل للعامة، وفي عصرنا المنيّل على عينه ده!".

– "أديك قلتها يا دكتور!.. عصرنا المنيّل ده بقى عايزين نغيره بحكم الله بدال حكم الناس إللي مش نافع ده" وهنا تدخل لأول مرة "لطفي حسنين" لما شعر أن الموضوع أصبح يخصه الآن فوقف وقال:

– "حكم الله أكتر من كده إيه ياشيخ محمد؟ مش الريس برضه طرح الاستفتاء على الشعب الشهر إللي فات، وغيّر الدستور علشان تكون الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع؟ ولا الشريعة دي مش هي برضه بتاعة قال الله وقال الرسول ولا إيه؟". فوقف "ديدو" فاردًا صدره وقال:

– "إحنا ماتعرفناش بالباشا! مش نتعرف في الأول وبعدين نتناقش؟" وهنا قام "سليمان" متدخلا بصفته مدير الندوة قبل أن تنفجر المناقشة إلى ما لا يحمد من بعده عقباه، فوقف بمواجهة الحضور جميعًا ودارت عيناه على كلٍّ منهم قائلا:

- "إحنا بنشكر الدكتور رشاد فكري على المحاضرة القيّمة، وبنشكر الحضور جميعًا على حسن الاستماع، وحسن النقاش بعد انتهاء المحاضرة، وبندعوكم جميعًا تشرفونا هنا كل أسبوع، أو على الأقل مرة في الشهر (ثاني خميس) في يوم محاضرة الدكتور رشاد، ودلوقت أحب أقول لكم تصبحوا على خير".

قام كل الحضور وسط همهماتهم ودحرجات أرجل المقاعد فوق البلاط، وشرعوا يغادرون القاعة تباعًا وهم يتساءلون عمن فاز بالمعركة في هذه الليلة.

أما "سليمان" والدكتور "رشاد فكري" فبقيا وحدهما، واتخذا كرسيين بالشرفة، وأخذا يدخنان في صمت، بينما تصاعدت إلى أذنيهما الضوضاء القادمة من المقهى لا تكل أو تهدأ مهما مضت بها ساعات الليل وتوالت.

الفصل السادس والعشرون

حلَّ الصيف ثم مضى بدون أن يشعر أحد بطعم له، فقد ساد الهم كالهواء ما بين الناس، وعم القلق وعدم الاستقرار، وملأ الخلقُ الشوارعَ يهيمون كالمساطيل ينقبون عن أقرب غرزة ليستزيدوا منها سطلا. انتشر رجال الشرطة والمخبرون المتخفون في ثياب مدنية، ورجال الأمن، ورجال المخابرات، بين صفوف الناس حتى بدوا وكأنهم فاقوا أعداد الذين كانوا مضطلعين أصلا بمراقبتهم. وبالرغم من استمالة الحكومة الواضح للتيار الإسلامي فقد انتشرت أفكار تكفيرية ملأت الآذان، وأطلت من كل صوب وناحية، من المساجد، والزوايا، والصحف القومية، والتلفزيون، والراديو، وعلى المقاهي تنطلق من حناجر العاملين العائدين لإمضاء إجازاتهم من دول النفط، وردت السلطة ردًّا عنيفًا في شهر سبتمبر عندما أصدر الرئيس السادات أمرًا باعتقال المئات من قيادات المصريين من مختلف الأطياف وفي شتى المواقع. وصدق حلم "إيلين" بالعذراء الباكية بعد عزل البابا أيضًا، وساد الخوف جنبات القلوب من جديد، مسترجعًا شعور المصريين خلال السنوات التي تلت هزيمة 1967. واستمر تصاعد ذلك التوتر

بين الحكومة وبين التيار الإسلامي المستعر، وبين عامة الناس، حتى بدت البلد وكأنها على شفا حرب أهلية، فسار الخلق في الشوارع يلتفتون خلفهم، وغرقت البسمة والنكتة والضحكة المجلجلة في بحر من الوجوم.

أعاد الدكتور رشاد الخاتم لسليمان رغم إلحاحه عليه لأن يبقيه معه ولو لفترة وجيزة ريثما يهدأ الحال، قائلا له: "بلاش كلام فارغ".

أما "سليمان" فلقد ازداد نفوره -من بعد تلك المحاضرة- من السياسة والسياسيين، فلقد تطورت المناقشة أمام عينيه وتصاعدت حدتها بسرعة مذهلة، حتى إنه خشي أن تصل إلى حد الاعتداء الجسدي لولا أنه نجح في التدخل في الوقت المناسب لينهيها. ما أجمل الفلسفة! وما أجمل النساء! بل ما أجمل "بنهار" بين كل النساء!. استغرق كلية في علاقته بها حتى إنه بات ينتظر يوم الثلاثاء بفارغ الصبر، وكانت هي كذلك تبادله هيامًا بهيام. اكتشف أنها كانت مثله تستمتع بالأغاني الفرنسية، فصار يلتصق يوم الأحد -يوم إجازته من التدريس- بجوار الراديو، يسجل من البرنامج الأوروبي شريط كاسيت يُهديه إليها يوم الثلاثاء، فيستمعان إليه وهما يمارسان الحب بفندق "سويس هوتيل" في كنف

صديقتهما مدام سوزانا! ولكنه دائمًا ما كان يشعر بأنه مراقب عند ذهابه كل يوم ثلاثاء، فكان يتعمد أن يَصُفَّ سيارته بمكان مختلف في كل مرة، وأن يتسكع -ولو قليلا- أمام واجهات المتاجر المجاورة، حتى يطمئن إلى أن أحدًا لا يتبعه، ثم يدلف مسرعًا بعد أن يطمئن، فتتلقاه مدام سوزانا بابتسامتها الواسعة، وصدرها الضخم يهتز فرحًا حين تقوم من فوق كرسيها لتضع قبلة على وجنته قبل أن تُعطيه مفتاح الغرفة رقم ثمانية. وفي الثلاثاء الأخير من سبتمبر وحين كانا يستعدان للرحيل عن عش حبهما، نبهها سليمان إلى أن الثلاثاء القادم سوف يوافق السادس من أكتوبر، وستتعطل خلاله المدارس، ولذا يمكنهما أن يتلاقيا منذ الصباح ليمضيا اليوم بطوله معًا، فوافقت هي على الفور.

وفعلا التقيا بعدها بأسبوع في العاشرة، وتناولا إفطارًا سويسريًّا شهيًّا بحجرة الطعام بالفندق، تبعاه بفنجانين من القهوة، وانصرفا بعدها إلى غرفتهما. كان لتلك السويعات الإضافية مفعول السحر بينهما، فلم يتعجلا شيئًا، وإنما تحابَّا بتأنٍّ وتروٍّ لم يختبراه من قبل. ضمَّها إلى صدره وهو يقبِّل شفتيها الشهيتين، بينما تأوهت هي، منتشية من ملمس جسده يضغط برجولته نحوها. وفجأةً طُرق باب الغرفة بقوةٍ طرقات

متتابعة، فارتعب العاشقان، وتجمدا في مكانيهما عاريين فوق السرير، حتى جاءهما صوت مدام سوزانا يصرخ ملتاعًا:

- "إلحق يا حبيبي! موّتوا السادات بالرصاص! أنا شفته بعيني وهم بيموتوه! أنا شفته عالتلفزيون! موتوا السادات! موتوا السادات!".

هبَّ سليمان منتفضًا من السرير، وخلال ثوانٍ قليلة كان ارتدى قميصه وسرواله وجلس بالمقعد المجاور للسرير يضع جوربه، في حين نهضت "بنهار" متكاسلة، مثقلة بالنشوى والغرام. ارتكزت على مرفقيها، رافعةً جذعها فوق سطح الفراش الناعم، وبرز صدرها النافذ المنتشي بالحب أمامها، وسألت بلهجة ساخرة:

- "هم مين دول يا خويا إللي موتوه؟ الست العجوزة دي باينّها بتخرف".

- "أنا عارف بقى! لما نروح نشوف! ده النهاردة كمان فيه العرض العسكري، يبقوا موتوه إزاي بس؟". في لحظة كان سليمان بالبهو يتابع التلفزيون مع المدام والطاهي الذي حضر من المطبخ ليتابع الأحداث، وعلم من مدام سوزانا أنهما كانا النزيلين الوحيدين بالفندق. لقد أطلقوا الرصاص على الرئيس

فعلا كما قالت المدام! ولكن من ذا الذي يجرؤ؟. دقائق وخرجت بنهار من الغرفة وقابلتهم بابتسامة متسائلة، فأبلغها سليمان بما حدث، ولكنها مع ذلك لم تُبدِ انفعالا بالأحداث، فقد كانت أفكارها تدور في مجرة كوكب آخر. مرت الدقائق ثقيلة، وبينما جلس الجميع بأطراف الكراسي الوثيرة المتناثرة حول جهاز التلفزيون بالبهو، يتابعون الأحداث بشغف، استلقت هي على الأريكة مسترخية وهي تتأمل طلاء أظافرها في استسلام. وفجأة انفتح الباب الرئيسي ودلف "لطفي حسنين" إلى الداخل وقد اكفهر وجهه، ثم ألقى نظرة خاطفة حول كل الموجودين يتفحص وجوههم، وبدا لسليمان أنه قد يكون أومأ برأسه يحييه، ولكنه توجه مباشرة نحو بنهار ومال بجذعه فوق ظهر كرسيها هامسًا لها، إنما بصوت مسموع تبينه الجميع، وكأنه لا يعرف الهمس:

– "يللا بينا يا بنهار. إحنا لازم ننزل مصر فورًا، علشان نشوف هانعمل إيه في المصيبة دي!" ومد يمناه فوق ذراعها وأمسكه ليحثها على القيام استعدادًا للانصراف، فاستجابت بدورها إليه نافرة وقامت، ثم بهدوء كانت تتقدمه ناحية الباب الزجاجي المطل على الشارع الرئيسي. وبينما كان

يسير وراءها التفت لطفي لسليمان وحدجه بنظرة لم يفهم الأخير مكنونها، قائلا:

- "هاكلمك في التليفون أول ما أرجع".

انتظرت حتى غادرا الفندق، ثم تساءلت مدام سوزانا:

- "مين الراجل الغريب ده؟"

- "ده جوزها!"

ابتسم قليلا، وأما هي فأطلقت ضحكة ملعلعة لا تتناسب أبدًا مع سنها، والطاهي رفع كفه فوق فمه، بينما رقصت عيناه ضاحكتين.

* * *

شعرت "إيلين" بأنه نال الجزاء الذي كان يستحقه بعد ما فعل بالبلد وبرئيس الكنيسة، ولكنها مع ذلك لم تُبدِ فرحًا بما حدث. لم تزل متشاغلة عن تقلبات الواقع من حولها بالصلاة والصوم من أجل أن يحقق لها الله الشفاء، بشفاعات القديسين التي كانت تتضرع إليهم ليلا ونهارًا، بل وبدأت تناغي داود الذي لم تعد تستطيع أن تقرأ أشعاره بعد أن فقدت

بصرها، وإن كانت قد حفظت بعضها من تكرار قراءتها لها، ليتشفع لها أيضًا!.

* * *

سأله وهو يحشر حقيبته بالملابس والكتب ليرحل من جديد لو كانت فكرة ذبح أبنائه لم تزل تراوده، فضحكا معًا إذ لم يجد الأب ما يرد به على ابنه، ولكن "محمد" اعترف له بأن ذلك الخاطر المفزع لم يفارق كوابيسه بطول السنين. استعطفه للمرة الألف أن يبقى، فابتسم الابن للمرة الألف أيضًا، ثم أشار من خلال النافذة المفتوحة نحو السماء، وقال سأظل أتعلم هناك حتى أفهم ماذا يريد مني، وأشار بإصبعه لأعلى، وإذا عرفتُ أنه يريدني أن أعود سأعود، ولكن ليس قبل أن أعرف. سأله بدوره لو كان يعتقد أن الدكتور رشاد بمثل هذا السوء، فتفكر قليلا ثم أجاب: "بل وأكثر!"، حاول أن يستزيده، ولكنه لم يستطع، فترك الموضوع وشأنه. شد بقبضته القوية حول مقبض الحقيبة المترهلة، وانتزعها انتزاعًا من فوق السرير، ثم وضعها بجانبه. ألقى بنفسه في حضن أبيه، وقبض بيده القوية فوق رأس العجوز، ثم مسح بكفه فوق فروة رأسه الصلعاء بحنان وحب، وقال والدموع تنساب:

- "خد بالك من نفسك".

- "مع السلامة يا ابني، لا إله إلا الله". فتردد محمد الابن، إذ لم يكن قد اعتاد بعد تلك التحية الإسلامية الجديدة، ولكنه قال:

- "محمد رسول الله" في حين أنه لم يكن يفتكر بقوله شيئًا، حيث كان في الواقع مشغولا بفكرة واحدة وهي أنه ربما لن يرى أباه مجددًا بعد اليوم.

واصطحبه مصطفى وصديقه زيكو في سيارة الأخير الفيات 124 إلى القاهرة ليسافر من جديد ليلحق بأولى محاضرات دراسة الماچستير بجامعة "بيركلي" بكاليفورنيا.

* * *

حين عاد من القاهرة اتصل "لطفي" به فعلا وطلب مقابلته، فدعاه سليمان للعشاء عند "أبو يوسف" السماك الشعبي الشهير، متجنبًا لقاءه في مكان راقٍ تحسبًا للثورة التي يتوقع أن تعتريه فيفضحه صراخه المتوقع بين همس باقي الموجودين. صار موقنًا بأنه يعرف عن العلاقة بينه وبين "بنهار" وإلا فلماذا يأتي إلى الفندق بالذات في ذلك اليوم ليبحث عنها ويصطحبها معه للقاهرة لو لم يكن يعلم بأمر لقاءاتهما فيه كل ثلاثاء. وإذن فشكوكه في أنه كان هناك من

يتبعه إلى الفندق صحيحة، ومع ذلك تحير في أمره، إذ كيف يسكت عنهما طوال هذه المدة التي زادت عن عام الآن، لو كان يعلم عنهما كل تلك التفاصيل. ما يزال منشغلا بكل هذه الأفكار وهو يقود سيارته في الطريق إلى المطعم بالمنشية، وسط وابل من السيارات تعج بها الشوارع، وكأن رئيس الجمهورية لم يُغْتَلْ منذ بضعة أيام، حين خطرت له فجأة فكرة أن تكون تلك العلاقةُ بينه وبين "بنهار" مخططًا لها من قِبَلهما معًا لسببٍ ما لا يُدرك مغزاه الآن، بدليل موقف الزوج المائع منهما، والسهولة الشديدة التي أوقع بها الزوجة في تلك العلاقة التي بدا أن "لطفي" وكأنه يدفعه تجاهها يوم سهرة ليلة شم النسيم بالعجمي. معقول؟ أيمكن أن يدفع رجل بزوجته هكذا إلى أحضان رجل غريب؟ ومن أجل أي مقابل؟ لا بد له أن يعرف الليلة. وبحركة لا إرادية كانت أصابعه تعبث بخاتمه الفضي في حين كان يَصُفُّ السيارة أمام المطعم.

لم يكن "لطفي" قد حضر بعد حين وصل "سليمان" فاختار هو منضدةً بجوار نافذة زجاجية كبيرة تُطل على الشارع المزدحم، وجلس يدخن سيجارة، وعيناه تتنقلان ما بين المارة بالطريق وبين مدخل المطعم منتظرًا دخول غريمه في أية لحظة، بينما تصاعدت رائحة الشواء تملأ المكان. أخذ يفكر

في شكله حين يجيء، هل سيكون متأنقًا كعادته؟ هل سيستقبله بوجوم أم سيلبس ضحكته المعهودة فوق قناعه حين تقع عليه عيناه؟ وكيف ستكون ردة فعله هو تجاهه، وهل سيبادله الجدة لو تحلى بها أو الشدة والعنف لو اختارها أسلوبًا لمجابهته؟ مضت الدقائق بطيئة. نصف ساعة تأخير عن موعده، بات مؤكدًا أنه تعمد التأخير ليتلف أعصابه، ولكنه قرر أن يذهب إذا لم يظهر في خلال الدقائق الخمس القادمة. تفكر في ذلك وهو ينظر إلى ساعته، فلما رفع عينيه عنها إذا بـ "لطفي" واقفًا أمامه، فالتاع وكأنه عفريت تبدّى له فجأة.

سحب الكرسي المقابل وجلس بمواجهته، وهو يقول بابتسامة:

– "آسف على التأخير، زحمة المرور اليومين دول بقت حاجة لا تطاق!" چاكيت جلدي أسود وفانلة رمادية برقبة عالية، أنيق كعادته ولكن دون تكلف، وبسمة مريحة تملأ شدقيه، غير كل ما توقع، فأجاب:

– "فعلا البلد زحمة، وكأن الريّس ما ماتش لسه ما بقالوش كام يوم! حاجة غريبة جدًا. فاكر يوم ما مات عبد

الناصر كانت الناس عاملة ازاي؟". قال مجاريًا إياه في الحديث وكأنه يؤجل سقوط القنبلة ولو إلى حين.

- "الناس خلاص ما بقاش عندها دم! الراجل اللي كان راعِبْهم وكاتم على نفسهم وما خلاش حد يستجري يتنفس كده ولا كده، وجاب ذل الهزيمة والاحتلال للبلد، كان حلو وجميل، والتاني إللي حارب وضحى بنفسه وراح لحد إسرائيل علشان يرجع الأرض، ورجع الأحزاب، وسمح لكل كلب يقف يقول رأيه، وحش وكخه! لما نشوف بقى الراجل الجديد ده هايعمل إيه".

لم يشأ أن يستثيره أكثر بمناقشة سياسية يدرك عاقبتها، فاكتفى بأن هز رأسه أسفًا على ما آل إليه حال الشعب! ثم رفع يده مناديًا الجارسون ليطلب العشاء وهو يتساءل بينه وبين نفسه، متى سيبدأ الكلام الذي من أجله التقيا الليلة؟.

لم يكن يدري بأن الكلمات التي تفوه بها "لطفي" كانت في صميم الموضوع الذي من أجله جاء الليلة، بل والذي من أجله التقيا منذ أكثر من عام في سهرة الحاج مراد العويقي، والتي كان قد أعد لها لفترة فاقت الستة أشهر قبلها ليتسنى له أن يتقابل مع "سليمان داود عبد الملك" جاره القديم بمحرم بك وصاحب الخاتم المسحور، فيستولي هو عليه قبل أن تصل

إليه أيادي الإسلاميين. وإمعانًا في المداراة قال له وهو يمضغ قطعة الكابوريا التي اقتطعها لتوه:

- "أظن انت مش محتاج تاكل كابوريا زيّنا علشان (المسائل) تمشي!" وضحك ضحكته الفاجرة. فرفع "سليمان" عينيه من فوق الطعام مبتسمًا في سذاجة واضحة، وأجاب بإخلاص:

- "مش فاهم!"

- "يعني (المسائل) عندك شغالة لوحدها! إللي عنده الخاتم بتاعك ده مش محتاج لا كابوريا ولا غيره!" واستمر يضحك مقهقهًا وهو يغمس قطعة الخبز في صحن الطحينة بينهما. أدرك "سليمان" ما كان يرمي إليه، فأومأ موافقًا باستسلام، ولكنه تساءل كالمراهق الذي ضبطه أبوه يخفي مجلة مشبوهة:

- "لكن انت عرفت منين؟"

- "تاني يا سليمان بتسأل؟ أنا مش قلتلك إحنا عارفين كل حاجة عن كل واحد في البلد دي؟" فضحك سليمان من سذاجته وأضاف:

- "البلد دي بس؟" فانفجر الرجلان مقهقهين وهما يلتهمان قطع السمك المشوي والجمبري والسلطات، تتخللها تعليقات جنسية منتقاة هنا وهناك حتى انتهيا. وبعد فراغهما من العشاء، دفع سليمان الحساب حاسبًا الخسارة أقل بكثير مما كان يتوقع. اقترح لطفي عليه أن يذهبا إلى بار بمحطة الرمل ليدعوه بدوره إلى كأسين يهضمان بهما تلك الأكلة الشهية.

وفي البار ألقى "لطفي" بقنبلته بعد الكأس الثانية. قال إنه لم يَسْتَطِعْ أن يمنع "بنهار" من التمادي في علاقتها به، لأنها كانت تُهدده بأن تفضح عجزه لو حاول، وقد كان على قناعةٍ بقدرتها على أن تدمره لو تركها تفعل ما هددته به، لأن عرقها التركي الذي اختبره من طول معاشرته لها، كان سيدفعها بكل تأكيد لفعل أي شيء لو أرادت، حتى لو أدى ذلك إلى تحطيمه هو شخصيًّا، فآثر السكوت على التضحية بوضعه ومركزه الحساس. منطق جبار وقصة محكمة استطاع "لطفي" بدهائه أن يُلقيها إليه فيجيب خلالها -بمذلة- عن تساؤلاته التي لا بد وأن تكون قد تطرقت إليه، بل وتفتح الطريق أمامه ليبلغ منتهى مبتغاه فسأله مستضعفًا:

- "سليمان يا خويا، أنا في عرضك! عاوز الخاتم بتاعك -ولو سلف- وأنا مستعد أديك قصاده أي حاجة! قول لي إنت بس نفسك في إيه! شقة؟ عربية؟ وظيفة؟ شاليه ع البحر؟ أنا كل إللي عايزه منك مهلة شهر ولا اتنين أرجّع فيهم كرامتي، مش أكثر"، وكادت الدموع أن تنهمر من عينيه بينما ضحك في نفسه من سذاجة غريمه.

رقّ قلب "سليمان" حيال استعطافه له، وتبين له صدق حدسه عن فحولة الرجل يوم أن زاره لأول مرة بالعجمي في ليلة شم النسيم، وتفكر في أنه لن يخسر كثيرًا لو استغنى عن الخاتم شهرًا أو اثنين في سبيل إنقاذ تلك الأسرة المهددة بالانهيار، وشعر بالذنب لو كان انهيارها سيحدث بسبب أنانيته واستئثاره بمفعول الخاتم المسحور لنفسه، ثم ما قيمة شهرين أمام صداقة قد تمتد العمر كله. لاحظ "لطفي" استغراقه في التفكير، فتوسل إليه أكثر أن يختار الهدية المناسبة لمثل ذاك الصنيع الذي لن ينساه له إلى الأبد. تفكر "سليمان" في أنه يمتلك سيارة وشقة، فلاح له شاليه على البحر كأطيب الخيارات!. ولكن ألم تحذره أمه من قبل من استهتاره بحق الخاتم الذي ورثه عن أبيه داود، حينما كان قد أعاره لماجد البارودي؟ ولكن على أية حال لقد أثبت لها الزمن خطأها، وها

هو الخاتم معه الآن، وبإمكانه أن يساهم به في إنقاذ أسرة من الانهيار، وهو لن يفقده إلى الأبد، بل لشهرين أو ثلاثة على أكثر تقدير، ثم إنه قد بدأ يشعر بالذنب لخيانته المستمرة لزوجته، آه زوجته! نحى صورتها جانبًا، وابتسم أخيرًا لما طالعته صورة الشاليه على شاطئ البحر الذي كان يعشقه.

الفصل السابع والعشرون

تلقته شمس الصباح حين بلغ الدرج المؤدي من مدخل العمارة وإلى رصيف الشارع، فرفع كفه أمام نظارته السميكة درءًا لضيّها الساطع. وكعادته حيّا البواب القابع فوق الدكة إلى يمين الباب الرئيسي مستدفئًا بأشعة النهار الخريفية، فهب "عم أحمد" مسرعًا لالتقاط الحقيبة الجلدية من الدكتور "رشاد فكري" ساعيًا لالتقاط الورقة من فئة خمسة وعشرين قرشًا نظير تلميع سيارته المتهالكة، وحمل حقيبته لدقيقتين، من لحظة خروجه من بوابة العمارة وحتى يفعص قامته الفارعة وكرشه الممتلئ إلى داخل السيارة فيناوله الإتاوة في مقابل الحقيبة. هكذا كان الاتفاق الضمني المعتاد بطول السنين، إلا أن اليوم تحديدًا حدث أمر جليل أثر على استمراريته بشكل ملحوظ.

انطلقت سيارة تاكسي بسرعة عالية لا تتناسب مع حجم الشارع الجانبي الذي تقوم على أحد جانبيه العمارة، ثم أبطأت فجأة أمام المدخل، وخلال ثوانٍ برز رجلان ملثمان من نافذتي السيارة على الجانب الأيمن منها، وقد نتأت تحت إبط كل منهما ماسورة معدنية قصيرة. انتزعت الضوضاء التي أحدثتها العربة انتباه الدكتور رشاد وعم أحمد، فانقطعت بسببه تواترات

أحداث صباحهما المعهودة، يتأملان بفضول ذلك المشهد المتصاعدة أحداثه العجيبة بسرعة مضطردة أمام أعينهما.

وما زاد الموقف غرابة أن الرجلين بدآ فجأة يصرخان في نفس الوقت، متزامنين في نداء "لا إله إلا الله. لا إله إلا الله"، ومع ذلك فلقد أدى صراخهما المبالغ فيه، إلى جانب الضوضاء المفزعة التي سببها محرك السيارة التي استقلوها وصفير عجلاتها فوق الأسفلت، إلى أن يجد رشاد وأحمد صعوبة بالغة في فهم ما كانا يصرخان فيهه أو استيعاب المراد من وراء كل ذلك. بل وزاد الطين بلة أن الرجلين لم يمهلاهما المهلة الكافية للتأمل فيما يجري من حولهما في ذلك الصباح، فإلى جانب صراخهما المفزع، أرسلا وابلا من المقذوفات النارية باتجاه الرجلين، اخترقت جسديهما اختراقًا، ولم يستغرق المشهد كله سوى بضع ثوانٍ سقطا من بعدها معًا متبعثرين فوق الدرج، تختلط دماؤهما بالأوراق المتناثرة من باطن الحقيبة الجلدية، من قبل أن يدرك أحدهما أي مغزى أو يستنبط معنى وراء كل تلك الأحداث التي عصفت بيومهما في ذلك الصباح.

* * *

قال "ديدو" للشيخ "محمد البوري" لم يبقَ سوى أن نحصل على خاتم سليمان، سنراقبه حتى نتحين الفرصة المناسبة للحصول عليه، بدون أن نثير عيون رجال الأمن. لقد انتهى زمن الإعداد والتخطيط. الشارع المصري بات مستعدًّا اليوم أكثر من أي وقت مضى لتنفيذ أقوال الكتاب الحكيم بحذافيرها، وهي على أي حال أحكام الله عز وجل، وما في وسعنا إلا الإذعان لأمره سبحانه العزيز الحكيم. وليس الملالي الفرس بأفضل منا على أي حال، وها هم قد بدلوا أحكام الطاغوت وأعوانه بحكم الله القوي الجبار، ودبوا بأصابعهم في عيون الغرب الكافر، فلم يستطع أو حتى يجرؤ أحد في أن يردهم عن طريق الحق، وساروا في سبيلهم المستقيم، ومن ورائهم شعبهم، معلين كلمة خالقهم فوق كل الكلام.

* * *

سار "سليمان" بطول طريق الكورنيش من شاطئ "كليوباترة" إلى شاطئ "ميامي". استغرقه المشوار ثلاث ساعات كاملة، أمضاها متأملا زرقة البحر الممتدة وأمواجه المنحسرة عند حدود مدينته العريقة الإسكندرية، تداعب خصلات شعره نسمات الهواء البحري المنعشة في ذلك الصباح الخريفي. لم

يكف ذهنه عن العودة لتفصيلات تلك الليلة التي أمضاها بصحبة "لطفي حسنين"، وتساءل مرارًا إن كان ما يفعله هو الصواب حين وافق على الشروع في تلك المقايضة. تفكر في ردة فعل أمه لو سمعت بها، ولكنه قرر ألا يزيد متاعبها بمفاتحتها في تفصيلاتها، فهي ما تزال تعاني من انطفاء نور عينيها، وتمضي ساعات طوال متمتمة بالأدعية والصلوات دون انقطاع، أما "أماني" فكانت كعادتها منشغلة عنه منغمسة في تفاصيل حياتها المملة. وتخيل مجلسه وسط أولاده في شرفة الشاليه وهم يلعبون من حوله فيما يتأمل هو في تلك القطعة من البحر الممتدة أمام الشاليه إذا ما صار يمتلكها لنفسه، فارتاح لذلك الخاطر وانفرجت أساريره، فسحب نفسًا عميقًا من الهواء الساحلي النقي وتشجع على الاستمرار في طريقه حتى نهايته.

عند مدخل "شاطئ ميامي" توقف قليلا متأملا روعة الرمال الذهبية الممتدة حتى مياه البحر الهادئة بفعل تلك الصخرة الهائلة القابعة بشموخ وسط المياه تحرس الشاطئ منذ بداية الأزمان. وتذكر سليمان بفرح ذلك اليوم الذي كان أبوه "داود" قد اصطحبهم فيه إلى ذات الشاطئ، فأمضيا يومًا لن ينسى تفاصيل أحداثه ما دام حيًّا. ودلف بين صف الكبائن

المصطفة إلى يساره كما وصف له "لطفي". وجد نفسه أمام منظر خلاب يأخذ العقل، وكأنه مرق خلال بوابة مسحورة أفضت به من الواقع إلى عالم من خيال. صف من الكبائن المرصوص في شكل دائري يلتف لليمين تارة ولليسار تارة، يحف بمقدمتها، أمام أسوار شرفاتها، ممشى مبلط ينتهي بسور حجري قصير ممتد إلى نهاية الممشى. وما بعد السور كانت تقبع كتلة صخرية هائلة تمتد هابطة في تدريج متعرج حتى تتلاقى عند قاعها بأمواج البحر الثائرة، أي أن الكبائن والممشى إزاءها كانت قد قامت عند قمة ربوة صخرية تحتضن مياه البحر قاعدتها، بينما تتوج الشاليهات قمتها. لم يكن هناك أثر لمخلوق في هذا الوقت من العام، مما أضفى على المكان سحرًا مضاعفًا، واستمر سليمان في مسيره وحتى نهاية الممشى. وعند الشاليه قبل الأخير لمح "لطفي" جالسًا في انتظاره، وبوغت عند وصوله بوجود "بنهار" جالسة بمواجهته، وإن حال سور الشاليه الذي كانت قد استندت بظهرها إليه بين أن يبصرها عن بعد. حياهما معًا ثم جلس بمقعد ما بينهما، وقد شعر بآلام طول المسير، وقد التف بعضلات رجليه. سألته لو كان يود شرب بعض الشاي الذي كانت قد جاءت به معها في قنينة حافظة للحرارة، فشكرها مؤمنًا، وأخذ يحتسي الشاي

بتلذذ من الكوب البلاستيك الذي ناولته إياه. ساد صمت بين ثلاثتهم لا يدري أيهم كيف يبدأ الحديث، وإن استرق كل منهم نظرات خاطفة نحو الآخرين، حتى بدد "لطفي" سحب الترقب المتراكمة:

- "إيه رأيك بقى يا سيدي؟".

- "جمال فوق الوصف" رد "سليمان" بنبرة واقعية. وتساءل لو كان هناك فعلا أمل في أن يمتلك مثله تلك القطعة من الجنة، أم أن الموضوع لا يعدو أن يكون مزاحًا!.

- "إنت جيت هنا قبل كده؟" سألت "بنهار" مشاركة في الحديث لتزيل حاجز الرهبة عنه.

- "في الحقيقة دي أول مرة" أجابها هو ولا يزال يرشف من كوب الشاي الساخن.

- "تبقى ماشفتش (بير مسعود) على كدة!".

- "لأ. ماشفتهوش في الحقيقة!. إيه هو (بير مسعود) ده يا بنهار؟". نطق باسمها بدون ألقاب هكذا بعد أن انكشفت أوراق اللعبة أمام الجميع، أو على الأقل هكذا تفكر سليمان.

فقامت المرأة وتبعها الرجلان بتلقائية، وخطت إلى خارج الشاليه ورافقاها وما زالا يحملان أكواب الشاي في أيديهم، وعبروا الممشى المبلط، ثم برشاقةٍ وَثَبَتْ هي بخطوة علوية مرتقية السور الحجري فإذا بها تقف فوقه فتبعا أثرها، ثم قفزت ثانية فهبطت على سطح الكتلة الصخرية فقفزا مثلها. تقدمت بخطوات حذرة فوق السطح الصخري غير المستوي بنتوءاته المدببة وهما يتبعانها حتى وصلت إلى فتحة في وسط الصخر محاطة بسور حجري وقالت بنبرة منتصرة:

- "بير مسعود!" وهي تشير نحو عمق الفتحة.

*** * ***

تبعه "ديدو" واثنان من رجاله في سيارته التاكسي لمراقبته بطول مسيره بطريق الكورنيش وحتى دخل إلى الشاطئ، فصفُّوا السيارة ولاحقوه من عند رصيف الكورنيش حتى اختفى داخل إحدى الكبائن، فوثبوا حالا متخطين سور الطريق، ثم قفزوا إلى سقف كابينة مجاورة، ومنه تسلقوا الحائط الهابط بين المبنى وسور الكورنيش المرتفع عن مستوى صف الكبائن حتى وصلوا للأرض خلف الكابينة التي كان قد اختفى داخلها. أبصر سليمان يتجه مع رفقائه ناحية "بير مسعود"، ولكن من يكون هذا؟ "لطفي حسنين البصري"، لا

بد أنه وراء الخاتم المسحور أيضًا. هيهات أن يحصل عليه كلب من كلاب السلطة، لا بد له أن يعبر أولا فوق جثتي، تلفت لرجاله بمعنى انتظروا أن أعطيكم أنا إشارة البدء. وبقوا في مخبئهم خلف الكابينة متربصين.

* * *

بئر بعمق ثلاثة أو أربعة أمتار في وسط الكتلة الصخرية لا يتبدى قاعه إذ غطته مياه البحر، وكانت المياه تندفع إليه في فوران متتابع كل بضع ثوانٍ فترتفع نسبتها بقاعه، ثم تعود وتنحدر من جديد لتكشف عن نتوءات صخرية مغطاة بالأعشاب البحرية، لا تلبث أن تختفي من جديد في فورة مزبدة قادمة ثانية لتغطيها، وهكذا في تتابع مثير من علو وهبوط. قالت "بنهار" إن قاع البئر متصل بالبحر الكبير عبر قناة ممتدة أسفل الكتلة الصخرية الهائلة، لذا فالأمواج المنكسرة عند حافة الصخرة هناك تملأ القناة حتى تمتلئ البئر بالمياه، ولما تنحسر الأمواج ينخفض مستوى مياه البئر بدوره. وأضافت أن الأطفال والشباب يلتفون عادة حول البئر في موسم الصيف، يتبارى الأشداء منهم في القفز إلى عمق البئر حالما تعلو بمياهه الأمواج، ثم يتشبثون بجداره الصخرية لما تنحسر فيتسلقونها لأعلى حتى يخرجون منه. وأضافت أن

القِلَّة منهم يتبارون على القفز في البئر ثم يسبحون داخل القناة المائية من تحت الصخر، فيخرجون من ناحية البحر هناك، وأشارت بيدها و"سليمان" يتابع كلماتها كالمأخوذ.

لاحظ أنهما لا يتبادلان الكلام مطلقًا وإن كانا يتناوبان الحديث إليه. فتمنى لو أن إعارته الخاتم للطفي تصير سبيلا للوفاق فيما بينهما، وتمنى من كل قلبه لو تكون مساهمته تلك سببًا في إسعادهما، فقد أحب بنهار فعلا، وشعر بعد اقترابه منها بمدى تعاستها وكآبة حياتها بالرغم من كل مظاهر النجاح ورغد العيش الذي كان يلفها. ولطفي أيضًا كان طيب القلب ومنكسرًا لأسباب خارجة عن إرادته، فالرجل الذي لا يستطيع أن يسعد امرأته لا يقدر أن يكون سعيدًا مهما جمع من ثروة أو سلطة وأصدقاء من حوله.

أما لطفي فكان في صمته يُمنِّي نفسه بالنصر الوشيك، فقد صار عند حافة الحصول على الخاتم المسحور الذي كان قد أنقذ حياة الدكتور رشاد فكري –رحمه الله– ليلة استعاره من صديقه وفي الأيام القليلة من بعدها وحتى أعاده إليه بتعاميه، فتخلت عنه قوته الحافظة، وانتهت حياته ولقي حتفه على أيدي المتربصين به بعد أن فشلوا في إسكاته عن إطلاق كلماته المهاجمة، فأطلقوا عليه رصاصاتهم النافذة بدورهم،

وأخرسوه للأبد. لا يمكن أن يكون خبر موته قد وصل لسليمان بعد، ويجب ألا يصله الآن وحتى تتم الصفقة على خير. عند انتهاء "بنهار" من كلامها عن بئر مسعود ارتفع صوت لطفي متسائلا:

- "قلت إيه يا سليمان؟ موافق؟"

- "طبعًا موافق!" أجاب سليمان على الفور ومد بإصبعه نحو خاتمه خالعًا إياه عنه بتأثر من حول بنصره. ومد "لطفي" بدوره يده إلى جيبه، وأخرج ورقة مطوية بعناية، وفردها أمامه قائلا:

- "وده يا سيدي عقد بيع الشاليه، عالإمضاء!" ومده نحوه فأخذه "سليمان"، وقدم إليه خاتمه بين إصبعيه. وفي لحظة مباغتة كان "ديدو" وصحبه قد قفزوا أمامهم، وأعينهم مثبتة على الخاتم الفضي المسحور، وفي غمضة عين كان "ديدو" قد دفع بكفه في خفة ومهارة يُحسد عليها ليلتقط الخاتم من بين أصابع سليمان. ولكن "لطفي" كان له بالمرصاد فأمسك به قبله، وتشابكت أيادٍ كثيرة، وتزاحمت تعتصر قبضته لتنزع الخاتم من داخلها، وفعلا نجح رجل من أتباع ديدو في الحصول عليه، وفي هجمة يائسة أنشبت "بنهار" أظافرها في لحمه، فتأوه الرجل ألمًا ورغمًا منه أرخى قبضته عندما حاول

"لطفي" بغتة أن يستعيده من جديد، ولكنه أطاح به في عنفوان محاولته، فطار الخاتم أمامهم وتابعته عيونهم وهو يرتفع في الهواء بينما تعكس فضته وعقيقه الأحمر ضياء الشمس الغاربة.

ارتطم الخاتم بحائط البئر الجانبي فتصاعد رنينه المعدني إلى آذانهم وهم متجمدون في ذهول يراقبونه وهو يتهاوى أمام أعينهم إلى عمق البئر الماثل أمامهم.

أطبق لطفي على عنق ديدو يريد أن يخنقه بيديه لولا أن تدخل الرجلان اللذان انتزعاه من قبضته، وصرخت بنهار فزعة لما بدأ تنازع الرجال واشتبكت أياديهم، أفزعهم صراخها فتوقفوا. وشعر سليمان بموجة من الحزن تعتريه، وغالب دمع عينيه لئلا يبكي أمام الباقين، فآثر أن يستدير مبتعدًا عن المكان. وفي لحظة كان ديدو قد أمر رجلا من رجاله بأن يقفز إلى البئر ليأتي بالخاتم فاستجاب الرجل حالا، وخلع عنه ثيابه، ومع ارتفاع الماء بالبئر قفز بملابسه الداخلية، ورجع سليمان من جديد ليرقب نتيجة تلك المحاولة اليائسة لاستعادة خاتمه. وسرعان ما انحسرت المياه التي شابتها الآن حمرة ما، كاشفة من جديد عن مؤخرة رأس الرجل فحسبوه ما يزال يبحث عن الخاتم، ثم ارتفعت المياه من جديد فغطت الرأس المنهمكة

في بحثها. ازدادت حمرة المياه ووقف الجميع يشخصون في ترقب منتظرين أن ترتفع يد الرجل في أية لحظه لتعلن عن عثوره على ضالته المنشودة.

طال انتظارهم وطال ولم ترتفع اليد، بل ولم يستدر الرأس، موجة بعد موجة ليلتقط الرجل أنفاسه وعادت المياه إلى زرقتها المعهودة، وسرعان ما تلاشى الأمل الذي كانوا قد عقدوه في أن ينجح الرجل في العثور على الخاتم، ثم فجأة انقطع الأمل في أن يعود الرجل نفسه إليهم؛ إذ بقى هكذا عدة دقائق منطرحًا أمامهم منكفئًا وجهه بالمياه، وتحجرت عيونهم شاخصة نحوه، لعله يبدي حركة أو ينقلب ناحيتهم فجأة، في حين عجزوا أن يفعلوا أي شيء حياله. ثم أخيرًا بدءوا ينصرفون الواحد تلو الآخر، ولم يبقَ سوى سليمان الذي ضاعفت المحاولة الفاشلة التي أدت إلى موت الرجل من مقدار حزنه. وتعالت الصيحات بين الرجال وراءه، وتبودلت الاتهامات مثل "يا قاتل" و"يا قواد" و"يا مومس"، ثم خفّت وتيرتها تدريجيًّا حتى استحالت إلى عبارات تنم عن النضج والحكمة ينطقون بها، وهم يهزون رءوسهم مثل "عُمره" و"قدره" و"إرادة الله" بينما يقرعون كفًّا بكف، ولم يعد يذكر أيٌّ منهم خاتم سليمان

الذي كانوا قد تجمعوا اليوم من أجله، ثم تركوه في النهاية هو وخاتمه وحيدًا عند البئر.

وما يزال البعض يأتي خلسة ويفتش عن الخاتم ليلا، بعد غروب الشمس مستعينين بكشافات مخصوصة، إذ صدر الأمر لاحقًا بعد رفع جثة الرجل من عمق البئر بوضع حارس من رجال الأمن يمنع الناس أثناء النهار من القفز في "بير مسعود" بعد أن أُشيع بين الخَلق أنه كانت هناك قوة شريرة قد حلت به، قتلت يومًا رجلا مسكينًا حاول أن يقفز في البئر باحثًا عن خاتم سليمان.